

وقصص أخرى

1408

ستيفن كينج

ترجمة **هشام فهمي**



1408

1408

ستيفن كينج

الطبعة الرابعة ، القاهرة 2018م

غلاف : أحمد فرج

تدقيق لغوي : أحمد يحيى

رقم الإيداع : 1808 /2014

I.S.B.N: 978-977-488-265 -4



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01111947957

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

1408

قصص

ستيفن كينج

ترجمة : هشام فهمي



دار اكتب للنشر والتوزيع



لا شيءَ

سوى طنينِ الحشرات يتحرّكَ

بين جُدرانِ الثلاجة

فيصبح العقل جاهزًا للاعتراف

يكمن القتل في ركنٍ مظلم

وأقف حاملًا كُتُبًا في يدي

بينما يقبع الغضب الصّامت منتظرًا

أن تشتعل المحرقة

ستيڤن كينج



وَرديَّة اللَّيل



الثانية بعد منتصف الليل...

كان هول جالسًا على البنش المجاوِر للمصعد، المكان الوحيد في الطابق الثالث الذي يستطيع التدخين فيه، عندما جاء ووروِيك. لم يشعر هول بالسرور لرؤية رئيس العُمال، الذي لم يكن من المفترَض أن يصعد إلى الطابق الثالث خلال ورديَّة الليل، بل كان من المتوقَّع أن يظل جالسًا في مكتبه في القبو يحتسي القهوة من الإبريق الذي يضعه في رُكن المكتب. كما أن الجو كان حارًّا الليلة.

كانت حرارة الجو قد ارتفعت في شهر يونيو هذا على نحوٍ لم تشهده بلدة جيتس فولز منذ سنوات، ومنذ أيامٍ سجَّل ميزان الحرارة المُثبَّت إلى جوار المصعد 49 درجة فهرنهايت في الثالثة صباحًا. يعلم الله وحده أي حُفرةٍ من حُفر الجحيم يتحوَّل إليها المصنع خلال ورديَّة الثالثة إلى الحادية عشرة.

كان يعمل على فرّازة النسيج، وهي ماكينة ضخمة صنعتها شركة في كليڤلاند سنة 1934. بدأ هول عمله في المصنع منذ ما يزيد قليلًا عن الشهر، ما يعني أنه لا يزال يقبض الحد الأدنى من الأجر، أي دولارًا واحدًا و 78 سنتًا في الساعة. لا بأس بهذا، فليست لديه زوجة أو صاحبة يُنفق عليها، وليست هناك مُطلّقة يدفع لها نفقة. كان هول هائمًا من مكانٍ إلى آخر بلا هدف، وخلال السنوات الثلاث الماضية انتقل من بركلي (حيث درس بالجامعة) إلى ليك تاهو (حيث اشتغل عامل نظافة في مطعم) إلى كالڤستون (عامل شحن في الميناء) إلى ميامي (طاهٍ) إلى ويلنج (كسائق تاكسي أولًا، ثم غسيل الأطباق في مطعم) حتى بلغ جيتس فولز، ماين، حيث يعمل على فرّازة النسيج. لم يكن يُفكّر في الانتقال إلى مكانٍ آخر قبل أن يزحف الشتاء ويبدأ الجليد في السقوط. كان شخصًا يحب العُزلة، وقد راق له العمل في ورديّة الحادية عشرة إلى السابعة، حيث تخف الحركة في المصنع وتهدأ درجات الحرارة.

الشيء الوحيد الذي لم يرُقْ له كان الجرذان...

كان الطابق الثالث واسعًا ومهجورًا، لا يُنيره إلا ضوء مصابيح الفلورسنت المتذَبذب، وعلى عكس طوابق المصنع الأخرى كان يسوده الصمت نسبيًّا ولا يشغله أحد، أو لا يشغله إنسان على الأقل.. أما الجرذان.. الجرذان كانت مسألة أخرى. الماكينة الوحيدة

في الطابق الثالث كانت الفرّازة، أما بقيَّة الطابق فيُستخدَم لتخزين الأجولة المليئة بالألياف، التي على هول أن يعمل على فرزها بالماكينة الضخمة. كانت الأجولة مرصوصة إلى جوار بعضها البعض في صفوفٍ طويلة كقِطع السُّجق كما تراها في دكان الجزّار، وبعضها (خصوصًا الأنواع التي لم تعُد تُستخدَم في الملابس، والقصاصات المُكدَّسة بلا ترتيب) عمره أعوام طويلة، وقد لطَّخته أوساخ المخلَّفات الصناعيَّة. تلك الأجولة كانت بمثابة المكان المثالي للجرذان لتصنع أوكارها وتُعمِّرها ببطونها الكبيرة وأعينها المسعورة وأجسادها التي تعج بالقمل والطفيليات.

من ناحيته، عوَّد هول نفسه على تكوين ترسانة صغيرة من علب المشروبات الغازيَّة الفارغة، التي يجمعها من سلَّة القمامة أثناء راحته، ويتسلَّى بتصويبها على الجرذان في الأوقات التي يكون فيها العمل بطيئًا، ثم يجمعها مرَّة أخرى في وقت لاحق. على أن كبير العُمال ضبطه وهو يمارس هذا النشاط هذه المرَّة وقد صعد على السلالم بدلًا من استخدام المصعد، محافظًا على سمعته كوغدٍ يهوى التسلُّل كالثعابين.

- «ماذا تفعل؟»

- «إنها الجرذان. أقذفها بالعلب الفارغة عندما أراها.»

يقول هول هذا مُدركًا كم يبدو كلامه سخيفًا الآن، مع هروع الجرذان عائدةً إلى بيوتها واختفائها عن الأنظار.

هزَّ وورويك رأسه هزَّة خفيفة. كان بدينًا كبير الحجم ذا شعرٍ قصير، وقد شمَّر كُمي قميصه إلى أعلى وفكَّ ربطة عنقه.

- «إننا لا ندفع لك أجرًا على إلقاء العلب على الجرذان، حتى إذا كنت تجمعها بعدها.»

- «لم يُرسل هاري أيَّ طلباتٍ جديدة منذ عشرين دقيقة، ولا يمكنني تشغيل الفرَّازة خاوية طبعًا.»

هذا ما قاله هول لوورويك، أما لسان حاله فكان «لِمَ لا تظل في مكتبك وتتركني في سلام؟»

هزَّ وورويك رأسه مرَّة أخرى كأن الأمر لم يعد يعنيه، أما هول فأضاف:

- «سأصعد لألقي نظرة على وسكونسكي.»

- «أراهن أنه تجاهل ما لديه من عمل وجلس يقرأ مجلاته السخيفة.»

لم يُعلِّق هول. ثم إن وورويك صاح مشيرًا فجأةً:

- «ها هو واحد! اضرب الوغد!»

ألقى هول العلبة الفارغة التي كان يمسكها في يده بحركةٍ سريعة على الجرذ، الذي كان واقفًا يراقبهما من فوق كومةٍ من الأجولة بعينيه اللامعتين، لكن هذا فرَّ مبتعدًا وهو يُطلق صرخة قصيرة حادَّة. ألقى وورويك رأسه إلى الخلف ضاحكًا، بينما ذهب هول ليستعيد العلبة.

راقبه وورويك وهو يلتقط العلبة من على الأرض ويعود إلى البنش، ثم قال:

- «على كلِّ حال جئت لأراك لمسألةٍ أخرى.»

- «ماذا؟»

- «الأسبوع القادم عطلة الرابع من يوليو، وسوف يُغلَق المصنع من الاثنين حتى السبت. إنه أسبوع إجازة لمن مضى أكثر من سنة على تثبيتهم، وتسريح مؤقَّت لمن أمضوا أقل من سنة، فهل تريد أن تعمل؟»

- «أعمل ماذا بالضبط؟»

- «سوف نُنظِّف مستوى القبو بأكمله. لم يلمس أحد هذا المكان منذ اثني عشر عامًا، وطبعًا يعج بالفوضى والقذارة. سنستخدم خراطيم المياه.»

- «هل بدأت الحكومة تضغط على مجلس الإدارة؟»

رمقه وورويك في ثبات قائلًا:

- «أتريد العمل أم لا؟ دولاران في الساعة وضِعفهما في الرابع من يوليو. سنعمل في وردِيَّة الليل كي تكون الحرارة ألطف.»

حسب هول ساعات العمل والأجر المتوقَّع في رأسه، فوجد أنه سيجني خمسة وسبعين دولارًا بعد الضرائب. لا بأس. لا بأس على الإطلاق.

- «ليكن.»

- «سنتجمَّع عند المصبغة يوم الاثنين إذن.»

راقبه هول وهو يعمد عائدًا إلى السلالم. ثم إن ووررويك توقَّف في منتصف الطريق والتفت ناظرًا إلى هول، وقال:

- «كنت طالبًا في الجامعة، أليس كذلك؟»

هزَّ هول رأسه إيجابًا، فقال رئيس العُمال:

- «ليكن يا فتى الجامعة. سأتذكَّر هذا.»

غادر ووررويك وعاد هول يجلس مُشعلًا سيجارة أخرى، وقد أطبق على علبة مياه غازيَّة مترقِّبًا ظهور أحد الجرذان. كان يتخيَّل كيف سيكون الوضع في القبو، بل في القبو الأدنى بالأحرى الذي يقع تحت مستوى المصبغة. سيكون مفعمًا بالرطوبة لا شك، مظلمًا مليئًا بالعناكب والقماش المتعفِّن والرواسب القادمة من النهر... والجرذان بالطبع... بل وربما الوطاويط كذلك، طيَّاري فصيلة القوارض. شت!

قذف هول العلبة بقوَّة، ثم ابتسم لنفسه ابتسامة خفيفة إذ سمع صوت ووررويك يأتيه من أعلى عبر فتحات التهوية وهو يُوبِّخ هاري وسكونسكي في عُنف.

ليكن يا فتى الجامعة. سأتذكَّر هذا.

ثم تلاشت الابتسامة من على وجهه فجأةً ودفن سيجارته في المطفأة.

بعد دقائق بدأ وسكونسكي يُرسل إليه دفعاتٍ جديدة من النيلون الخشن، وعاد هول يواصل عمله، وبعد قليل بدأت الجرذان تخرج وتجلس فوق الأجولة في مؤخِّرة الغرفة الطويلة تراقبه بعيونها السوداء التي لا ترمش.

كانت الجرذان تبدو كهيئة محلِّفين تستعد لإصدار حُكمها.

***

الاثنين، الحادية عشرة مساءً...

تجمَّع نحو ستة وثلاثون من العُمال عند المصبغة، عندما جاء وورويك مرتديًا سروالًا جيتر قديمًا دسَّ ساقيه في بوت أصفر كبير. كان هول يُصغي إلى هاري وسكونسكي، الذي كان شديد البدانة، شديد الكسل، شديد الكآبة.

عندما دخل وورويك كان وسكونسكي يقول:

– «إنها مصيبة. انتظر وسترى، سنعود إلى بيوتنا وقد صرنا أكثر سوادًا من الليل.»

– «حسن!» صاح بها وورويك ليلفت انتباههم إليه. «لقد علَّقنا ستين مصباحًا في القبو لتتمكّنوا من رؤية ما تفعلونه.»

وأشار إلى مجموعةٍ من الرجال الواقفين عند مِكَبَّات الصباغة قائلًا:

- «أنتم، أريدكم أن تصلوا الخراطيم بأنبوب المياه العمومي هناك عند بئر السلَّم. يمكنكم سحبها على السلالم لدى نزولكم. طول الخرطوم الواحد يبلغ ثمانين ياردة تقريبًا، أي ما يكفي وزيادة. ولا يحسبنَّ أحدكم نفسه طريفًا ويرش زميله بالماء فيُدخله المستشفى. إن ضغط المياه عنيف جدًّا.»

قال وسكونسكي في أسى:

- «سوف يقع حادث لأحدنا. انتظروا وسترون.»

أشار وورويك إلى مجموعة هول ووسكونسكي مضيفًا:

- «أما أنتم فستتولون رفع النفايات الليلة. ستعملون في أزواجٍ على عربة كهربائيَّة لكلِّ فريق. هناك أثاث قديم وأجولة من الأقمشة التي تعفَّنت وقطع من الماكينات الخردة وأشياء من هذا القبيل. سوف نُكوِّم كل هذا عند ماسورة التهوية في الطرف الغربي. هل منكم من لا يعرف كيف يُشغِّل العربة؟»

لم يرفع أحدهم يده. كانت العربة الكهربائيِّة عبارة عن ماكينة صغيرة تشبه شاحنات رفع القمامة، وكانت قد اكتسبت رائحة تثير الغثيان من فرط استخدامها، ذكَّرت هول بكابلات الضغط العالي المحترقة.

- «حسن، لقد قسَّمنا القبو إلى قطاعات، وسننتهي من كلٍّ هذا بحلول الخميس. يوم الجمعة ننقل القمامة كلها إلى الخارج. هل من أسئلة؟»

لم يتكلَّم أحدهم. أمعن هول النظر إلى وجه رئيس العُمال، وراوده هاجس مفاجئ بدنوٍّ شيءٍ غريب، وأشعرته الفكرة بالسرور بما أن وورويك لم يكن يروق له كثيرًا.

- «حسن، لنبدأ.»

***

الثلاثاء، الثانية صباحًا...

كان هول يشعر بالإرهاق، وقد ضاق ذرعًا بثرثرة وسكونسكي وشكواه التي لا تنتهي، وتساءل إن كان من المفيد أن يضربه بحزامه، لكنه قرَّر أن هذا لن يُفضي إلى شيءٍ باستثناء المزيد من الشكوى من جانب وسكونسكي.

توقَّع هول أن يكون عمله في القبو سيئًا، لكن هذا كابوس حقيقي. إنه لم يتوقَّع أن تكون الرائحة بتلك الشناعة؛ رائحة مياه النهر الملوَّثة الممتزجة برائحة الأقمشة المتعفِّنة والمواد العضويَّة. في الركن القصي الذي بدأوا العمل منه، اكتشف هول مستعمرةً من الفِطر الأبيض الضخم الذي سكن شقوق الجدران الإسمنتيَّة، وقد

مسَّته يده وهو يسحب ماكينة صدئة قديمة، فشعر بملمسه الدافئ اللزج كأنه لحم رجلٍ يعاني من الاستسقاء.

لم تستطع المصابيح طرد الظلام الذي دام اثني عشر عامًا، بل كانت تدفعه إلى الوراء قليلًا وتُلقي بوهجٍ أصفر شاحب على الفوضى الضاربة أطنابها في المكان، الذي بدا له كصحن كنيسةٍ قديمة انتهكها جنود جيشٍ غازٍ، بسقفه المرتفع والماكينات العملاقة التي لن يتمكّنوا من تحريكها من أماكنها أبدًا والجدران الرطبة التي غلّفتها الطحالب، بالإضافة إلى الصوت الرتيب الصادر من خراطيم المياه كأنه أشباح جوقة الكنيسة تنعى الخراب الذي حلَّ بها. كانت المياه تجري عبر شبكة المجاري نصف المسدودة التي تُفرغ محتوياتها في النهر في النهاية.

وحدِّث ولا حرج عن الجرذان! جرذان ضخمة تجعل تلك التي تسكن الطابق الثالث تبدو كالأقزام بالمقارَنة. يعلم الله وحده ما تأكله تلك الجرذان هنا. كان العُمال يقلبون الألواح والأجولة باستمرار ليكتشفوا أعشاشًا ضخمة مكوَّنة من أوراق الجرائد الممزَّقة، ويراقبون بكثيرٍ من الاشمئزاز إذ تفر القوارض البغيضة بين الشقوق والصدوع بأعينها الكبيرة العمياء من طول الظلام.

بأنفاسٍ متقطِّعة قال وسكونسكي، على الرغم من أنه ظلّ يتهرَّب من العمل طوال الليل:

- «لنتوقَّف ونُدخِّن سيجارة.»

رأى هول أنهما بعيدان عن أنظار الجميع الآن، فهزَّ رأسه موافقًا وارتكن على العربة الكهربائيَّة مُشعلًا سيجارته، بينما قال وسكونسكي في بؤس:

- «لم يكن يجدر بي أن أدع وورويك يُقنعني بهذه العمليَّة. ليس هذا عملًا يليق برجل! لكنه كان غاضبًا تلك الليلة عندما ضبطني جالسًا في الحمَّام. بحق السماء كان غاضبًا حقًّا!»

لم يُعلِّق هول. كان يُفكِّر في وورويك، وفي الجرذان. من الغريب كيف يرتبط الاثنان معًا في مخيِّلته. بدا له أن الجرذان قد نسيت وجود البشر مع إقامتها الطويلة تحت المصنع، إذ كانت عنيدة وقحة حقًّا ولا تخاف بهذه السهولة. لقد وقف أحدها على ساقيه الخلفيتين كأنه سنجاب، وظلَّ على هذا الوضع حتى اقترب هول بمسافةٍ تُتيح له أن يركله، ثم إن الجرذ وثب على البوت وبدأ يقضم في الجلد الثخين. هناك المئات من الجرذان هنا، بل الآلاف ربما، وتساءل هول عن نوعيَّة الأمراض التي تحملها هنا في هذا المستنقع الأسود.

وورويك... ثمَّة شيء ما فيه...

- «لكني أحتاج النقود. لكن بحق السماء ليس هذا عملًا يليق برجل! وتلك الجرذان... إنها تبدو كأنها تستطيع التفكير. هل خطر لك كيف سيكون الوضع إذا تبدَّلت الأدوار؟»

- «اخرس يا وسكونسكي!»

رمقه وسكونسِكي بنظرةٍ جريحة وتمتم:

- «معذرةً يا صاحبي، لكن...»

ثم شرد قليلًا، قبل أن يهتف:

- «رائحة هذا المكان شنيعة بحق المسيح! ليس هذا عملًا يليق برجل!»

زحف عنكبوت على حافّة العربة في هذه اللحظة ومنها إلى ذراعه، فنفضه مُطلقًا أنينًا مشمئزًّا.

اعتدل هول مُطفئًا سيجارته وقال:

- «هلُم، دعنا ننته من هذا.»

في تعاسة قال وسكونسكي:

- «ليكن.»

***

الثلاثاء، الرابعة صباحًا، وقت الزاحة...

جلس هول ووسكونسكي مع ثلاثة أو أربعة رجال آخرين يلتهمون طعامهم بأيدٍ سوداء لا يقدر حتى المطهِّر الصناعي نفسه على تنظيفها. كان هول يأكل متطلّعًا إلى رئيس العُمال في مكتبه الصغير ذي الجدران الزجاجيَّة، بينما يشرب وسكونسكي القهوة ويزدرد شطيرة كبيرة من الهامبرجر.

قال تشارلي بروكو:

– «راي أپسون غادر وعاد إلى منزله.»

سأله أحدهم:

– «هل تقيَّأ؟ لقد كدت أفعلها عن نفسي.»

– «لا. أنت تعرف راي، يمكنه أن يلتهم أيَّ شيءٍ ولا يتقيَّأ. لقد عضَّه جرذ.»

أدار هول وجهه ناحيتهم وقال مقطِّبًا جبينه:

– «حقًّا؟»

هزَّ بروكو رأسه وأجاب:

– «نعم. كنا نعمل معًا في فريقٍ واحد. ألعن شيء رأيته في حياتي على الإطلاق. الوغد وثب من واحدٍ من الأجولة وأطبق على يد راي بأسنانه وبدأ يقضم. كان بحجم قطٍّ بالغ.»

–«ربَّاه!» قالها واحد من الرجال وقد بدا على وجهه الامتعاض.

– «نعم. لقد صرخ راي كالنساء، ولا ألومه، وبدأ ينزف كالخنازير. لكن هل تخلَّى عنه ذلك الشيء؟ لا! لقد اضطررت لضربه ثلاث أو أربع مرَّات بلوحٍ من الخشب قبل أن يستسلم أخيرًا. أما راي فقد طار صوابه شعاعًا. أخذ يهوي على الجرذ بحذائه حتى لم يعُد أكثر من كومةٍ من الفرو المعجون بالدماء. ألعن شيء رأيته في حياتي

فعلًا. أعطاه وورويك ضمَّادة وقال له أن يعود إلى بيته ويذهب للطبيب غدًا.»

قال أحد الرجال:

– «كرم مُبالَغ فيه من الوغد البدين.»

وكأنما سمع ما يقال، نهض وورويك على قدميه في مكتبه وفرد جسمه، ثم خرج من الباب قائلًا:

– «حسن، انتهى وقت الراحة.»

نهض الرجال متثاقلين محاولين استهلاك أطول وقتٍ ممكن في تسوية ملابسهم وإحضار المشروبات الباردة وقِطع الحلوى، ثم بدأوا النزول إلى القبو من جديد، وقد تردَّد وقع خطواهم الثقيلة على السلالم المعدنيَّة على نحوٍ غير محبَّب.

مرَّ وورويك بهول في طريقه، فربَّت على كتفه قائلًا:

– «ما الأخبار يا فتى الجامعة؟»

ولم ينتظر الإجابة، بل أسرع نحو السلالم، فأشار هول إلى وسكونسكي، الذي كان يعقد رباط حذائه، وقال في صبر:

– «هيا بنا.»

***

الثلاثاء، السابعة صباحًا...

خرج هول ووسكونسكي معًا،وخطر للأول أنه -بشكل ما- أنجب البولندي البدين ونسيه. كان وسكونسكي ملطّخًا بالأوساخ على نحو يكاد يكون كوميديًّا، واكتسى وجهه بالسُّخام كأنه غلام صغير تلقَّى لتوه علقة مبرِّحة على يد بلطجي البلدة.

لم يمارس بقيَّة الرجال مزاحهم الخشن المعتاد؛ كأن يجذب أحدهم قميص الآخر من الخلف، أو يتساءل آخر عمن يُدفِّئ زوجة توني في فراشها بين الواحدة والرابعة صباحًا. لم يكن هناك سوى الصمت الذي لا يقطعه إلا صوت تنخُّع أحدهم قبل أن يبصق على الأرض المتَّسخة.

سأله وسكونسكي في تردُّد:

- «أتريد توصيلة؟»

- «نعم، شكرًا.»

لم يتكلّما والسيارة تنطلق بهما في ميل ستريت وتعبر الجسر، وتبادلا عبارة عابرة قبل أن يُنزله وسكونسكي أمام شقّته.

عمَد هول فور دخوله إلى الحمَّام وهو لا يزال يُفكِّر في وورويك، محاولًا أن يُحدِّد الشيء الذي يجذب اهتمامه في رئيس العُمال ويجعله يشعر بوجود رابطٍ ما بينهما.

غاب في النوم بمجرَّد أن وضع رأسه على الوسادة، لكن نومه كان قلقًا متقطِّعًا.

كان يحلم بالجرذان.

***

الأربعاء، الواحدة صباحًا...

كان العمل على الخراطيم أفضل.

في كلِّ قطاعٍ لم يكن دور حاملي الخراطيم يحين إلا بعد أن ينتهي العاملون على جمع النفايات، وكثيرًا ما كان حاملو الخراطيم ينتهون من هذا القطاع قبل أن يفرغ الآخرون من القطاع التالي، ما كان يعني فسحةً من الوقت لتدخين السجائر والثرثرة. كان هول يعمل على فوهة أحد الخراطيم الطويلة، بينما يتحرَّك وسكونسكي جيئةً وذهابًا في سرعةٍ ليرخي الخرطوم نفسه ويفتح المياه ويُغلقها ويزيل ما في طريقهما من عقبات.

كان ووروِيك يشعر بالحنق من تقدُّمهم البطيء، فلن يفرغوا يوم الخميس أبدًا إذا استمرَّ العمل بهذا الإيقاع.

الآن كانوا يعملون وسط غابةٍ من أثاث المكاتب الذي يعود عمره إلى القرن التاسع عشر وتكوَّم في أحد الأركان: مكاتب مهشَّمة، دفاتر غطَّاها العفن، أكوام من الإيصالات، كَرَاسٍ مكسورة. كل هذا

صنع من المكان جنَّة حقيقيَّة للجرذان. جحافل منها كانت تصر وتفر عبر الممرَّات المظلمة التي صنعتها عبر الكومة. وبعد أن عضَّت الجرذان رجلين آخرين، رفض الباقون مواصَلة العمل إلى أن يأتي وورويك ببعض القفَّازات المطَّاطيَّة الثقيلة من النوع الذي يستخدمه العاملون في المصبغة في المعتاد، لانطواء عملهم على التعامُل مع الأحماض.

كان هول ووسكونسكي ينتظران الدخول بخرطومهما، عندما بدأ ثور أشقر اسمه كارمايكل يصب الشتائم واللعنات فجأةً، ويتراجع في سرعة وهو يضرب صدره بيديه المحاطتين بزوجٍ من القفَّازات.

كان الجرذ الضخم ذو الفرو الرمادي والعينين المقيتتين قد غرس أسنانه في قميص الرجل وتعلَّق هناك ضاربًا بطنه بقدميه الخلفيَّتين ومُطلقًا صريرًا حادًّا. استطاع كارمايكل أخيرًا أن يدفعه بعيدًا بحركةٍ عنيفة من قبضته، لكن كان هناك ثُقب ضخم في قميصه، ومن إحدى حلمتيه سال خط من الدم. زال الغضب من وجه الرجل وحلَّ الغثيان محلَّه، وانتحى جانبًا وأفرغ معدته.

فتح هول خرطومه على الجرذ، الذي كان عجوزًا بطيء الحركة، وقد علقت قطعة من قميص كارمايكل الممزَّق بأسنانه، فقذفه ضغط الماء الهائل إلى الجدار حيث تحطَّم جسده وسقط صريعًا.

جاء وورويك وقد علت وجهه ابتسامة متوتِّرة غريبة، وربَّت على كتف هول قائلًا:

- «أفضل كثيرًا من إلقاء العلب الفارغة على الأوغاد الصغار، أليس كذلك يا فتى الجامعة؟»

تمتم وسكونسكي:

- «وغد صغير حقًّا. إن طوله يبلغ قدمًا كاملًا.»

أشار وورويك إلى كومة الأثاث قائلًا:

- «افتح الخرطوم عليها. وأنتم، ابتعدوا عن الطريق!»

غمغم أحدهم:

- «بكلِّ سرور!»

اندفع كارمايكل نحو وورويك بوجهٍ شاحب وهتف:

- «سأنال تعويضًا عن هذا! ســـ...»

قاطعه وورويك مبتسمًا:

- «بالتأكيد. لقد عضَّك جرذ في حلمتك! والآن ابتعد عن الطريق قبل أن يُحوِّلك ضغط الماء إلى عجين.»

صوَّب هول فوهة الخرطوم نحو كومة الأثاث وفتح المياه، التي تفجَّرت لتقلب مكتبًا على وجهه وتُهشِّم كرسيين إلى شظايا، فجرت

الجرذان في كلِّ مكان. كانت أكبر حجمًا من أيِّ نوعٍ رآه هول في حياته على الإطلاق، وسمع الرجال يُطلقون صيحات الرعب والاشمئزاز مع فرار تلك الأشياء ذات العيون الضخمة والأجسام السمينة. لمح هول واحدًا منها يبلغ حجمه حجم جروٍ عمره ستة أسابيع وفي كامل صحته،وظلَّ يضخ المياه حتى اختفت الجرذان كلها، ثم أغلق الخرطوم.

صاح ووررويك:

– «حسن! لنواصل العمل!»

لكن ساي إيستن صاح بصوتٍ أعلى:

– «لم تُخبرنا أننا سنعمل كمبيدين للقوارض.»

كان هول يعرف إيستن نوعًا بعد أن قضيا بعض الوقت معًا في تدخين السجائر الأسبوع السابق. كان شابًّا يرتدي قبعة بيزبول ملوَّثة بالسُّخام وقميصًا تقليديًّا.

قال ووررويك في هدوء:

– «أهذا أنت يا إيستن؟»

بدا الشاب متردِّدًا، إلا أنه خطا إلى الأمام وقال:

– «نعم. أنا لا أرغب في مواجهة المزيد من تلك الجرذان اللعينة. لقد قبلت أن أعمل على تنظيف المكان، لا أن أصاب بالكَلب أو التيفويد أو ما شابه. اعتبرني منسحبًا.»

علا صوت همهمات الرجال المؤيِّدة، واختلس وورويك نظرةً إلى هول، لكن هذا كان يفحص فوهة الخرطوم الذي يحمله.

- «هل تقول إنك تريد ترك العمل الآن؟»

- «أفكِّر في هذا.»

هزَّ وورويك رأسه وقال موجِّهًا كلامه للجميع:

- «ليكن. يمكنك الانصراف مع غيرك ممن يريدون الانسحاب. لكن فليعلم الجميع أن من يريد المغادرَة فليفعل الآن، وإذا غادرتم فلا يمكنكم العودة. سأعمل على هذا.»

تمتم هول:

- «يا لتفاهتك!»

التفت إليه وورويك قائلًا:

- «هل قلت شيئًا يا فتى الجامعة؟»

- «لا شيء. كنت أسعل فحسب.»

قال وورويك مبتسمًا:

- «هل تشعر بمذاقٍ سيء في حلقك؟»

لم يجب هول، فصاح رئيس العُمال:

- «حسن! لنواصل العمل!»

الخميس، الثانية صباحًا...

عاد هول ووسكونسكي للعمل على جمع النفايات بالعربة الكهربائيَّة مرَّة أخرى. كانت كومة النفايات المكدَّسة عند ماسورة التهوية في الطرف الغربي قد تعاظمت كثيرًا، ومع ذلك لم يكن نصف العمل قد انتهى بعد.

قال وسكونسكي عندما توقَّفا للتدخين:

– «رابع من يوليو سعيدًا يا صاحبي.»

كانا يعملان عند الجدار الشمالي بعيدًا عن السلالم، وكان الضوء خافتًا للغاية، وبحيلةٍ صوتيَّةٍ ما جاء صوت بقيَّة الرجال كأنه على بُعد أميالٍ كاملة.

سحب هول الدخَّان إلى صدره وغمغم:

– «شكرًا. لم أرَ الكثير من الجرذان الليلة بالمناسبة.»

– «لم يرَ أحد الكثير منها فعلًا. لعلها ثابت إلى رُشدها أخيرًا.»

كانا واقفين عند طرف زقاق متعرِّج مجنون كوَّنته أكوام وأكوام من الدفاتر والفواتير القديمة والأجولة ونَوْلين ضخمين بطل استخدامهما منذ عقود.

بصق وسكونسكي على الأرض وقال:

– «وورويك هذا... إنه...»

لم يكمل العبارة، ولم يكن هول يصغي له، بل قال كأنما يخاطب نفسه لا زميله:

– «إلى أين تذهب تلك الجرذان في رأيك؟ ليس داخل الأساسات بالتأكيد.»

وأشار إلى العواميد الضخمة الملأى بالشقوق والصدوع مضيفًا:

– «سوف تغرق، فالأساسات تشبَّعت تمامًا بمياه النهر.»

في هذه اللحظة انقضَّ عليهما شيء أسود مُحلِّق، جعل وسكونسكي يُطلق صرخة مدوِّية ويضع يديه على رأسه في رعب، بينما ظلَّ هول ثابتًا وقال:

– «وطواط.»

صرخ وسكونسكي في هياج:

– «وطواط؟! وطواط؟! وما الذي يفعله في القبو؟! الوطاويط تعيش في الأشجار وتحت الأفاريز و...»

قال هول في هدوء:

– «كان كبير الحجم. وماذا يكون الوطواط غير جرذٍ ذي جناحين؟»

– «بحق المسيح! وكيف...»

- «كيف دخل؟ ربما من نفس المكان الذي خرجت منه الجرذان.»

جاءهما صوت وورويك من مكانٍ ما ورائهما يهتف:

- «ما الذي يحدث هناك؟ أين أنتما؟»

قال هول لوسكونسكي وعيناه تلمعان في الظلام:

- «لا تقلق.»

اقترب صوت وورويك أكثر وهو يقول:

- «أكانت هذه صرختك يا فتى الجامعة؟»

هتف هول:

- «لا توجد مشكلة! لقد صدمت ساقي فحسب!»

جاءته ضحكة وورويك الساخرة الشبيهة بالنباح إذ قال:

- «هل نمنحك وسام الشجاعة إذن؟»

انحنى هول على الأرض مشعلًا عود ثقاب ليظهر مربَّع في منتصف الإسمنت المفتَّت وقال لوسكونسكي:

- «انظر. اطرق عليه.»

طرق وسكونسكي على المربَّع في تردُّد قبل أن يقول:

- «إنه خشب.»

هزَّ هول رأسه موافقًا وقال:

- «إنه رأس دعامة. لقد رأيت بعضًا مثله هنا. ثمَّة مستوى آخر تحت هذا الجزء من القبو.»

قال وسكونسكي بمنتهى التقزُّز:

- «فليرحمنا الله!»

***

الخميس، الثالثة والنصف صباحًا...

كانا في الجزء الشمال شرقي من المبنى، وإيستن وبروكو خلفهما يحملان أحد خراطيم الضغط العالي، عندما توقَّف هول وأشار إلى الأرض قائلًا:

- «إنه هنا، تمامًا كما حسبت.»

كان هناك باب أفقي مصنوع من الخشب ذو حلقة حديديَّة صدئة مثبَّتة في منتصفه.

عاد هول أدراجه إلى بروكو وطلب منه أن يُغلق المياه، ثم رفع صوته مناديًا على وورويك، فجاء هذا ناثرًا المياه حوله وناظرًا إلى هول بابتسامته القاسية المعهودة، وقال في سخرية:

- «هل انفك رباط حذائك يا فتى الجامعة؟»

تجاهل هول التعليق، وركل الباب الخشبي بطرف حذائه قائلًا:

- «انظر إلى هذا. إنه قبو فرعي.»

- «وماذا في هذا؟ ليس هذا وقت الراحة، لذا...»

- «هذا هو المكان الذي فرَّت إليه الجرذان. إنها تتكاثر هناك بالأسفل، كما أننا رأينا وطواطًا منذ قليل.»

كان بعض الرجال الآخرين قد تجمَّعوا ويرمقون الباب في توجُّس.

قال وورويك:

- «هذا ليس من شأني.المهمة التي كُلِّفتم بها هي القبو، وليس...»

- «ستحتاج إلى حوالي عشرين من مبيدي القوارض، ويجب أن يكونوا حَسَني التدريب. سوف يُكلِّف هذا الإدارة مبلغًا لا بأس به. كم هذا مؤسٍ!»

قال أحد الرجال ضاحكًا:

- «مساكين!»

صوَّب وورويك إلى هول نظرة مدقِّقة كأنه يفحص حشرةً تحت المجهر، ثم قال في شيءٍ من الدهشة:

- «يبدو أنكَ تحسب نفسك شديد البراعة حقًّا. من قال إنني أبالي بعدد الجرذان التي تقبع هناك بالأسفل؟»

– «لقد أحسنتَ عندما ذكّرتني بأنني درست في الجامعة. كنت في المكتبة اليوم وأمس، وقرأت قوانين تقسيم المناطق الخاصَّة بالبلدة، والتي تم إقرارها سنة 1911، أي قبل أن يتسع المصنع ويستحوذ على المزيد من الأرض. أتدري ماذا وجدت؟»

قال ووررويك في برود:

– «اذهب من هنا يا فتى الجامعة، أنت مطرود.»

تابَع هول دون أن يعيره اهتمامًا:

– «وجدت أن هناك قانونًا للحيوانات والحشرات الطفيليَّة في جيتس فولز. تعرف معنى هذا، أليس كذلك؟ إنها الوطاويط والظِّربان والكلاب غير المرخَّصة والجرذان، وغيرها مما يحمل الأمراض وينقلها. لكن القانون يُعطي اهتمامًا خاصًّا للجرذان بالذات. إنها مذكورة أربع عشرة مرَّة في مادَّتين فقط يا سيادة رئيس العُمال. عليك إذن أن تعلم أنه بمجرَّد خروجي من هنا سأتوجَّه مباشرةً إلى عُمدة البلدة وأشرح له الموقف بالتفصيل.»

وتوقَّف للحظة مستمتعًا بتعبير الكراهية الخالصة الذي ارتسم على وجه ووررويك، قبل أن يضيف:

– «أعتقد أن الحصول على إنذار قضائي عندها لن يكون بتلك الصعوبة، وسيُغلق المصنع أبوابه طويلًا، وليس حتى يوم السبت فقط. أستطيع أن أتصوَّر رد فعل رئيسك أنت عندما يأتي ليجد المصنع

مغلقًا، لكن أتمنى أن يكون تأمين البطالة الخاص بك كافيًا يا عزيزي وورويك.»

تحوَّلت يدا وورويك إلى مخالب وهو يقول في مقت:

- «يا لك من فضولي لعين! يجدر بي أن...»

ثم بتر عبارته بغتةً ونظر إلى الباب الخشبي، قبل أن تعود ابتسامته للظهور ويقول:

- «اعتبر أنه تم تعيينك من جديد يا فتى الجامعة.»

- «كنت أعرف أنك ستُصغي لصوت العقل.»

هزَّ وورويك رأسه دون أن تفارق الابتسامة الغريبة شفتيه.

- «أنت ذكي حقًّا. ليكن يا هول، أعتقد أنك يجب أن تنزل إلى هناك كي يقودنا رجل ذو تعليم جامعي؛ أنت ووسكونسكي.»

صرخ وسكونسكي في هلع:

- «ليس أنا! ليس أنا! إنني...»

- «إنك ماذا؟»

لم يحر وسكونسكي جوابًا، فقال هول في مرح:

- «عظيم. سنحتاج إلى ثلاثة كشَّافات. أعتقد أنني رأيت رفًّا كاملًا من النوع الذي يعمل بست بطَّاريات في المكتب الرئيس، أليس كذلك؟»

قال وورويك في لامبالاة:

- «تريد رجلًا ثالثًا؟ ليكن، اختر من تشاء.»

أشار هول إليه قائلًا في هدوء، وقد عاد التعبير الغريب يعتلي ملامحه:

- «أنت. يجب أن يكون معنا ممثّل من الإدارة، أليس كذلك؟ فقط كي لا نرى جرذانًا أكثر من اللازم إذا كنا وحدنا.»

أطلق أحدهم - إيستن غالبًا- ضحكة عالية، فجاس وورويك بعينيه بين الرجال في حذر فوجدهم خافضي الأبصار، ثم أشار في النهاية إلى بروكو قائلًا:

- «بروكو، اصعد إلى المكتب الرئيس واجلب ثلاثة كشّافات. قُل للحارس إنني سمحت لك بالدخول.»

قال وسكونسكي لهول في ضراعة:

- «لِمَ ورّطتني معك؟ إنك تعرف أنني أكره تلك الـــ....»

قاطعه هول ناظرًا إلى وورويك:

- «لم يكن أنا.»

استدار وورويك إليه وثبّت ناظريه عليه، ولفترةٍ طويلة لم يُشِح أحدهما بوجهه.

الخميس، الرابعة صباحًا...

عاد بروكو حاملًا الكشّافات، وأعطى واحدًا لكلٍّ من هول ووسكونسكي ووورويك،ثم ناول إيستن الخرطوم لوسكونسكي بناءً على أمر وورويك، فارتجفت الفوهة في يد البولندي الخائف دائمًا، ثم قال له وورويك:

– «حسن، ستكون أنت في المنتصف. إذا كانت هناك جرذان بالأسفل، فافتح عليها المياه.»

فكّر هول أنه إذا كانت هناك جرذان فلن يراها وورويك، ولن يراها وسكونسكي كذلك بعد أن يجد زيادة في راتبه القادم.

أشار وورويك إلى اثنين من الرجال قائلًا:

– «ارفعا الباب.»

مال أحدهما على الحلقة المثبّتة في منتصف الباب الخشبي وجذبها، وللحظاتٍ لم يحسب هول أن الباب سيتزحزح من مكانه، إلا أنه تحرّك فجأةً مُصدِرًا صوت قرقعةٍ غريبًا. وضع الرجل الآخر يده على الجزء السفلي من الباب ليرفعه، لكنه لم يلبث أن سحبها في سرعة مُطلقًا صرخة قصيرة. كان عدد مهول من الخنافس العمياء الضخمة يزحف على يده.

بحركة عصبيَّة جذب الرجل الآخر الحلقة أكثر إلى الخلف وترك الباب يسقط، ورأوا جميعًا الجانب السفلي وقد غطَّاه نوع أسود غريب من الفطر لم يره هول من قبل، أما الخنافس فقد سقطت في الظُّلُمات بالأسفل، أو فرَّت هنا وهناك لتسحقها أقدام الرجال.

غمغم هول:

- «انظروا.»

كان هناك قفل صدئ مكسور مثبَّت بالجانب السفلي من الباب، فقال وورويك في حيرة:

- «لكن ليس من المفترَض أن يكون بالأسفل. الأحرى أن يكون على هذا الجانب. ما الذي...»

قال هول:

- «هناك أسباب عدَّة. ربما كي لا يستطيع أحد أن يفتحه من هذا الجانب، عندما كان القفل جديدًا على الأقل، أو ربما كي لا يستطيع أحد أن يخرج من أسفل.»

- «لكن من أغلقه من أسفل أصلًا؟»

قال هول في تهكُّم:

- «آه! إنه لغز!»

منتحبًا قال وسكونسكي:

– «لن أنزل!»

في هذه اللحظة قال بروكو:

– «اسمعوا.»

كان صوتًا ناعمًا توقَّعوا سماعه، صوت ألف جسدٍ يتحرَّك بالأسفل، صوت الجرذان.

قال وورويك:

– «لعلها ضفادع.»

أطلق هول ضحكة ساخرة مدويَّة، فسلَّط وورويك ضوء كشَّافه داخل الباب، ليكشف عن سلالم خشبيَّة متهالكة تقود إلى أرضيَّة القبو الفرعي المصنوعة من الحجارة السوداء، ولم يكن هناك أي جرذان على مدى الرؤية.

قال وورويك في حسم:

– «هذه السلالم لن تحتملنا.»

خطا بروكو إلى الأمام ووثب مرتين على الدرجة الأولى من السلالم فأصدرت صريرًا، لكنها لم تُبدِ علامة على قُرب انهيارها.

خاطبه وورويك قائلًا في صرامة:

- «لم أطلب منك أن تفعل هذا.»

فقال بروكو في تحدٍّ:

- «أنت لم تكن موجودًا عندما عضّ الجرذ راي.»

- «هيا بنا، لنتحرّك.» قالها هول، فألقى ووررويك نظرة ساخرة أخيرة على حلقة الرجال، ثم سار إلى حافة السلالم مع هول، وخطا وسكونسكي في تردُّد بينهما. نزل الثلاثة واحدًا تلو الآخر: هول، يليه وسكونسكي، ثم ووررويك. تراقصت الأشعة الصادرة من كشّافاتهم على الأرضيَّة، التي كانت ملتوية وتعج بما بدا في هذه الإضاءة كآلاف من التلال والوديان. كان الخرطوم يُصدر صوتًا مكتومًا وراء وسكونسكي إثر ارتطامه بالسلالم كأنه أفعى خرقاء.

لوَّح ووررويك بضوء الكشّاف مستطلعًا عندما بلغوا القاع، فلم يروا إلا بعض الصناديق المتعفّنة والبراميل وبضع نثريَّاتٍ أخرى لا أكثر. كان السائل النّاز المترسِّب من النهر قد تجمَّع في بِرَكٍ بلغ ارتفاعها الكاحل في أحذيتهم.

قال ووررويك همسًا:

- «لم أغد أسمعها.»

تحرَّكوا مبتعدين عن السلالم في بطءٍ محاولين مراوغة البِرَك اللزجة التي ملأت الأرض.

توقّف هول وسلّط ضوء كشّافه على صندوقٍ خشبي ضخم، وردّد المكتوب عليه:

– «إلياس ڤارني، 1841. هل كان المصنع موجودًا وقتها؟»

أجاب ووررويك في برود:

– «كلا. إنه لم يُبنَ حتى 1897. ما الفارق على كلٍّ حال؟»

لم يجبه هول، وواصلوا التقدُّم إلى الأمام، وبدا لهم أن هذا القبو الفرعي أطول مما يُفترَض أن يكون.

كانت الرائحة النتنة هنا أقوى بكثير؛ رائحة أشياءٍ متحلّلة وأشياءٍ متعفّنة وأشياءٍ مدفونة، وكان الصوت الوحيد الذي سمعوه هو صوت المياه المتقاطرة كما لو أنهم في كهفٍ عميق.

– «ما هذا؟» ألقى هول السؤال مشيرًا بضوء الكشّاف نحو نتوءٍ من الخرسانة يبلغ ارتفاعه قدمين تقريبًا، ومن ورائه امتدَّت العتمة السرمديَّة، وخُيِّل لهول أن باستطاعته سماع أصوات أشياءٍ تتحرَّك خلسةً تأتي من هناك الآن.

حدَّق ووررويك في النتوء وتمتم:

– «مهلًا، إنه... لكن لا... لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا.»

– «إنه جدار المصنع الخارجي، أليس كذلك؟»

دار وورويك على عقبيه فجأةً وقال:

– «سأعود.»

أطبق هول على عنقه في قسوة قائلًا:

– «لن تذهب إلى أيِّ مكان يا سيادة رئيس العُمال.»

نظر وورويك إليه وقال عابسًا:

– «أنت مجنون حقًّا يا فتى الجامعة، مجنون تمامًا.»

– «لا يجدر بك أن تُكلِّف الناس ما لا طاقة لهم به يا صديقي. هيا بنا، لنواصل.»

قال وسكونسكي في ضراعة:

– «هول، أرجوك...»

– «أعطني هذا.» قالها هول ساحبًا الخرطوم من يده، ثم أفلت عنق وورويك وصوَّب الفوهة نحو وجهه، فاستدار وسكونسكي في هذه اللحظة وانطلق يعدو نحو الباب الخشبي. لم يلتفت إليه هول لحظة، بل أشار إلى وورويك قائلًا:

– «بعدك يا سيادة رئيس العُمال.»

تقدَّم وورويك خاطيًا تحت البُقعة التي تنتهي عندها حدود المصنع فوقهما، وسلَّط هول ضوء الكشَّاف إلى الأمام شاعرًا بنوعٍ من الرضا البارد، وقد أدرك أنه يواجه الآن الهاجس الذي راوده من قبل. كانت الجرذان قد تجمَّعت حولهما في صمت كالموت، تجمَّعت صفًّا وراء

صفٍّ لترمقهما بآلافٍ وآلافٍ من الأعين الشَّرِهة.. بعضها يبلغ طوله ارتفاع قصبة ساق رجلٍ بالغ.

لمح وورويك الجرذان بعد مرور لحظات، وعندها تجمَّد في مكانه وقال:

– «إنها في كلِّ مكانٍ حولنا يا فتى الجامعة.»

كان صوته لا يزال هادئًا يوحي بسيطرته على أعصابه، وإن شابه شيءٌ من التوتُّر.

– «نعم. واصِل المشي.»

سارا أمامًا وهول يسحب الخرطوم وراءه. كان قد ألقى نظرة واحدة إلى الخلف، فرأى الجرذان وقد أغلقت الممر الذي جاءوا منه وبدأت تقرض الخرطوم السميك، ورفع أحدها رأسه وبدا كأنه يبتسم، قبل أن يعود إلى قضم الخرطوم. والآن يستطيع هول أيضًا رؤية الوطاويط السوداء التي تدلَّت من دعامات السقف وقد ناهزت الغربان حجمًا.

قال وورويك مُسلِّطًا كشَّافه على بُعد خمسة أقدامٍ إلى الأمام تقريبًا:

– «انظر.»

كانت الجمجمة التي اكتست بلون العفن الأخضر ترمقهما ضاحكةً، وبعدها بقليل كانت عظمة الزَّند، ثم جزء من الحوض، ثم جزء من القفص الصدري.

– «واصِل المشي.»

كان يشعر الآن بشيءٍ يتفجَّر داخل صدره، شيءٍ أسود مجنون.

سوف تفقد أعصابك قبلي يا سيادة رئيس العُمال، أقسم على هذا.

مرًّا بالعظام التي يعلم الله وحده كم يبلغ عمرها (منذ 1841 ربما؟) لكن الجرذان لم تُزاحمهما، بل حافظت على مساحة ثابتة بينها وبينهما، وعلى مسافة بعيدة نسبيًّا رأى هول أحدها يقطع طريقهما في سرعة خاطفة قبل أن يتوارى بين الظلال، لكنه لمح ذيله الوردي المرتعِش سميكًا ككابلات الهاتف.

أمامهما ارتفع الطريق في حدَّة، قبل أن ينخفض مرَّة أخرى، واستطاع هول أن يسمع صوت حفيفٍ وقضْم، صوت شيءٍ لعل رجلًا حيًّا لم يسمعه من قبل، وخطر له أنه كان في الغالب يبحث عن شيءٍ كهذا طوال أيام تجواله بين البلدان.

كانت الجرذان تقترب زاحفةً على بطونها، ورأى هول أن شيئًا قد حدث لها ها هنا في قلب الظُّلُمات، نوعًا بشعًا من التحوُّر لم يكن ليحدث تحت عين الشمس. كانت الطبيعة لتحول دون حدوثه بقوانينها الصارمة، لكن الطبيعة هنا ترتدي قناعًا مروِّعًا.

كانت الجرذان عملاقة بالفعل، بعضها يبلغ طوله ثلاثة أقدامٍ كاملة، لكن أقدامها الخلفيَّة لم تعد هناك، وأصابها العمى لتصير كالوطاويط بدورها. كانت تجر نفسها إلى الأمام في شراهةٍ تثير الهَلَع.

استدار ووروِيك ليواجه هول بابتسامةٍ لم يُبقها على شفتيه إلا قوة الإرادة، ما أثار إعجاب هول في الحقيقة.

– «لا يمكننا الاستمرار يا هول. لا بد أنك تدرك هذا.»

– «أعتقد أن الجرذان لديها عمل معك.»

وأخيرًا تخلَّت شجاعة ووروِيك عنه، وقال متوسِّلًا:

– «أرجوك، فلنعُد، أرجوك.»

مبتسمًا في قسوة قال هول:

– «إلى الأمام.»

تحرَّك ووروِيك ناظرًا من وراء كتفه وهو يقول:

– «إنها تقرض الخرطوم، وعندما تنتهي منه لن نستطيع العودة أبدًا.»

– «أعرف. استمر.»

– «أنت مخبول تمامًا!»

قفز جرذ لحظتها على حذاء ووروِيك فأطلق صرخة، فاتَّسعت ابتسامة هول وأشار بكشَّافه. كانت الجرذان قد أطبقت الحصار عليهما تمامًا، وأقربها إليهما كان على بُعد أقل من قدمٍ واحدٍ الآن.

بدأ ووروِيك يتحرَّك من جديد، فتقهقرت الجرذان إلى الوراء، ثم بلغ الاثنان الجزء المرتفِع من الأرضيَّة ونظرا إلى أسفل. كان ووروِيك

قد سبق هول بخطوتين، ورآه هذا وقد فرَّت الدماء تمامًا من وجهه لتتركه كورقةٍ بيضاء، وبدأ اللعاب يسيل من فمه.

- «يا أرحم الراحمين! بحق ابن العذراء!»

استدار وورويك ليجري، لكن هول فتح فوهة الخرطوم لتندفع منه المياه ضاربةً رئيس العُمال في صدره وتُلقيه بعيدًا حيث غاب عن ناظريه، ولم تمض لحظة حتى تعالت صرخته الطويلة لتطغى على صوت المياه.

هووووول!

صوت نخير، ثم صوت صرير أفعم الهواء...

هول، بالله عليك!

صوت تمزيقٍ مفاجئ، ثم صرخة أخرى أضعف من الأولى...

شيءٌ ما ضخم تحرَّك أمام عينيه، ثم سمع هول صوت العظام وهي تتهشَّم.

ثم انقضَّ عليه جرذ ضخم تُوجِّهه صورة لعينة من السونار وقد كشَّر عن أنيابه، لكن هول صوَّب عليه الخرطوم بحركةٍ غريزيَّة ليدفعه بعيدًا، وأدرك أن ضغط المياه لم يعد بسابق قوته.

تحرَّك هول نحو الحافَّة ونظر إلى أسفل، فرأى الشيء وقد ملأ بجسده كامل الأخدود في أقصى تلك المقبرة المجنونة. كان أضخم من أيِّ شيءٍ رآه على الإطلاق، بلا عينين، بلا سيقان. وعندما سلَّط

هول عليه الضوء أطلق صوتًا كريهًا أشبه بالمواء. إنها أمهم إذن، الملكة، شيء عملاق بلا اسم قد تنمو لذريّته أجنحة ذات يوم. كان الجرذ أكبر حجمًا من بقايا ووررويك، لكن خطر لهول أن هذا مجرَّد وهم بسبب الإضاءة الضعيفة، أو الصدمة.

- «وداعًا ووررويك.»

كان الجرذ جاثمًا على جثة ووررويك يقضم أحد ذراعيه، واستدار هول وبدأ يعود أدراجه في سرعة مُطلقًا مياه الخرطوم على الجرذان ليجدها تضعف أكثر فأكثر. استطاع بعضها التملُّص من المياه المندفعة وانقضَّ على ساقيه فوق البوت الطويل، وتعلّق أحدها في عنادٍ بفخذه ممزِّقًا قماش سرواله الفضفاض، فلكمه هول بقبضته ليطوِّح به بعيدًا.

كان قد قطع ثلاثة أرباع طريق العودة عندما امتلأ المكان بأصوات الطنين، فرفع عينيه إلى أعلى ليرتطم الشيء الأسود الطائر بوجهه.

لم تكن الوطاويط المتحوِّرة قد فقدت أذيالها بعد، وقد طوَّق هذا عنق هول بذيله، بينما أخذت الأسنان تبحث في جشعٍ عن البُقعة الليِّنة في عنقه. تلوَّى الوطواط وخفق بجناحيه الغشائيَّيْن قابضًا على أسمال قميص هول.

رفع هول فوهة الخرطوم وضرب بها مرَّة بعد مرَّةٍ دون أن يرى، وأخيرًا سقط الوطواط، ليدهسه هول بقدميه وقد بدأ يعي أنه يصرخ.

تدفّقت الجرذان كالفيضان بين قدميه وعلى ساقيه، فبدأ يعدو مترنّحًا محاولًا التخلُّص منها، لكنها كانت بالآلاف فعلًا، وأخذ كثير منها يقضم في لحم بطنه وصدره،ووثب أحدها على كتفه وبدأ يقرض شحمة أذنه.

ثم جاء الوطواط الثاني ليجثم على رأسه وينتزع قطعةً من لحم فروة رأسه.

شعر بالخدر يزحف إلى جسده سريعًا، وأفعمت أذنيه صرخات الجرذان الرهيبة، فأطلق صرخة أخيرة وسقط متعثّرًا بينها.

وبدأ يضحك... يضحك كأنه يعوي.

***

الخميس، الخامسة صباحًا...

قال بروكو في تردُّد:

– «يجب أن يترل بعضنا إليهما.»

هامسًا قال وسكونسكي:

– «ليس أنا، ليس أنا.»

قال إيستن في ازدراء:

– «ليس أنت بالطبع أيها البدين.»

رفع بروجان خرطومًا آخر وقال:

– «ليكن، هيا بنا. سأذهب مع إيستن ودانجرفيلد ونيدو، أما ستيفنسون فليصعد إلى المكتب ويجلب بعض الكشّافات.»

رمق إيستن السواد بالأسفل وقال مفكّرًا:

– «لعلهما توقّفا للتدخين. إنها بضعة جرذان لا أكثر، فما أسوأ ما يمكن أن يحدث؟»

مضت دقائق، ثم عاد ستيفنسون حاملًا الكشّافات، وواحدًا تلو الآخر بدأوا النزول.

***



الرجل الذي أحبَّ الزهور



قَطَعَ الشاب شوارع نيويورك بنشاط وانتعاش في مساء ذلك اليوم الصحو من مايو 1963. كان الهواء جميلًا منعشًا، وكانت الظلمة تسري في السماء ببطء بدرجات من اللون الأزرق إلى لون الغسق البنفسجي الهادئ المحبَّب. هناك أناس يحبون المدينة، وكانت هذه من الليالي التي جعلتهم يحبونها. بدا جميع من يقفون على أبواب متاجر البقالة والمغاسل والمطاعم مبتسمين. تلك السيدة العجوز التي تدفع أمامها كيسين من المشتريات في عربة أطفال قديمة ابتسمت للشاب وحيته قائلة:

- «مرحبًا أيها الوسيم!»

بادلها الشاب الابتسام بنصف ابتسامة ولوح بيده محييًا.

وواصلت العجوز طريقها قائلة لنفسها:

- «إنه عاشق.»

شيءٌ ما كان يميِّزه رغم مظهره العادي. كان يرتدي بذلة ذات لونٍ رمادي فاتح، بينما لم يعقد رباط عنقه إلى النهاية فبَرَزَ من تحته زر

ياقة القميص مفتوحًا. كان داكن الشعر قصيره، وكانت بشرته بيضاء ناعمة وعيناه زرقاوين. لم تكن ملامحه تتّسم بشيءٍ فائقٍ للعادة، لكنه -في تلك الليلة الربيعيَّة، وفي هذه الجادة النيويوركية، وفي ذلك اليوم من مايو من عام 1963- بدا وسيمًا، حتى أن السيدة العجوز وجدت نفسها -في لحظةٍ من التوق إلى الماضي مرَّت بها- تُفكِّر في أن أيَّ شخصٍ قد يبدو جميلًا في الربيع طالما هو في الطريق للقاء الحبيب على العشاء، ولربما الرقص بعد هذا.

يبدو الربيع وكأنه الفصل الوحيد الذي يحمل فيه الحنين إلى الماضي مذاقًا مُرًّا، ولقد مضت العجوز في طريقها وهي سعيدة لأنها تحدَّثت إليه، ولأنه ردَّ مجاملتها بأن رفع يده بنصف تحية.

قطع الشاب الشارع 63 بخطواتٍ متقافزة بنفس الابتسامة النصفيَّة على وجهه، وعند نهاية الشارع وقف رجل عجوز إلى جوار عربة يد خضراء قديمة ملأى بالزهور التي سيطر على معظمها اللون الأصفر، كأنها حمى صفراء جميلة عمادها النرجس والزعفران. كانت لدى الرجل أيضًا زهور القرنفل وزهور الشاي ذات اللونين الأصفر والأبيض، وكان يأكل البسكويت المملَّح ويستمع إلى الراديو الترانزستور الضخم المثبَّت في ركن العربة.

لم يُصغِ أحد إلى الأخبار السيئة القادمة من الراديو: سفاح المطرقة لم يزل طليقًا، چون كينيدي يُعلن أن الموقف في دولة آسيوية صغيرة

اسمها ڤيتنام يستوجب التحرُّك، استخراج الشُّرطة لجثة امرأة مجهولة الهوية من النهر الشرقي، هيئة محلفين كبرى تفشل في إدانة أحد زعماء العصابات الكبار في أحد فصول حملة إدارة المدينة على تجارة الهروين، الروس فجَّروا سلاحًا نوويًّا.

لم يبد أيٌّ من هذا حقيقيًّا.. لم يبد أيٌّ منه مهمًّا، لأن الهواء كان رقيقًا جميلًا.

وقف رجلان ببطنين منتفختين أمام مخبز يقذفان قطع العملة ويتمازحان. كان الربيع يرتجف عند حافة الصيف، وفي نيويورك الصيف فصل الأحلام.

مرَّ الشاب بعربة الزهور، وشيئًا فشيئًا ابتعد صوت الأخبار السيئة. تردَّد الشاب للحظات ونظر من خلف كتفه وأطرق يفكِّر. مد يده في جيب معطفه ولمس الشيء الذي بداخله مرَّة أخرى، وللحظةٍ بدت ملامحه مرتبكة مشوشة، ثم إنها عادت لمرحها السابق إذ غادرت يده جيب المعطف.

عاد إلى عربة الزهور مبتسمًا. سوف يشتري لها بعض الزهور. سيسعدها هذا. كان يحب أن يرى عينيها تتألقان بالدهشة والحبور عندما يأتي لها بهدية- أشياء صغيرة في المعتاد، لأنه كان أبعد ما يكون عن الثراء: علبة من الحلوى، سوار، أو بعض البرتقال الإسباني كما فعل ذات مرَّة، فهو يعرف أنه برتقال نورما المفضَّل.

عاد الشاب إلى عربة الزهور مبتسمًا وعيناه تجريان على ما تحمله العربة منها. كان البائع العجوز في العقد السابع من عمره تقريبًا، يرتدي معطفًا رماديًّا باليًا ويعتمر قبعة رغم دفء الجو. كان وجهه خريطة من التجاعيد، عيناه غائرتان، بينما تصاعد دخان السيجارة التي بين أنامله. هو أيضًا تذكَّر كيف يكون المرء شابًّا في الربيع؛ شابًّا وغارقًا في الحب حتى النخاع. وجه بائع الزهور العجوز كان عابسًا في المعتاد، لكنه الآن ابتسم قليلًا، تمامًا كما ابتسمت السيدة التي تدفع عربة البقالة. نفض العجوز فتات البسكويت من على معطفه وقال لنفسه:

– «إنه عاشق»

سأله الشاب:

– «بكم زهورك؟»

– «سأعطيك باقة جميلة بدولارٍ واحد. زهور الشاي هذه نابتة في دفيئة، لذا تتكلَّف أكثر. سبعون سنتًا للواحدة. سأبيع لك نصف دستة منها بثلاثة دولاراتٍ ونصف.»

– «أسعارك غالية.»

– «الأشياء التي تستحق لا تأتي بثمن زهيد. ألم تعلّمك أمك هذا يا صديقي الصغير؟»

ابتسم الشاب قائلًا:

– «لعلها ذكرته لي ذات مرَّة.»

– «بالطبع ذكرته! سأعطيك نصف دستة، زهرتان حمراوان وزهرتان صفراوان وزهرتان بيضاوان. لا يمكنني أن أفعل ما هو أكثر. وسأزيِّن لك الصحبة بالسرخس. هذا يروق لهن.»

محتفظًا بابتسامته سأله الشاب:

– «لهن؟»

قال بائع الزهور وهو يلقي بعقب السيجارة في البالوعة القريبة: «يا صديقي الصغير، لا أحد يشتري الزهور لنفسه في مايو. هذا يكاد يكون قانونًا.»

فكَّر الشاب في نورما، في عينيها السعيدتين المندهشتين وابتسامتها الرقيقة. أومأ برأسه إيجابًا وهو يقول:

– «أظن هذا.»

– «سأخبرك برأيي، فالنصائح ما زالت مجانية، أليس كذلك؟»

– «أظنها الشيء الوحيد الذي تبقى مجانيًّا هذه الأيام.»

ردَّ بائع الزهور:

– «لك أن تراهن على هذا. حسن يا صديقي الصغير، لو كانت هذه الزهور لأمك، فاشتري لها الباقة: بعض من النرجس وبعض من

الزعفران وبعض زنابق الوادي. عندها ستقول:آه يا عزيزي! إنها جميلة. كم كلّفتك؟ ألم أعلّمك ألا تُبدِّد نقودك؟»

ضحك الشاب بينما تابع البائع العجوز:

– «لكنها لو كانت لفتاتك، فهذا موضوع آخر يا بني. إن جلبت لها زهور الشاي فلن تتحوَّل إلى محاسِبة! هل تفهمني؟ سوف تلف ذراعيها حول عنقك و...»

قاطعه الشاب قائلًا:

– «سآخذ زهور الشاي.»

قهقه بائع الزهور بدوره، والتفت إليهما الرجلان اللاعبان بقطع العملة مبتسمين، ونادى أحدهما على الشاب صائحًا:

– «يا فتى، هل تريد شراء خاتم زفاف بثمنٍ رخيص؟ سأبيع لك خاتمي. لم أعد أحتاجه.»

ابتسم الشاب وسرت حُمرة الخجل في وجهه. اختار البائع ست زهورٍ وقص سوقها قليلًا ثم رشَّها بالماء ولفَّها وناولها للشاب، بينما جاء الصوت من الراديو يقول:

– «يبدو الطقس الليلة كما تريدونه تمامًا. استمتعي به يا نيويورك العظيمة، استمتعي!»

أعطى الشاب للبائع حساب الزهور وتناول منه الباقي، ثم واصل طريقه إلى نهاية الشارع بعينين متسعتين باللهفة والاشتياق، غير عابئ

بما يدور حوله في ثيرد آڤنيو. سار دون أن يعي أن المرأتين الواقفتين عند باب تلك المغسلة نظرتا إليه بحسرة وهو يحمل باقة الزهور، فقد ولّت الأيام التي كانتا تتلقيان فيها الزهور منذ زمن. سار دون أن يعي أن شرطي المرور الشاب قد أوقف عبور السيَّارات في الشارع 66 بصفّارة منه ليسمح له بالمرور، فقد كان الشرطي نفسه خاطبًا ولاحظ الانطباع الحالم على وجه الشاب.سار دون أن يعي أن هاتين المراهقتين لوحتا له ضاحكتين.

توقّف عند بداية الشارع 73 ثم انعطف يمينًا. كانت الإضاءة في الشارع الصغير الذي ترى فيه أسماء المطاعم الإيطالية خفيضة، وعلى بعد ثلاث بنايات كانت مباراة كرة قدم حماسية تدور تحت الضوء الخابي. لم يبتعد الشاب كثيرًا، بل انعطف مرَّة أخرى داخل زقاقٍ ضيِّق.

كانت النجوم تتألق في السماء الآن، وكان الزقاق مظلمًا وتحفه الظلال التي تلقيها صناديق القمامة. سار الشاب ببطء وألقى نظرة على ساعة يده. كانت الثامنة والربع، ولا بد أن نورما...

ثم إنه رآها قادمة إليه من ناحية الفناء، ترتدي سروالًا أزرق غامقًا وقميصًا كقمصان البحارة جعل قلبه يثب في صدره.

كانت رؤيتها للمرة الأولى مفاجئة له دائمًا، كأنها صدمة جميلة.

بدت ابتسامته كأنها تشع إذ سار صوبها قائلًا:

– «نورما.»

نظرت إليه مبتسمة... لكن ابتسامتها تلاشت إذ اقترب منها.

اهتزَّت ابتسامته بدورها قليلًا، وللحظة شعر بالقلق. بدا وجهها الجميل مرتبكًا بينما هبط الظلام أكثر فأكثر.

هل يمكن أنه أخطأ تعرُّفها؟ كلا... إنها نورما.

ناولها باقة الزهور قائلًا في سعادة:

– «اشتريت لك زهورًا.»

نظرت الفتاة إلى الزهور وابتسمت ثم أعادتها إليه قائلة:

– «شكرًا، لكنك مخطئ. إن اسمي...»

– «... نورما...» همس بها وهو يُخرج المطرقة ذات اليد القصيرة من جيب معطفه.

– «إنها من أجلك يا نورما... كلها دومًا من أجلك.»

تراجعت الفتاة إلى الخلف والفزع يكسو وجهها بينما استدارت شفتاها على شكل رقم 0 من الرُّعب.

هي لم تكن نورما...

نورما ميتة منذ عشر سنوات...

ولم يهم هذا لأنها كانت على وشك الصراخ، ولقد انقضَّ عليها هو بالمطرقة ليوقف الصرخة... ليقتل الصرخة...

انقضَّ عليها بالمطرقة وسقطت الباقة من يده لتترف الزهور الحمراء والصفراء والبيضاء إلى جوار صناديق القمامة...

انقضَّ عليها بالمطرقة، لكنها لم تصرخ لأنها لم تكن نورما كما لم تكن واحدة منهن نورما...

هي لم تكن نورما، ولذلك هوى عليها بالمطرقة كما فعل مع الأخريات الخمس من قبل...

عندما غادر الزقاق المظلم بعدها مبتعدًا كان الظلام قد حلَّ بالكامل. كانت مباراة الكرة قد انتهت وعاد الأطفال إلى منازلهم. لو كانت هناك بقع من الدم على سترته فلن يراها أحد. ليس في هذا الظلام، ليس في تلك الليلة الربيعية، ولم يكن اسمها نورما لكنه يعرف أن اسمه هو الحب.

كان اسمه الحب، ولقد سار في هذه الشوارع المظلمة لأن نورما كانت تنتظره، ولسوف يعثر عليها.

عادت الابتسامة إلى وجهه مرَّة أخرى، وعاد النشاط إلى خطواته المتقافزة إذ عاد إلى الشارع 73. رآه زوجان جالسان على عتبة دارهما وهو يمر، فثبَّتت الزوجة عينيها على الشاب ذي الحلة الرمادية الذي اختفى في ظلمات الليل، وخطر لها في حسرة أن زوجها لم يعد يبدو هكذا، وخطر لها أيضًا أنه إن كان يوجد ما هو أجمل من الربيع، فهو الحب الشاب.

الجانِب الآخَر من الضَّباب



عندما خطا بيت چيكوبز إلى الخارج، وجد أن الضباب قد ابتلع منزله بالكامل، ولم يعد يرى شيئًا إلا الستار الأبيض حوله من كلّ اتجاه، وولّد فيه هذا شعورًا غريبًا كأنه آخر بشري حي على وجه الأرض.

شعر بيت فجأة بالدوار وبمعدته تنقلب، كأنه يقف في مصعد يسقط بسرعة كبيرة، لكن سرعان ما راح هذا الشعور، وواصل بيت السير. بدأ الضباب ينجلي، وعندها اتسعت عينا بيت في دهشة وخوف بالغين.

لقد وجد نفسه في قلب مدينة ما، لكن المشكلة أن أقرب مدينة كانت تبعد أربعين ميلًا عن منزله!

ويا لها من مدينة لم يرَ بيت مثيلًا لها من قبل أبدًا!

حوله كانت مبان أنيقة التصميم شاهقة ذات قمم بدت كأنها تبلغ عنان السماء،بينما تحرَّك الناس على سيور ناقلة، وعلى حَجَر الأساس الخاص بواحدة من ناطحات السحاب قرأ بيت تاريخ (17 أبريل 2007). لقد انتقل–بطريقة ما– إلى المستقبل، لكن كيفَ؟

شعر بيت فجأةً برعبٍ عارم لم يختبر مثله في حياته.

إنه لا ينتمي إلى هذا الزمن ولا يمكنه البقاء فيه. هكذا هُرع عائدًا إلى الضباب الذي بدأ ينسحب تمامًا. لم يتوقّف بيت عندما نادى عليه شرطي يرتدي زيًّا رسميًّا غريب الشكل في غضب، ولم يتوقّف عندما كادت تلك السيَّارات العجيبة التي تمضي على ارتفاع ستٍّ بوصات في الهواء أن تصدمه. لم يتوقّف حتى بلغ الضباب من جديد، وسرعان ما تلاشى كلُّ شيءٍ من حوله باستثناء ستار الضباب الأبيض.

ثم عاد الشعور إياه مرَّة أخرى، الشعور بالسقوط.. ثم انجلى الضباب مجدَّدًا.

وبدا أنه عاد إلى منزله...

عندها دوَّت تلك الصرخة التي كادت تصم أذنيه، فالتفت ليرى ديناصورًا من حُقبةٍ ما قبل التاريخ يندفع نحوه وقد لاحت الرغبة في القتل في عينيه الخرزيتين الصغيرتين.

هكذا، مذعورًا، هُرع بيت إلى قلب الضباب من جديد...

في المرَّة القادمة عندما يحتشد الضباب حولك وتسمع خطوات أقدامٍ عَجولًا تعدو هنا وهناك في قلب البياض السرمدي، أرجو منك أن تُنادي على صاحبها. إنه بيت چيكوبز الذي ما زال يحاول العثور على جانبه من الضباب.

فلتساعد الرجل المسكين من فضلك.

قُبلة المساء



كانت عقارب الساعة تشير إلى العاشرة والربع، وكان هرب توكلاندر يُفكِّر في الاكتفاء بهذا القدر الليلة وإغلاق الحانة، عندما اندفع الرجل ذو المعطف الأنيق والوجه الشاحب المرتبك داخل حانة توكي التي تقع في الجزء الشمالي من فالمورث. كانت ليلة العاشر من يناير، ذلك الوقت الذي يتعلَّم فيه معظم الناس التعايُش برضا مع تعهُّدات العام الجديد التي نكصوا بها بالفعل، والوقت الذي تهب فيه الرياح الشمال شرقية بمنتهى العنف في الخارج.

كان الثلج يتساقط ويتراكم منذ حلول الظلام وبلا توقُّف.

رأينا بيلي لاربي يستقل جرَّافة الثلج مرَّتين، وفي المرة الثانية ناوله توكي زجاجة من البيرة. كانت أمي لتصف هذا بأنه عمل خيري خالص، ويعلم الله أن أمي شربت الكثير من بيرة توكي عندما كانت حية! قال له بيلي إن الطريق الرئيس مفتوح، لكن الطُّرُق الجانبيَّة مغلقة ومُرشَّحة لأن تبقى هكذا حتى الصباح التالي، بينما جاء صوت

الراديو من پورتلاند يتنبَّأ بتساقُط المزيد من الثلوج وبرياحٍ سرعتها أربعون ميلًا في الساعة ستتسبَّب في تكديس أكوام الثلج في كلِّ مكان.

لم يكن في الحانة سوى توكي وأنا، نُصغي إلى عواء الرياح ونُشاهد النيران تتراقص في المدفأة.

يقول توكي:

- «تناول كأسًا من أجل الطريق يا بوث. سأغلق الحانة الآن.»

وصبَّ لي كأسًا ولنفسه أخرى، وكان هذا عندما انفتح الباب في عنف ودخل الغريب مترنِّحًا والثلج يُغطِّي كتفيه وشعره كأنه غمس رأسه في وعاءٍ من السكَّر الأبيض، بينما أطارت الرياح نُدف الثلج الرفيعة كالرمال خلفه إلى الداخل.

صرخ توكي فيه:

- «أغلِق الباب يا هذا! هل وُلدتَ في حظيرة؟!»

في حياتي لم أرَ رجلًا يبدو خائفًا هكذا قط. كان يبدو كحصانٍ قضى يومه في التهام الثمار الشائكة.

رفع الرجل عينيه إلى توكي وقال في ضعف:

- «زوجتي... ابنتي...»

ثم سقط على الأرض فاقدًا الوعي.

صاح توكي:

– «تبًّا! هلا أغلقت الباب يا بوث؟»

جريت إلى الباب وأغلقته، وكان دفعه ضد اتجاه الريح شاقًّا للغاية. كان توكي جاثيًا على ركبةٍ واحدة يرفع رأس الرجل ويُربِّت على وجنتيه. عدتُ إليهما ورأيتُ أن الحالة كانت سيئة. كان وجه الرجل شديد الاحمرار، وإن كانت هناك بُقع رمادية هنا وهناك؛ وعندما تعيش مثلي في شتاء ولاية ماين منذ كان وودرو ويلسون رئيسًا، ستدرك أن تلك البُقع الرمادية لا تعني إلا قضمة الصقيع.

قال توكي:

– «إنه مصاب بإغماءة. هلا جلبت البراندي من المخزن؟»

جئت بالشراب وعُدت لأجد أن توكي فتح معطف الرجل الذي كان قد أفاق قليلًا. عيناه كانتا نصف مفتوحتين، وكان يُتمتم بشيءٍ ما بصوتٍ خفيضٍ للغاية حتى أننا لم نتبيَّن كلمة واحدة منه.

قال توكي:

– «صُب بعضه في الغطاء.»

سألته:

– «مِلء الغطاء فقط؟»

– «أجل. لا داعي لصب الكثير منه في معدته الآن.»

صببت الشراب في غطاء الزجاجة ونظرت إلى توكي. هزَّ رأسه موافقًا، فصببت الشراب في حلق الرجل.

ما حدث كان جديرًا بالملاحظة: ارتعد جسد الرجل كله وبدأ يسعل، وسرت الحمرة أكثر في وجهه، وانفتح جفناه اللذان كانا منكّسين على عينيه كالسارية. كنت مترعجًا قليلًا، لكن توكي أجلسه كطفلٍ كبير وطرق على ظهره. حاول الرجل أن يقيء، وطرق توكي على ظهره مرة أخرى.

قال توكي:

– «لا تحاول تقيؤ البراندي، سوف يفيدك.»

سعل الرجل من جديد، لكن السعلة كانت أضعف هذه المرة. ألقيت بنظرتي الأولى المتمعِّنة عليه. كان من سكّان المدينة بالتأكيد، وخمّنت أنه من مكان ما في جنوب بوسطن. كان يرتدي قفّازًا غالي الثمن. خمّنت أن هناك المزيد من تلك البقع البيضاء الرمادية على يديه، وخطر لي أنه سيكون من المحظوظين إذا لم يفقد إصبعًا أو اثنين. كان معطفه فاخرًا لا يقل ثمنه عن ثلاثمائة دولار، وهو المبلغ الذي لم أره في حياتي قط. كان يرتدي حذاءً قصيرًا، وبدأت أتساءل عن حالة أصابع قدميه.

نطق الرجل أخيرًا قائلًا:

– «أشعر بتحسُّن.»

قال توكي:

– «عظيم. هل تستطيع المجيء عند المدفأة؟»

قال الرجل:

– «زوجتي وابنتي... إنهما هناك... في العاصفة.»

عقَّب توكي:

– «من طريقة دخولك لم يخطر لي أنهما جالستان في المنزل تشاهدان التليفزيون! يمكنك أن تُخبرنا بما حدث عند المدفأة أيضًا. ارفعه معي يا بوث.»

نهض الرجل على قدميه، لكن أنَّة صغيرة صدرت منه والتوى فمه في ألم. تساءلت عن حالة أصابع قدميه مرة أخرى، وتساءلت عن السبب الذي يجعل هؤلاء الحمقى القادمين من نيويورك يُجرِّبون الخروج في جنوب ماين في قلب العواصف الثلجية، وتساءلت إن كانت زوجته وابنته ترتديان ملابس أثقل من ملابسه.

حرَّكناه عبر المكان إلى حيث المدفأة، وأجلسناه على كرسي هزَّاز كان كرسي مسز توكي المفضَّل حتى وفاتها عام 1974. كانت مسز توكي المسؤولة عن معظم المكان الذي كُتب عنه في عددٍ من

الصحف والمجلات. إنه مكان عام أكثر منه حانة؛ بأرضيته الخشبيَّة المثبَّتة بلا مسامير والبار الصغير والسقف الذي يشبه أسقف الحظائر والمدفأة الضخمة. خطرت لمسز توكي بعض الأفكار بعد نشر المقال الأول عن المكان، وأرادت أن تُسمِّيه (حانة توكي) أو (استراحة توكي). أقر بأن الاسم الثاني بدا لي كأنه يحمل رنينًا استعماريًّا ما، وفضَّلت الاسم الأول البسيط. يمتلئ المكان بالزبائن في الصيف حين تعج الولاية بالسائحين، على العكس من الشتاء، حيث لا يجلس فيه إلا الجيران والأصدقاء لاحتساء الشراب والثرثرة. ولقد مرت ليالي شتاء عدة—كهذه الليلة— قضيتها مع توكي وحدنا.

رحلت زوجتي ڤيكتوريا في عام 1973، وأمست حانة توكي المكان الوحيد الذي يمكن الذهاب إليه حيث توجد أصوات كافية تُغطِّي على صوت عقارب ساعة الموت التي تدق بلا انقطاع، حتى لو لم يكن هناك سوى توكي وأنا. ربما لم أكن لأشعر بنفس الطمأنينة في المكان لو كان اسمه (استراحة توكي). أعرف أن هذه فكرة حمقاء، لكنها حقيقيَّة.

وضعنا الرجل أمام المدفأة وجسده ينتفض أكثر من ذي قبل. تشبَّث بركبتيه بينما اصطكَّت أسنانه في قوة، وسقطت بضع قطرات من المخاط السائل من أنفه. أعتقد أنه بدأ يدرك أن خمس عشرة دقيقة أخرى بالخارج كانت كفيلة بقتله. ليس الثلج هو السبب، بل الرياح قارصة البرودة. إنها تسلبك حرارة جسدك حرفيًّا.

سأله توكي:

– «أين انحرفتم عن الطريق؟»

– «على بعد... ستة أميال... من هنا.»

نظرت إلى توكي ونظر إليّ، وعلى حين غرة شعرت بالبرد يعتري كياني كله.

سأله توكي:

– «هل أنت واثق؟ هل مشيت ستة أميال في العاصفة الجليدية؟»

أومأ برأسه إيجابًا وقال:

– «تفقّدت عدّاد المسافات عندما دخلنا البلدة. كنت أتبع الاتجاهات ونحن في الطريق إلى منزل أخت زوجتي في كامبرلاند. لم نذهب إلى هناك من قبل، فنحن من نيو جيرسي.»

نيو جيرسي... لو كان هناك من هُم أكثر حماقة من أهل نيويورك، فهُم أهل نيو جيرسي!

سأله توكي مرة أخرى في إلحاح:

– «ستة أميال؟ هل أنت واثق؟»

– «أجل، واثق تمامًا. لقد رأيت لافتة الانعطاف، لكنها كانت غائرة في...»

أمسك توكي بذراعه، وعلى ضوء النار المتراقصة بدا وجهه شاحبًا يكسوه التوتر، وبدت ملامحه أكبر من سني عمره الست والستين إذ قال للرجل في حزم:

– «هل انعطفت إلى اليمين؟».

– «أجل، إلى اليمين. زوجتي...»

– «هل رأيت لافتة؟»

نظر إلى توكي في دهشة وهو يقول:

– «لافتة؟»

ثم مسح طرف أنفه بيده وقال:

– «بالطبع رأيت لافتة. كانت موجودة في دليل الإرشادات الذي معي: اسلك جوينتنر آفنيو عبر بلدة أورشليم إلى منحدَر الدخول رقم 295.»

وأدار ناظريه من وجه توكي إلى وجهي ثم إلى وجه توكي مرَّة أخرى وهو يسأل:

– «هل أخطأت أم ماذا؟»

تمتم توكي في صوتٍ خفيضٍ للغاية:

– «البلدة... رباه!»

قال الرجل بصوتٍ مرتفع:

– «ماذا هناك؟ هل كان من المفترَض ألا أفعل ذلك؟ لقد كان الطريق مغمورًا، لكني اعتقدت أنه لو كانت ثمة بلدة هناك، لكنت رأيت جرَّافات الثلج، ثم...»

ثم توقَّف وبدا مرتبكًا.

قال توكي لي في خفوت:

– «بوث، اتصل بالمأمور.»

قال الأحمق القادم من نيو جيرسي:

– «هذا ما يجب فعله. ماذا بكما؟ تبدوان وكأنكما رأيتما شبحًا.»

التفت إليه توكي وقال:

– «ثق بي يا سيدي، لا توجد أشباح في البلدة! هل طلبت منهما أن تبقيا في السيَّارة؟»

– «بالطبع. أنا لست مجنونًا.»

فعلًا. كل شيء يوحي بهذا فعلًا!

سألته:

– «ما اسمك؟»

- «لاملي... چيرارد لاملي.»

عاد يتحدث إلى توكي، بينما ذهبت أنا إلى الهاتف ورفعت السمَّاعة فلم أسمع شيئًا سوى الصمت التام. حاولت ضرب زري إيقاف المكالمات عدة مرات، ولم تأت الحرارة.

عدت إليهما، وكان توكي قد صبَّ لچيرارد لاملي هذا جرعة أخرى من البراندي، وانزلقت هذه داخل معدته بسهولة عن الجرعة السابقة.

سألني توكي:

- «هل وجدته؟»

- «الهاتف ميت.»

- «تبًّا!»

نظرنا إلى بعضنا البعض مرَّة أخرى، والرياح تعصف بالخارج وتقذف بقطع الثلج على النوافذ. نظر لاملي إلى توكي ثم إليَّ مرَّة أخرى، وسألنا وقد زحف التوتُّر إلى صوته من جديد:

- «ألا يملك أيكما سيَّارة؟ لقد تركت لهما المحرِّك دائرًا لتبقى المدفأة تعمل، ولا يوجد في خزان الوقود سوى ربعه الآن، ولقد استغرقت ساعة ونصفًا حتى... »

بتر عبارته ونهض ممسكًا بكُم توكي صائحًا:

- «هلا أجبتني؟»

أزاح توكي يده في هدوء قائلًا:

- «لا تتهوَّر يا هذا.»

نظر لاملي إلى يده ثم إلى توكي وقال ضاغطًا على أسنانه:

- «ماين.»

قالها كأنه يقول كلمة بذيئة عن أُم أحدهم.

- «ليكن. أين أقرب محطة وقود؟ لابد من وجود شاحنة جر لـــ...»

قاطعته قائلًا:

- «أقرب محطة وقود تقع في فالمورث سنتر على بعد ثلاثة أميال من هنا.»

قال في شيء من السخرية:

- «شكرًا.»

ثم اتجه إلى الباب وهو يغلق أزرار معطفه، لكني أضفت:

- «لكنك ستجدها مغلقة.»

استدار في بطء ونظر إلينا قائلًا:

- «عمَّ تتحدث أيها العجوز؟»

قال توكي في صبر:

- «إنه يحاول أن يخبرك بأن محطة الوقود ملك لبيلي لاريبي، وبيلي الآن بالخارج يقود جرَّافة الثلج أيها الأحمق! والآن لِمَ لا تعود إلى هنا وتجلس قبل أن ينفجر لك عِرق؟»

عاد وهو يبدو مشوشًا خائفًا، وقال:

- «هل تحاولان إخباري بأنكما لا... بأنه لا توجد طريقة لــ...»

قاطعه توكي في حدة:

- «لست أحاول إخبارك بأيِّ شيء. أنت الذي يثرثر بلا توقف، ولو خرست لدقيقة فسوف نفكر في طريقة.»

سألنا:

- «ما هي تلك البلدة، بلدة أورشليم؟ لماذا كان الطريق مغمورًا ولا توجد أنوار مضاءة؟»

قلت:

- «بلدة أورشليم احترقت منذ عامين.»

بدا كأنه لم يُصدِّق ما قلته وهو يسأل:

- «ولم يعيدوا بناءها قَط؟»

– «يبدو هذا.»

ثم نظرت إلى توكي وقلت:

– «ماذا سنفعل؟»

– «لا يمكن أن نتركهما هناك.»

اقتربت منه أكثر، بينما اقترب لاملي من النافذة ليتطلّع إلى الليل الثلجي.

– «ماذا لو نالوا منهما؟»

– «هذا محتمَل، لكننا لا ندري هذا على نحو مؤكّد. كتابي المقدس موجود على الرف. هل لا تزال ترتدي قلادة أبيك؟»

سحبت الصليب المعلّق في سلسلة من تحت قميصي وأريته إياه. معظم من يقطنون حول أورشليم كانوا يُعلّقون حول أعناقهم أشياء –صليبًا، قلادة القديس كريستوفر، مسبحة، أو ما شابه– لأنه منذ عامين، وفي منتصف أكتوبر كئيب، أصيبت البلدة بالمرض. أحيانًا في ساعة متأخّرة من الليل، بينما يجتمع بعض الزبائن المعتادين في حانة توكي، كان الناس يتحدّثون... يتحدّثون عن الذين بدأوا يختفون في أورشليم. في البداية اختفى عدد قليل، ثم عدد أكبر، ثم جماعات كاملة. أغلقت المدارس أبوابها، وظلّت البلدة خالية لأكثر من عام. جاء بعض الوافدين الجدد، معظمهم بلهاء من خارج الولاية كهذا الرجل الذي معنا. أعتقد أن الأسعار الرخيصة شكّلت عامل جذب

لهم، لكنهم لم يبقوا. معظمهم غادر البلدة بعد شهر أو اثنين من انتقالهم إليها، أما الآخرين... فقد اختفوا.

ثم احترقت البلدة عن آخرها.

كان هذا في نهاية خريف طويل جاف. خمّن الناس أن الحريق الذي اندلع قد بدأ من منزل مارستن الواقع على التل الذي يطل على جوينتنر آڤنيو، لكن لا أحد يعرف كيف بدأ حتى اليوم. لقد شبَّ الحريق لثلاثة أيام متواصلة دون أن ينجح أحد في السيطرة عليه. بعد هذا استقرت الأمور لفترة من الوقت... ثم عادت لتسوء مرة أخرى.

سمعت كلمة (مصّاصي الدماء) تُذكر مرّة واحدة. سائق شاحنة مجنون اسمه ريتشي ميسينا من فريبوت كان في حانة توكي تلك الليلة، وكان ثملًا تمامًا.

يزأر ذلك الثور ليلتها:

- «بحق يسوع المسيح! هل تخافون جميعًا من نطق الكلمة؟ إنهم مصّاصو دماء! هذا ما تفكّرون فيه جميعًا، أليس كذلك؟ ترتجفون أنتم خائفين كما يخاف الأطفال أفلام الرُّعب! هل تعرفون ما يوجد هناك في بلدة أورشليم؟ هل تريدونني أن أخبركم؟ هل تريدونني أن أخبركم؟!»

كان الصمت يسود الحانة تمامًا، ويمكنك أن تسمع قعقعة النيران في المدفأة وصوت قطرات مطر نوفمبر الخفيف تضرب النوافذ في الظلام. قال توكي:

- «أخبرنا أنت يا ريتشي. أنت الذي يتكلّم.»

يقول لنا ريتشي ميسينا:

- «ما يوجد هناك ليس إلا مجموعة من الكلاب المسعورة. هذا وبعض قصص العجائز المخيفة. أراهنكم بثمانين دولارًا على أنني أستطيع الذهاب إلى هناك وقضاء الليلة في ما تبقّى من أحد تلك المنازل المسكونة التي تتحدَّثون عنها. ما رأيكم؟ هل يريد أحدكم أن يراهن؟»

لم يراهن أحد. كان ريتشي كثير الكلام، وكان مجرَّد أحمق ثمل، ولم يكن أحدنا ليذرف دمعة واحدة عليه، لكن لا أحد منا كان مستعدًّا لرؤيته يذهب إلى أورشليم بعد حلول الظلام.

يقول ريتشي:

- «فلتحل بكم اللعنة جميعًا. إن معي بندقيتي في الشاحنة، وبها يمكنني أن أوقف أي شيء في فالمورث أو كامبرلاند أو أورشليم، وسوف أذهب إلى هناك.»

اندفع خارجًا من الحانة، ولم ينبس أحدنا بكلمة لفترة. ثم قال لامونت هنري في تؤدة:

- «هذه آخر مرة سيرى أحدنا فيها ريتشي ميسينا.»

ثم رسم علامة الصليب.

قال توكي محاولًا أن تبدو كلماته غير مرتجفة:

– «سوف يثوب إلى رشده ويُغيِّر رأيه. سيعود قبل أن نغلق الحانة متظاهرًا بأنه كان يمزح.»

لكن لامونت كان محقًّا، لأن لا أحد رأى ريتشي ميسينا مرَّة أخرى. قالت زوجته للشُّرطة إنها ظنته ذهب إلى فلوريدا ليقبض بعض مستحقاته، لكنك كنت تستطيع رؤية الحقيقة في عينيها السقيمتين الخائفتين. لم يمض وقت طويل حتى غادرت إلى لونج أيلاند. لعلها ظنَّت أن ريتشي سيعود ساعيًا وراءها ذات يوم بعد حلول الظلام، ولست أنا من قد يزعم أنه ما كان ليفعلها.

كان توكي ينظر إليَّ وأنظر إليه وأنا أعيد الصليب تحت القميص. لم أشعر بأنني خائف أو مُسِن هكذا في حياتي قط.

قال توكي مرَّة أخرى:

– «لا يمكن أن نتركهما هناك كهذا يا بوث.»

– «أعرف.»

أخذنا نرمق بعضنا البعض لفترة أطول، ثم إنه تقدَّم وأمسك كتفيَّ قائلًا:

– «أنت رجل طيب يا بوث.»

كان هذا القول كافيًا ليشد من أزري قليلًا. يبدو أنك عندما تتجاوز السبعين من عمرك يبدأ الناس في نسيان أنك رجل، أو أنك كنت كذلك من قبل.

سار توكي إلى لاملي الواقف بجوار النافذة وقال:

- «لديَّ سيَّارة دفع رباعي. سأخرجها من المرأب.»

التفت إليه لاملي قائلًا في حنق:

- «لماذا لم تقل هذا من قبل بحق السماء؟ هل كان يجب أن نقضي عشر دقائق كاملة في اللف والدوران؟»

قال توكي في كياسة شديدة:

- «سيدي، آمرك أن تخرس. وإن أردت فتح فمك مرة أخرى، تذكَّر من الذي انعطف إلى طريق مغمور في قلب العاصفة الثلجية اللعينة!»

حاول لاملي أن يقول شيئًا، ثم أغلق فمه، إلا أن وجهه كان محمرًّا من الغيظ. خرج توكي ليُخرج سيارته من المرأب، أما أنا فمددت يدي تحت البار لأخرج القارورة وملأتها بالبراندي. خطر لي أننا قد نحتاجه قبل أن تنتهي هذه الليلة الليلاء.

عواصف ماين الثلجية... هل وجدت نفسك في قلب إحداها من قبل؟

يتطاير الثلج سميكًا بقطعٍ صغيرة، حتى أنه يبدو كحبَّات الرمال، ليضرب سيارتك أو شاحنتك بلا هوادة. لن تريد حينها تشغيل كشَّافات السيَّارة لأن ضوءها ينعكس على الثلج ولن ترى مسافة عشرة أقدام أمامك. أنا أستطيع التعايُش مع الثلج، لكن الرياح هي التي لا أطيقها عندما تبدأ في التسارع والعواء لتحيل الثلج إلى مئة شكل غريب مختلف، ويبدو صوتها كأنه يحمل كل الكراهية والآلام والمخاوف التي في العالم.

هنالك صوت للموت في حنجرة العواصف الثلجية؛ موت أبيض، ولربما يوجد ما هو أكثر من الموت. هذا الصوت لا يتناهى إلى مسامعك وأنت نائم في فراشك الدافئ المريح وستائرك مسدلة وأبوابك موصدة. يكون الوضع أسوأ بكثير وأنت تقود... ونحن كنا نقود السيَّارة إلى أورشليم مباشرةً.

قال لاملي:

– «هلا أسرعت قليلًا؟»

قلت:

– «بالنسبة لرجل جاء نصف متجمِّد، فأنت متعجل للغاية على السير مرة أخرى.»

رمقني بامتعاض ولم يقل شيئًا.

كنا نتحرَّك في الطريق السريع بسرعة **25** ميلًا في الساعة. كان من الصعب تصديق أن الثلج قد تمت إزاحته عن هذا الطريق منذ ساعة واحدة، فقد كان يكاد يغمر الطريق كله، والريح لا تنفك تقذفه على السيَّارة من كلِّ اتجاه. ضوء كشاف السيَّارة الصغير لم يُظهر أمامنا سوى البياض الممتد بلا نهاية، ولم نقابل سيَّارة واحدة طوال الطريق.

بعد عشر دقائق تقريبًا قال لاملي لاهثًا:

– «ما هذا؟»

كان يشير إلى النافذة التي تجاورني. أدرت رأسي لأنظر، لكنني لم ألمح إلا ظلًّا ينسحب في الظلام بين الثلوج، إلا أنه من المحتمل أنني قد تخيَّلت ذلك.

سألته:

– «ماذا كان؟ غزالًا؟»

قال مرتجفًا:

– «أظن هذا، لكن عينيه... عينيه بدتا حمراوين.»

ثم نظر إليَّ قائلًا وكأنه يناشدني:

– «أهكذا تبدو عيون الغزلان ليلًا؟»

غمغمت:

- «عيون الغزلان يمكن أن تبدو كأي شيء.»

فكرت أن هذا قد يكون صحيحًا، لكنني رأيت الكثير من الغزلان في الليل في حياتي، ولم يكن منها ما عكست عيناه اللون الأحمر. أما توكي فلم يُعلّق بحرف.

بعد خمس عشرة دقيقة تقريبًا وصلنا إلى مكان حيث لم تكن المنحدرات الثلجية على جانب الطريق الأيمن عالية، لأنه من المفترض أن ترفع جرّافات الثلج شفراتها قليلًا وهي تزيحه عن مفترق الطُّرُق.

قال لاملي بلهجةٍ غير واثقة:

- «أظن أن هذا هو المكان الذي انعطفنا فيه، لكنني لست أرى اللافتة.»

قال توكي بطريقةٍ غير مألوفة فيه على الإطلاق:

- «ها هي اللافتة. يمكنك فقط أن ترى أعلاها، لأن بقيتها مدفون تحت الثلج.»

تنفّس لاملي الصعداء وقال:

- «بالتأكيد. اسمع يا مستر توكلاندر، أنا آسف على تعجُّلي في العودة إلى هنا. لقد كنتُ قلقًا وأرتجف من البرد وأنعت نفسي بجميع صفات الحمق، وأريد أن أشكركما على...»

قاطعه توكي:

– «لا تشكرنا حتى تدخل زوجتك وابنتك هذه السيَّارة.»

شغَّل نظام الدفع الرباعي في السيَّارة وشقَّ طريقه عبر جوينتنر آفنيو التي تعبر البلدة وتنتهي بالمدخل **295**. بعد قليل ظهرت آثار عجلات سيَّارة لاملي ثم اختفت مرَّة أخرى. كان هذا الأخير مائلًا إلى الأمام يبحث بعينيه عن سيَّارته.

فجأة قال توكي:

– «مستر لاملي.»

التفتَ إليه قائلًا:

– «ماذا؟»

– «سكان هذه الأنحاء يؤمنون بالكثير من الخرافات التي تدور حول أورشليم.»

قالها بأهدأ صوتٍ ممكن، لكنني استطعت تمييز تجاعيد القلق التي أحاطت بركني فمه، ورأيت الطريقة التي أخذت عيناه تتحركان بها من جانبٍ إلى آخر.

– «إذا كانت عائلتك في السيَّارة، فهذا خبر طيب. ستعودون معي إلى منزلي، وغدًا عندما تنتهي العاصفة سيُسعد بيلي أن يجر سيَّارتك خارج المنحدر الثلجي... لكن إذا لم تكونوا في السيَّارة...»

قاطعه لاملي في حدة:

– «إذا لم تكونا في السيَّارة؟ ولِمَ لا نجدهما في السيَّارة؟»

واصل توكي كأنه لم يسمعه:

– «إذا لم تكونا في السيَّارة، فسنعود أدراجنا ونذهب إلى فالمورث سنتر ونادي على المأمور. تخبُّطنا في قلب العاصفة الثلجية في الليل لا يبدو فكرة محبَّبة على أيِّ حال، أليس كذلك؟»

– «سنجدهما في السيَّارة. أين عساهما تذهبان؟»

قلت:

– «شيء آخر يا مستر لاملي: إذا رأينا أيَّ شخصٍ فلن نتحدَّث إليه، حتى لو تحدَّث هو إلينا. مفهوم؟»

قال لاملي ببطءٍ شديد:

– «ما هذه الخزعبلات؟»

قبل أن أعلِّق بحرف –والله وحده يعلم ما كنت لأقول– قال توكي:

– «وصلنا.»

رأينا سيَّارة مرسيدس كبيرة انغرست مؤخِّرتها بالكامل في كومة من الثلج، بينما غطَّت كومة أخرى جانبها الأيسر كله. كانت الكشَّافات الخلفية مضاءة، واستطعنا رؤية العادم يخرج من الماسورة.

غمغم لاملي:

– «لم ينفد منهما الوقود على الأقل.»

أوقف توكي السيَّارة وقال:

– «تذكَّر ما قاله لك بوث يا لاملي.»

– «طبعًا، طبعًا.»

لكنه لم يكن يفكِّر في أي شيء سوى زوجته وابنته، الأمر الذي لا ألومه عليه بطبيعة الحال.

بعينين مثبَّتتين على وجهي سألني توكي في تجهُّم:

– «مستعد؟»

– «أظن هذا.»

خرجنا من السيَّارة لتضربنا الرياح وتُلقي بالثلج في وجوهنا. كان لاملي أول من خرج منحنيًا أمام الرياح التي أخذت تمضغ معطفه الأنيق. كان يلقي بظلين على الأرض، واحد من ضوء سيَّارة توكي، والآخر من ضوء سيَّارته. كنت خلفه مباشرةً وكان توكي خلفي بخطوة. عندما وصلت إلى حقيبة المرسيدس أمسك توكي بذراعي قائلًا:

– «دعه يذهب.»

صاح لاملي:

– «چيني! فرانسي! هل أنتما بخير؟»

فتح باب السائق ومال إلى الداخل مكررًا:

– «هل أنتما...»

وتجمد في مكانه تمامًا، بينما اقتلعت الرياح الباب الثقيل من يده لتفتحه عن آخره.

قال توكي بصوتٍ غير مسموعٍ تقريبًا تحت صراخ الرياح:

– «رباه يا بوث! أظن الأمر حدث مرة أخرى.»

عاد لاملي إلينا. كان وجهه خائفًا ومرتبكًا وعيناه متسعتين. اندفع فجأة تجاهنا عبر الثلج وكاد يسقط على وجهه. دفعني جانبًا كأنني لا شيء وأمسك بتوكي.

– «كيف عرفت؟ أين هما؟ ماذا يحدث هنا؟»

دفع توكي يده في عنف وسار نحوي لننظر داخل المرسيدس معًا. كانت دافئة تمامًا، لكنها لم تكن لتبقى هكذا لوقتٍ أطول. مصباح الوقود الكهرماني كان يضيء وينطفئ، وكانت السيَّارة خالية إلا من دُمية طفلة على أرضيَّة المقعد الخلفي ومعطف تزلُّج صغير ملقى على المقعد نفسه.

وضع توكي يديه على وجهه، لكن لاملي دفعه بعيدًا في قوة حتى أنه أسقطه على الأرض. كان وجهه شاحبًا وهائجًا، وكان فمه يتحرَّك كأنه ابتلع شيئًا مرًّا ولم يستطع مضغه ليبصقه.

مدَّ يده داخل السيَّارة وأمسك بمعطف التزلُّج الصغير هامسًا:

– «معطف فرانسي.»

ثم كررها صائحًا:

– «معطف فرانسي!»

ورمقني بنظرةٍ خاوية قائلًا:

– «لا يمكنها أن تخرج دون معطفها يا مستر بوث... ستتجمَّد حتى الموت.»

– «مستر لاملي...»

اندفع خلفي وهو لا يزال يحمل المعطف صارخًا:

– «فرانسي! چيني! أين أنتما؟!»

مددت يدي إلى توكي وجذبته قائلًا:

– «هل أنت...»

قاطَعني:

– «لا عليك بي. يجب أن نلحق به.»

سعينا خلفه بأسرع ما أمكننا، الأمر الذي لم يكن هينًا مع ارتفاع الثلج حتى الفخذين في بعض الأماكن، لكنه توقّف واستطعنا اللحاق به.

قال توكي وهو يضع يده على كتفه:

– «مستر لاملي...»

قاطعه:

– «من هنا! لقد ذهبتا من هنا! انظرا!»

ونظرنا. كنا الآن واقفين في بُقعة منخفضة نوعًا، وكان معظم الرياح يمر من فوق رؤوسنا. استطعنا تمييز نوعين مختلفين من الآثار: آثار قدمين كبيرتين وآثار أخريين صغيرتين يتساقط عليها الثلج، فلو كنا قد تأخرنا لخمس دقائق إضافية لكانت قد توارت بالكامل.

بدأ يسير وهو ينظر إلى أسفل، إلا أن توكي أمسك به هاتفًا:

– «لا! لا يا لاملي!»

استدار لاملي إلى توكي في شراسة وكوَّر قبضته متحفزًا، لكن شيئًا في ملامح توكي جعله يتردَّد. نظر إليَّ ثم إلى توكي مرَّة أخرى وقال كأننا زوج من الأطفال الأغبياء:

– «سوف تتجمد. ألا تفهمان؟ إنها لا ترتدي معطفها وهي مجرد طفلة في السابعة.»

قال توكي:

– «قد تكونا في أي مكان. لا يمكنك اقتفاء هذه الآثار لأنها ستختفي مع المنعطف التالي.»

صرخ لاملي في هستيريا:

– «وماذا تقترح أنت أيها العبقري؟! إذا عدنا لطلب الشُّرطة ستتجمَّد هي وزوجتي!»

نظر توكي إلى عيني لاملي مباشرةً وقال:

– «قد تكونا تجمدتا بالفعل... تجمدتا، أو أسوأ.»

همس لاملي:

– «ماذا تعني؟ تحدَّث بلا مراوغة عليك اللعنة! أخبرني!»

كان أنا الذي أجابه هذه المرة، قائلًا الكلمة التي لم أتوقَّع نُطقها قط:

– «مصاصّو الدماء يا مستر لاملي. أورشليم تعج بمصّاصي الدماء. أعرف أنه يصعب عليك تصديق هذا.»

كان يرمقني بنظرةٍ عجيبة كأن لوني قد استحال إلى الأخضر، وهمس:

– «مجنونان... أنتما مجنونان حتمًا.»

ثم استدار مبتعدًا وكوَّر يديه حول فمه وجأر:

- «فرانسي! چيني!»

بدأ يتحرَّك متعثِّرًا مرَّة أخرى والثلج مرتفع حتى حاشية معطفه الأنيق.

نظرت إلى توكي وسألته:

- «ماذا نفعل الآن؟»

- «نتبعه. لا يمكنني أن أتركه هنا يا بوث. هل يمكنك أنت؟»

- «لا أظن.»

هكذا بدأنا نخوض طريقنا وسط الثلج خلف لاملي بأسرع ما أمكن، لكنه أخذ يبتعد أكثر فأكثر. بدأت مفاصلي الملتهبة تأن في ألم، ونظرت إلى أسفل قائلًا لساقيَّ:

- «استمرَّا... استمرَّا عليكما اللعنة!»

اصطدمت بتوكي الذي كان واقفًا يضغط بكلتا يديه على صدره، وقلت له في قلق:

- «توكي، هل أنت بخير؟»

قال وهو يبعد يديه:

- «أنا بخير. سنبقى معه يا بوث، وعندما يصيبه التعب سيفكِّر بعقله.»

وصلنا إلى مرتفَعٍ صغير كان لاملي يقف عند نهايته ويبحث في يأس عن مزيدٍ من الآثار.

مسكين... لم تكن هناك فرصة للعثور عليهما. كانت الرياح تعصف في المنطقة التي يقف فيها بالذات بشدة؛ ولو كانت هناك أي آثار لوارتها الرياح بعد ثلاث دقائق من انطباعها، ناهيك عن ساعتين كاملتين.

رفع رأسه وصرخ في قلب الليل:

- «فرانسي! چيني! بحق السماء!»

كان يمكنك أن تسمع اليأس والرعب في صوته وتُشفق عليه لهذا. الإجابة الوحيدة التي حصل عليها كان صوت عواء الرياح التي بدت وكأنها تضحك عليه قائلة:

- «لقد أخذتهما يا مستر نيو چيرسي بسيَّارتك الفارهة ومعطفك الأنيق. أخذتهما ومسحت آثارهما، ومع حلول الصباح سأكون قد جمَّدتهما كالفاكهة في الفريزر!»

هتف توكي:

– «لاملي، لا عليك بمصَّاصي الدماء والأشباح، ولكن استخدم عقلك! يجب أن نعود إلى...»

ثم أتت الإجابة بصوتٍ آتٍ من قلب الظلمة كرنين الأجراس الفضية، وشعرت بقلبي يتجمَّد بين ضلوعي:

– «جيري... جيري، أهذا أنت؟»

استدار لاملي إلى مصدر الصوت، ثم خرجت هي من بين الظلال السوداء لأيكة صغيرة من الأشجار كالشبح. خطر لي لحظتها أنها كانت أجمل امرأة رأيتها في حياتي على الإطلاق. شعرت بأنني أريد الذهاب إليها وإخبارها كم أنا سعيد بنجاتها. كانت ترتدي ما يشبه العباءة الخضراء أخذت تتطاير حولها، وبدا شعرها الأسود كجدولٍ من الماء في ديسمبر قبل أن يُجمِّده الشتاء.

لعلي خطوت صوبها بالفعل، لأنني شعرت بيد توكي تتشبَّث بكتفي في قوة. ومع ذلك...

كيف أقولها؟ شعرت بتوقٍ للذهاب إليها، بجمالها الأخَّاذ وتلك العباءة الخضراء تتطاير حول عنقها وكتفيها، كأنها خارجة للتو من قصيدة لوالتر دو لا مير.

صرخ لاملي وهو يندفع إليها بذراعين ممدودتين:

– «جيني!»

وصرخ توكي:

– «لا! إياك!»

لم ينظر حتى..لكنها هي نظرت. رفعت عينيها إلينا وابتسمت، وعندما فعلت شعرت بتوقي يستحيل إلى رعب بارد كالقبر، أبيض وصامت كالعظام في الكفن. حتى من موقعنا فوق المرتفَع استطعنا رؤية البريق الأحمر الغاضب في عينيها. كانتا أقل آدميَّةً من عيني ذئب، وعندما ابتسمت استطعنا أن نرى كم أمست أسنانها طويلة: لم تعد آدميَّة، بل أصبحت شيئًا ميّتًا عاد إلى الحياة بطريقةٍ ما في هذه العاصفة.

رسم توكي علامة الصليب عليها، وأجفلت هي قليلًا... ثم ابتسمت مرَّة أخرى. كنا بعيدين عنها، وكنا نرتجف رعبًا.

همستُ:

– «ألا يمكن أن نوقفه؟»

قال في كآبة:

– «فات الأوان يا بوث، فات الأوان.»

وصل لاملي إليها وقد بدا هو نفسه كالشبح مع كل الثلج الذي غطاه. مد يده إليها... ثم تعالى صراخه.

سوف أسمع ذلك الصوت في أحلامي ما حييت؛ صوت هذا الرجل يصرخ كطفلٍ في كابوس. حاول أن يبتعد عنها، لكنها مدَّت ذراعيها العاريتين البيضاوين كالثلج وجذبته إليها... ورأيت رأسها ينتصب ثم يندفع إلى الأمام.

قال توكي:

– «بوث، يجب أن نذهب من هنا.»

وهكذا جرينا... جرينا كالفئران عائدين من حيث أتينا، نسقط وننهض، نتزلق ونتعثّر. أخذت أنظر خلف كتفي لأرى إن كانت تلك المرأة آتية خلفنا وهي تبتسم ابتسامتها الشنيعة وتنظر إلينا بعينيها الحمراوين.

عدنا إلى سيَّارة توكي الذي أمسك بصدره في ألم، وقلت في خوف:

– «توكي، ماذا...»

قاطعني لاهثًا:

– «إنه قلبي... حالته سيئة منذ خمسة أعوام أو يزيد. ضعني في المقعد الخلفي واخرج بنا من هنا.»

حملته إلى المقعد الخلفي حيث جلس وأغلق عينيه. كانت بشرته شاحبة كالشمع.

درت حول السيَّارة إلى المقعد الأمامي عندما كدت أصطدم بتلك الفتاة الصغيرة. كانت واقفة إلى جوار باب السائق بشعرها المعقوص على شكل ذيل الحصان، لا ترتدي شيئًا سوى فستان أصفر خفيف.

قالت في صوتٍ واضح رقيق كنسيم الصباح:

– «سيدي، هلا ساعدتني في العثور على أمي؟ لقد ذهَبَت وأنا أشعر بالبرد.»

قلت:

– «صغيرتي، يجب أن تركبي السيَّارة. أمك قد...»

بترتُ عبارتي. لو كانت هناك مرَّة في حياتي اقتربت فيها من فقدان الوعي إلى هذا الحد، فهي هذه المرَّة. كانت واقفة هناك، لكنها كانت واقفة فوق الثلج، ولم تكن هناك أية آثار لقدميها في أي اتجاه.

نظرت إلي فرانسي ابنة لاملي التي لم يتعدَّ عمرها السنين السبع، والتي ستظل في السابعة إلى الأبد.

وجهها كان شاحبًا كالجثة، عيناها كانتا حمراوين فضيتين، حتى أنك تذوب فيهما، وتحت فكها رأيت ثقبين صغيرين بحوافٍّ مكوية على نحو شنيع.

مدَّت ذراعيها إليَّ وابتسمت قائلة بنعومة:

– «ارفعني يا سيدي. أريد أن أقبِّلك، ثم يمكنك أن تأخذني إلى أمي بعدها.»

لم أرد أن أقبِّلها، ولكن لم تكن بيديَّ حيلة. كنت أميل إليها وذراعاي ممدودتان، وكنت أرى فمها ينفتح ليكشف عن نابين صغيرَين. رأيت شيئًا ما يترلق على ذقنها بلونٍ فضي لامع؛ وبرعبٍ متناهٍ رأيت أن لعابها كان يسيل.

عقدت يديها الصغيرتين حول عنقي، وفكرتُ:

– «حسن، ربما لن يكون هذا سيئًا. ربما سأشعر بتحسُّن بعد قليل.»

كان هذا عندما طار شيء أسود من السيَّارة وضربها في صدرها. تصاعد من مكان الضربة دخان غريب الرائحة وسطع ضوء أحمر اختفى بعد ثانية، ثم تراجعت الفتاة وهي تهس وقد استحالت ملامحها إلى ملامح ثعلب يعاني الغضب والألم والكراهية.

واستدارت و... واختفت تمامًا.

الآن تراها، الآن لا تراها.

همس توكي:

– «بوث، أسرع!»

وأسرعت إلى السيَّارة دون أن أنسى التقاط ما ألقاه توكي على الفتاة القادمة من الجحيم: كتاب والدته المقدس ذا الغلاف الأسود.

مضى على تلك الليلة بضع سنوات. أنا الآن أكبر سنًّا، لكنني لم أكن جبانًا قَط. توفي هرب توكلاندر في سلام ذات ليلة منذ عامين. ما زالت الحانة موجودة، فقد اشتراها زوجان لطيفان وحافظا عليها كما هي، لكنني لم أعد أذهب إلى هناك كثيرًا. المكان مختلف من دون توكي.

الأمور في أورشليم كما هي. عثر المأمور على سيَّارة لاملي خالية من الوقود في اليوم التالي. لا أنا ولا توكي نطقنا بكلمة عما حدث، فما الفائدة؟ من وقت إلى آخر سيختفي عابر سبيل أو زائر في مكانٍ ما هناك، سواء عند تل المدرسة أو عند المقبرة. ستعثر الشرطة على متعلّقات هؤلاء، لكنها لن تعثر عليهم هُم أبدًا.

ما زالت الكوابيس تراودني عن تلك الليلة العاصفة التي قضيناها هناك. لا أرى المرأة فيها بقدر ما أرى الفتاة الصغيرة والطريقة التي ابتسمت بها ورفعت ذراعيها إليَّ لأحملها حتى تُقبّلني... لكنني رجل طاعن في السن، وسرعان ما ستنتهي الأحلام كما ينتهي كل شيء.

قد تسوقك الأقدار إلى السفر في جنوب ماين ذات يوم. جزء جميل من الريف هو. قد تجلس حتى في حانة توكي –التي أبقى المالكان

الجديدان على اسمها كما هو- وتتناول شرابًا. تناول الشراب، ثم خذ بنصيحتي بأن تواصل طريقك إلى الشمال.

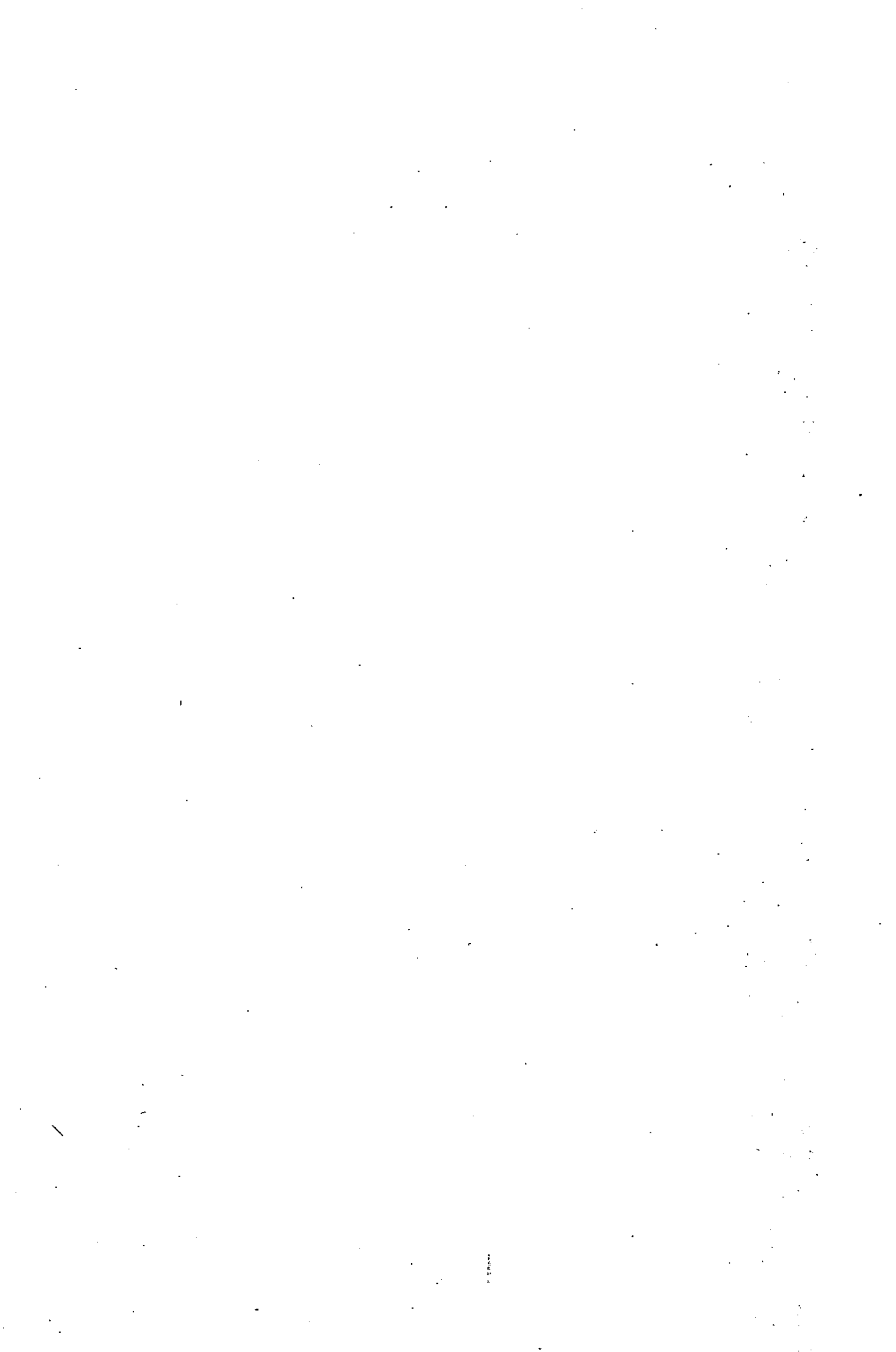
مهما فعلت، لا تقترب من بلدة أورشليم.

بالذات بعد حلول الظلام...

ثمّة فتاة صغيرة في مكانٍ ما هناك، وأظنها ما زالت تتوق إلى أن يمنحها أحدهم قُبلة المساء.

***

يجب أن أخرج من هنا!



«ماذا أفعل هنا؟»

يُدوِّي الخاطر في رأسي فجأةً، وأشعرُ بخوف شديد يغمرني. لا أذكر أيَّ شيءٍ على الإطلاق، لكن ها أنا ذا أعملُ على خط تجميع في مصنعٍ ما. كل ما أعرفه هو أن اسمي داني فيليبس، وكأنني أفقت لتوِّي من غفوةٍ طويلة. هناك حرس كثيرون كلٌّ منهم يحمل سلاحًا وقد بدت على وجوههم الجديَّة، وهناك آخرون يعملون حولي وقد بدوا كالزومبي، وكالمساجين.

لكن كل هذا لا يهم. المهم هو أنني يجب أن أعرف من أكون وماذا أفعل.

يجب أن أخرج من هنا!

أتحرَّك نحو باب الخروج الذي لمحته، فيصيح أحد الحرس آمرًا إياي أن أعود إلى مكاني.

أنطلقُ عبر المكان متفاديًا حارسًا آخر وأخرجُ من الباب، فأسمعُ أصوات أسلحتهم وأعرفُ أنهم يُطلقون النار عليَّ، لكن خاطرًا واحدًا يظل مسيطرًا على تفكيري: يجب أن أخرج من هنا.

هناك مجموعة أخرى من الحرس تسد الباب الآخر المواجه، ويبدو أنني قد حوصرتُ تمامًا، لولا أنني ألمحُ رافعة تتحرَّك إلى أسفل، فأتعلَّقُ بها وأهبطُ مسافة 300 قدمٍ إلى مستوى آخر من البناية التي أنا سجين فيها. لكن لا فائدة من هذا، فثمَّة حارس آخر هناك يُطلق ناره عليَّ، فأشعرُ بالضعف والدُّوار، وأهوي في بئرٍ مظلمةٍ عميقة.

***

رفع أحد الحرس قبعته وحكَّ رأسه وهو يخاطب زميله قائلًا:

– «لا أدري يا چو، لا أدري حقًّا. التقدُّم شيء عظيم، لا يمكنني إنكار هذا، وهذا الموديل X-238 –أو داني فيليپس كما نُطلق عليه– ممتاز بالفعل، لكنه يصاب بالجنون أحيانًا ويبدو كأنه يبحث عن شيءٍ ما، شيءٍ يكاد يكون بشريًّا. لا أدري.»

وتراجع بضع خطواتٍ إلى الوراء ليُفسح الطريق لشاحنة تحمل اسم مصنع الروبوتات بحروفٍ نضيدةٍ كبيرة.

***

بعد أسبوعين عاد داني فيليبس لممارسة عمله الروتيني بنظرةٍ خاويةٍ في عينيه، قبل أن...

تلوح نظرة وعيٍ وإدراكٍ في العينين فجأةً ويغمره الخاطر الأوحد: يجب أن أخرج من هنا!

***



چوناثان والسَّاحرات



يُحكى أنه كان هناك فتى اسمه چوناثان. كان ذكيًّا وسيمًا وشديد الشجاعة، لكنه

كان ابن الإسكافي الفقير. وقد جاء يوم قال فيه أبوه:

– «چوناثان يا ولدي، لقد أصبحت كبيرًا بما فيه الكفاية، وعليك أن تذهب وتسعى إلى بناء مستقبلك.»

ولأن چوناثان كان يتمتَّع بالذكاء كما ذكرنا، فقد فكَّر أنه يجدر به أن يذهب إلى الملك ويطلب منه عملًا، وهكذا غادر دار أبيه.

في طريقه التقى بأرنبٍ هو في الحقيقة جنيَّة متنكِّرة، وقد كان الصيَّادون يُطاردونها في هيئتها تلك، فوثبت بين ذراعي چوناثان واندسَّت بينهما، وعندما اقتربوا منه أشار چوناثان إلى اتجاهٍ آخر وهتف:

– «من هنا! رأيت الأرنب يجري من هنا!»

وبعد أن اختفى الصيَّادون تخلَّت الجنيَّة عن هيئة الأرنب وقالت له:

– «لقد ساعدتني، ولهذا سأمنحك ثلاث أمانٍ، فماذا تطلب؟»

لكن الفتى لم يستطع التفكير في أيٍّ شيء، فوافقت الجنيَّة على أن تُحقِّق له الأماني الثلاث متى شاء.

وهكذا واصَل چوناثان السير إلى أن بلغ المملكة دون أن تواجهه أي مشاكل، وهناك عمد إلى قصر الملك ليطلب منه عملًا. على أنه تصادف أن الملك كان في حالةٍ مزاجيَّة بالغة السوء في ذلك اليوم، ومن ثَمَّ أفرغ استياءه في وجه چوناثان وقال:

– «نعم، هناك عمل لك. على الجبل البعيد تعيش ثلاث ساحرات، فإذا استطعت قتلهن سأهبك خمسة آلاف قطعة من العملة، وإذا لم تفعل سأقطع رأسك! لديك عشرون يومًا.»

ثم صَرَف الفتى الذي قال لنفسه إنه سيحاول، وتذكَّر الأماني الثلاث التي منحته الجنيَّة إياها، وعليه بدأ يشق طريقه إلى الجبل البعيد.

***

تبلغ چوناثان الجبل، وكان على وشك أن يستخدم أمنيته الأولى ويطلب خنجرًا يقتل به السَّاحرات، عندما سمع صوتًا يتردَّد في أذنه ويقول:

- «السَّاحرة الأولى لا تخترق جسدها النِّصال، والثانية لا تخترق جسدها النِّصال ولا يمكن خنقها، والثالثة لا تخترق جسدها النِّصال ولا يمكن خنقها أو سحقها، بالإضافة لكونها خفيَّة عن الأعين.»

نظر چوناثان حوله فلم يرَ أحدًا، لكنه تذكَّر الجنيَّة وخمَّن أنها من همس له بتلك المعلومات، فابتسم.

ثم بدأ يُفتِّش عن السَّاحرة الأولى، وبعد بحثٍ طويل عثر عليها أخيرًا في كهفٍ بالقرب من سفح الجبل، وكانت عجوزًا شمطاء خبيثة الشكل والرائحة.

تذكَّر چوناثان كلمات الجنيَّة، وقبل أن تستطيع السَّاحرة أن تفعل أيَّ شيءٍ باستثناء تسليط نظراتها القبيحة عليه، كان چوناثان قد تمنَّى أن تختنق السَّاحرة، وفي لمح البصر سقطت مختنقةً فعلًا.

وبدأ چوناثان يصعد الجبل بحثًا عن السَّاحرة الثانية، وفي كهفٍ أعلى عثر عليها. كان قد بدأ يتمنَّى أن تختنق هذه بدورها، لكنه تذكَّر أن السَّاحرة الثانية لا يمكن أن تموت خنقًا، وقبل أن تستطيع هذه أن تفعل شيئًا سوى أن ترمقه بنظراتها القبيحة، كان قد تمنَّى أن تُسحَق، وفي لمح البصر تحطَّم جسدها تمامًا.

الآن كان عليه فقط أن يقتل السَّاحرة الثالثة لينال مكافأته من الملك، لكنه ظلّ يتساءل في طريقه إلى أعلى عن الطريقة التي يمكن أن يقتلها بها، بما أن النِّصال لا تخترق جسدها ولا يمكن خنقها أو سحقها، والأدهى أنه لا يستطيع رؤيتها كذلك.

ثم إن فكرةً رائعةً خطرت له...

بلغ چوناثان الكهف الثالث، وعند بابه كمنَ منتظرًا حتى سمع خطوات أقدام السَّاحرة، فالتقط حجرًا كبيرًا وتمنَّى أمنيته الأخيرة.

تمنَّى چوناثان أن تتحوَّل السَّاحرة إلى امرأةٍ عاديَّة، وفي لمح البصر برزَت أمام عينيه، فهوى على رأسها بالحجر فسقطت صريعة.

وهكذا عاد إلى المملكة ونال مكافأته من الملك وعاش في تباتٍ ونبات!

***

البُعبُع



قال الرجل المتمدِّد على أريكة الدكتور هارپر:

- «جئتُ إليك لأنني أريد أن أحكي قصتي.»

كان الرجل هو لستر بيلينجز، من ووتربيري بولاية كونتيكت. حسب البيانات التي أدلى بها لمرضة الاستقبال، فإنه في الثامنة والعشرين من عمره، يعمل لحساب شركة صناعية ما في نيويورك، مُطلَّق وأب لثلاثة أطفال، جميعهم موتى.

- «لا يمكنني الذهاب إلى قس لأنني لست كاثوليكيًّا. لا يمكنني الذهاب إلى محامٍ لأنني لم أفعل شيئًا يستحق استشارة محامٍ. كل ما فعلته هو أنني قتلت أطفالي واحدًا تلو الآخر، قتلتهم جميعًا.»

شغَّل الدكتور هارپر جهاز التسجيل الذي يستخدمه لتسجيل جلساته مع مرضاه. تمدَّد لستر مستقيمًا كالعصا على الأريكة دون أن يشغل بوصة واحدة بلا داعٍ. بدا كصورةٍ لرجلٍ يتحمَّل إهانة

ضرورية. كانت يداه مطويتين على صدره كيدي الجثمان المسجَّى، وكانت ملامح وجهه جامدة. نظر إلى السقف المطلي بالأبيض في تركيز، كأنما يرى صورًا ومشاهد من حياته تُعرض عليه.

– «هل تعني أنك قتلتهم بالمعنى الحرفي أم...»

قاطعه بنفاد صبر بتلويحةٍ من يده قائلًا:

– «لا. لكنني كنت المسؤول. ديني في عام 1967، وشيرل في عام 1971، وأندي هذا العام. أريد أن أخبرك بما حدث.»

لم يقل الدكتور هاربر شيئًا. كانت الفكرة التي تدور برأسه أن لستر بدا عجوزًا مثيرًا للشفقة. كان شعره مبعثرًا وبشرته شاحبة، بينما حملت عيناه بؤس الدنيا كله.

– «لقد قُتِلوا. المشكلة أن أحدًا لا يُصدِّق هذا. لو صدَّقوني سأستريح.»

– «ولِمَ؟»

– «لأن...»

بتر عبارته، واعتدل في جلسته وهو ينظر عبر الغرفة صائحًا وقد اتسعت عيناه:

– «ما هذا؟»

– «ماذا؟»

– «هذا الباب.»

أجاب الدكتور هارپر:

– «إنه باب الخزانة التي أُعلّق فيها معطفي وأضع فيها حذائي.»

– «افتحها، أريد أن أرى.»

نهض الدكتور هارپر دون أن يُعلّق وقطع الغرفة ليفتح الخزانة. بداخلها كان هناك معطف من الجلد المدبوغ معلّق على واحدٍ من أربعة أو خمسة مشاجب، وتحته بدا حذاء الطبيب اللامع، وكان هذا كل شيء.

قال الدكتور هارپر:

– «اطمأننت؟»

عاد لستر إلى وضعه السابق قائلًا:

– «ليكن.»

قال الدكتور هارپر بعد أن عاد إلى مقعده:

– «كنت تقول إنه لو ثبتت جرائم قتل أطفالك الثلاثة فستنتهي جميع متاعبك. ما السبب؟»

ردَّ لستر في الحال:

- «لأنني سأذهب إلى السجن وأقضي فيه ما تبقّى من عمري. يمكنك أن ترى كل شيء في جميع غُرف السجن، كل شيء.»

قالها وابتسم دون سببٍ واضح.

- «كيف قُتِل أطفالك؟»

هبَّ لستر في وجهه هاتفًا:

- «لا تحاول استنطاقي!»

ثم إنه واصل بهدوئه السابق وقد استردَّه فجأة:

- «لا تقلق، سأخبرك. لستُ واحدًا من مرضاك الحمقى الذين يظنون أنفسهم نابليون، أو الذين أدمنوا الهروين لأن أمهاتهم لم يمنحنهم الحب الكافي. أعرف أنك لن تُصدِّقني ولا أبالي بهذا. لا يهم. مجرَّد حكايتي للقصة يكفي.»

أشعل الدكتور هارپر غليونه وقال:

- «ليكن.»

- «تزوجتُ ريتا عام 1965. كنتُ في الحادية والعشرين، وكانت في الثامنة عشرة. كانت تحمل ديني وقتها.»

أسفرت شفتاه عن ابتسامةٍ شاحبة اختفت في لحظة قبل أن يتابع:

- «اضطررت لترك الكلية والحصول على عمل، لكنني لم أمانع. لقد أحببتهما وكنا في غاية السعادة. حملت ريتا مرَّة أخرى بعد مجيء ديني بفترةٍ قصيرة، وجاءت شيرل في ديسمبر 1966، ثم جاء أندي

في صيف 1969، وكان ديني قد مات وقتها بالفعل. كانَ مجيء أندي مصادفة. هذا ما قالته ريتا. قالت إن موانع الحمل لا تعمل أحيانًا. أظن الأمر كان أكبر من مجرَّد مصادفة. الأطفال يُقيِّدون الرجال كما تعرف. هذا يروق للنساء، بالذات عندما يكون الرجل أكثر منهن ذكاءً، ألا توافقني الرأي؟»

أصدر الدكتور هاربر صوتًا مبهمًا دون أن يُعلِّق.

- «لا يهم. لقد أحببته رغم كلِّ شيء.»

قالها بحقد، وكأنه أحب الطفل فقط ليغيظ زوجته.

سأله هاربر:

- «من قتل الأطفال؟»

أجاب لستر بيلينجز على الفور:

- «البُعبُع.. البُعبُع قتلهم جميعًا. خرج من خزانة الثياب وقتلهم.»

واستدار إليه وقال مبتسمًا:

- «تظنني مجنونًا. ملامحك كلها تشي بهذا، لكنني لا أبالي. كل ما أريده هو أن أحكي لك القصة ثم أذهب إلى حيث ألقت.»

قال الطبيب النفسي:

- «أنا مُصغٍ.»

– «بدأ كل شيء عندما كان ديني في الثانية من عمره بينما كانت شيرل لا تزال رضيعة. كان يبكي عندما تضعه ريتا في فراشه. كان لدينا منزل بغرفتي نوم. شيرل كانت تنام في مهدها بغرفتنا. في البداية اعتقدت أنه يبكي لأنه لم تعد هناك زجاجة لبن يأخذها معه إلى الفراش. قالت ريتا ألا أصنع مشكلة من الموضوع؛ فلأدعه ينام ومعه الزجاجة ولسوف يتخلَّى عنها من تلقاء نفسه. لكن تلك هي البداية السيئة للأطفال: تتساهل معهم وتُدلِّلهم، وفي النهاية يُحطِّمون قلبك أنت. تلك هي الطريقة التي يتحوَّل بها الأولاد إلى مخنَّثين. هل تتخيل أن تستيقظ ذات يوم لتجد أن ولدك –فلذة كبدك– قد تحوَّل إلى مخنَّث؟

بعد فترة، عندما لم يكف عن البكاء، بدأت أضعه في الفراش بنفسي، وعندما لم يكن يكف عنه كنت أصفعه. ثم قالت ريتا إنه كان يُردِّد كلمة (الضوء) مرارًا وتكرارًا. لا أدري. كيف يمكنك أن تعرف ما يقوله الأطفال في تلك السن الصغيرة؟ الأم وحدها يمكن أن تعرف.

أرادت ريتا أن تضع معه إضاءة ليلية، تلك الأشياء التي تُثبَّت في الحائط ومرسوم عليها ميكي ماوس وذلك الهراء. لم أسمح لها بذلك. إذا لم يتعلَّم الطفل عدم الخوف من الظلام وهو صغير فلن يتعلَّمه أبدًا. على أية حال، مات ديني في الصيف الذي وُلدت فيه شيرل. وضعته في الفراش تلك الليلة وبدأ هو في البكاء في الحال. سمعتُ ما

قاله تلك المرَّة. أشار بإصبعه إلى خزانة الثياب وقالها بوضوح: البُعبُع.. البُعبُع يا أبي!

أطفأت النور وعدت إلى غرفتنا وسألت ريتا لماذا علّمت الطفل كلمة كهذه. كنت أريد صفعها قليلًا، لكنني لم أفعل. قالت إنها لم تُعلّمه تلك الكلمة قَط، ونعتُّها أنا بالكاذبة الحقيرة. كان ذلك الصيف سيئًا عليَّ. العمل الوحيد الذي استطعتُ الحصول عليه كان شحن صناديق المياه الغازية إلى مخزن، وكنت متعبًا طوال الوقت. كانت شيرل تستيقظ وتبكي كل ليلة، وكانت ريتا تحملها وتنهنه. أحيانًا كانت تتملّكني الرغبة في إلقاء كلتيهما من النافذة. الأطفال يُثيرون جنونك أحيانًا بحق المسيح! يمكنك أن تقتلهم!

أيقظتني الطفلة في الثالثة صباحًا كالمعتاد. ذهبت إلى الحمام برُبع ذهن، وطلبت مني ريتا أن أتفقّد ديني. قلت لها أن تتفقّده بنفسها، ثم عُدت إلى الفراش. كنت قد بدأت أغرق في النوم مرة أخرى عندما سمعتها تصرخ.

نهضت وجريت إلى الغرفة الأخرى. كان الطفل ميتًا على ظهره. كان لونه شاحبًا كالدقيق ما عدا الأماكن التي تلطّخت بالدم؛ ساقاه ورأسه ومؤخرته. كانت عيناه مفتوحتين، وكان هذا أسوأ ما في الأمر. كانتا متسعتين عن آخرهما وزجاجيتين، كعيني رأس الوعل الذي يُعلّقه البعض فوق رف المدفأة، كعيني هؤلاء الأطفال الصرعى الذين

تراهم في فيتنام..لكن لا يجدر بطفل أمريكي أن يبدو هكذا؛ ميتًا على ظهره وهو يرتدي الحفاضة لأنه عاد ليبلل نفسه ليلًا منذ أسبوعين. لقد أحببت ذلك الطفل.»

هز لستر رأسه، ثم ابتسم تلك الابتسامة الخائفة مرّة أخرى، قبل أن يتابع:

– «كانت صرخات ريتا كفيلة بإيقاظ الموتى، لكنها لم توقظ ديني الذي أرادت أن تحمله وتهزه، لكني لم أسمح لها. الشُّرطة لا تحبك أن تلمس أيًّا من الأدلة. أنا أعرف هذا.»

سأله هارپر بهدوء:

– «هل كنت تعرف أنه البُعبُع وقتها؟»

– «لا، ليس وقتها، لكنني رأيت شيئًا معينًا. لم يكن يحمل لي معنًى ما وقتها، لكن عقلي خزّنه.»

– «ماذا رأيت؟»

– «باب خزانة الثياب كان مفتوحًا. ليس كثيرًا، بل مجرّد فتحة صغيرة. لكني كنت أعرف أني أغلقته جيدًا. هناك ثلاثة أكياس تحوي مسحوقًا للتنظيف بداخلها. إذا عبث الطفل بها سيختنق. هل تعرف هذه المعلومة؟»

– «أجل. ماذا حدث بعدها؟»

نظر إلى يديه اللتين دفنتا ثلاثة توابيت صغيرة، ثم هزَّ كتفيه وقال:

– «دفناه.»

– «هل جرى تحقيق؟»

أجاب لستر في تهكُّم:

– «بالتأكيد. جاء طبيب طفل حديث التخرج وقال إنه حادث موت في المهد. هل سمعت هراءً كهذا من قبل؟ لقد كان الطفل في الثالثة من عمره!»

قال هاربر في حذر:

– «الموت في المهد شائع للغاية خلال العام الأول، لكن التشخيصات شملت شهادات وفاة لأطفال حتى الخامسة من العمر و...»

صرخ لستر في عنف:

– «هراء!»

صمت هاربر وأعاد إشعال الغليون.

– «نقلنا شيرل إلى غرفة ديني القديمة بعد شهرٍ من الجنازة. قاتلتْ ريتا لألا يحدث ذلك، لكن الكلمة الأخيرة كانت لي. آلمني هذا بالطبع، بحق يسوع آلمني، فقد أحببت أن تكون الطفلة معنا في الغرفة، لكن لا ينبغي أن تكون فائق العناية بطفلك، فهذا يحيله إلى شخصٍ

عاجز. عندما كنت طفلًا كانت أمي تأخذني إلى الشاطئ، ثم تصرخ حتى يبح صوتها: لا تبتعد كثيرًا! لا تذهب إلى هناك! هناك تيار شديد تحت الماء في هذه البُقعة! لقد أكلت منذ ساعةٍ واحدة فقط! حتى أنها كانت تأمرني بالاحتراس من أسماك القرش بحق الله! فماذا حدث لي؟ لا يمكنني الآن الاقتراب من الماء أصلًا. هذا حق. تصيبني التشنُّجات إن اقتربت من الماء. ريتا جعلتني آخذها هي والطفلين إلى شاطئ سافين روك ذات مرة عندما كان ديني حيًّا. يومها مرضتُ كالكلاب. كما ترى، لا يجب عليك المبالغة في حماية أطفالك، ولا يجدر بك تدليل نفسك كذلك. الحياة تستمر. هكذا وُضعَت شيرل في مهد ديني، لكننا ألقينا بالحشية القديمة في القمامة رغم ذلك، فلم أرد أن تصاب طفلتي بأيِّ جراثيم. هكذا مرَّ عام كامل، حتى جاءت ليلة وضعتُ فيها شيرل في الفراش، فبدأت تصرخ وتعوي: البُعبُع يا أبي... البُعبُع! قرع هذا جرسًا في يافوخي. كانت الكلمات نفسها التي قالها ديني. وتذكَّرت باب الخزانة الموارب عندما عثرنا عليه ميتًا. أردت أن آخذها لتنام معنا في الفراش تلك الليلة.»

– «وهل فعلت؟»

نظر لستر إلى يديه، بينما ارتجفت ملامحه وأجاب:

– «كلا. كيف كان يمكنني أن أذهب إلى ريتا وأقر بأنني كنت مخطئًا؟ كان يجب أن أكون قويًّا. هي كانت دومًا ضعيفة الشخصية. انظر كيف وافقت على النوم معي بهذه البساطة قبل أن نتزوَّج.»

- «من ناحيةٍ أخرى، انظر كيف نمت أنت معها بهذه البساطة.»

استدار لستر ببطء إلى الطبيب وقال:

- «هل تحاول أن تتحاذق عليَّ؟»

- «بالطبع لا.»

قال لستر في شراسة:

- «إذن دعني أحكي القصة بطريقتي. لقد جئت إلى هنا لأزيح هذا الحمل عن عاتقي، لأحكي قصتي. لن أتحدَّث عن حياتي الجنسيَّة إذا كنت تتوقع ذلك. إنها طبيعية تمامًا وهذا كل ما في الأمر.»

- «ليكن.»

كرَّر لستر كلمة الطبيب الأخيرة في عجرفة، وبدا كأن حبل أفكاره قد انقطع. نظر في توتر إلى الخزانة التي كانت مغلقة بإحكام، فسأله الطبيب:

- «هل تريدني أن أفتحها؟»

قال لستر في سرعة:

- «لا!»

ثم أطلق ضحكة عصبية وقال:

- «لماذا قد أريد أن أنظر إلى حذائك؟»

ثم إنه حكَّ جبينه كأنما يستمد منه الذكريات، وواصل قصته:

- «نال البُعبُع منها أيضًا بعد شهر، لكن شيئًا حدث قبل هذا: سمعت ضجة في غرفتها ذات ليلة ثم سمعتها تصرخ. كان المصباح السهَّاري مضاءً، ففتحت باب غرفتها بسرعة شديدة.. كانت جالسة في فراشها تبكي و.. ولمحت شيئًا يتحرَّك في الظلام المحيط بالخزانة، لمحت شيئًا يتسحَّب.»

- «هل كان باب الخزانة مفتوحًا؟»

لعق لستر شفتيه وقال:

- «قليلًا، مجرَّد فتحة صغيرة. كانت شيرل تصرخ باسم البُعبُع، وبكلمة أخرى بدت لي كــ(المخالب). هُرعت ريتا إلى الغرفة وسألت عما حدث، فقلت لها إن الفتاة خافت من ظلال فروع الشجر خارج النافذة التي تتحرَّك على السقف.»

- «الخزانة؟»

- «ماذا؟»

- «ربما كانت تحاول أن تقول (الخزانة)، لا (المخالب).»

- «ربما... ربما كانت تحاول قول هذا، لكنني واثق بأنني سمعتها مخالب.»

عادت عيناه إلى باب الخزانة مرة أخرى، وتحوَّل صوته إلى همسٍ وهو يردف:

- «مخالب... مخالب طويلة.»

- «هل بحثت داخل الخزانة؟»

- «أجل.»

- «هل كان هناك شيء بداخلها؟ هل رأيت الـــ...»

صرخ لستر فجأة مقاطعًا إياه:

- «لم أر شيئًا!»

ثم بدا وكأن أحدهم انتزع سدادة روحه إذ اندفع قائلًا بسرعةٍ لاهثة:

- «عندما وجدها كان لونها أسود، أسود تمامًا. لقد ابتلعت لسانها وكانت سوداء كالزنوج. وعيناها..عيناها بدتا لامعتين كالرخام الحي. كانتا تقولان لي: لقد نال مني يا أبي. لقد سمحتَ له بالنيل مني. لقد قتلتني. لقد ساعدته على قتلي.»

تثاقلت كلماته، وجرت دمعة صامتة على وجنته.

- «الأطفال يصابون بالتشنُّج الدماغي أحيانًا. قال لنا من قام بالتشريح إنها اختنقت بلسانها بفعل التشنُّج. عدت إلى المنزل وحدي لأن ريتا كانت نائمة بفعل المهدئ الذي أعطوها إياه. عدت إلى المنزل وحدي وأنا أفكِّر أن الأطفال لا يصابون بالتشنُّج من تلقاء ذاتهم، بل

عليك أن تخيفهم حتى الموت ليحدث هذا. عدت إلى المترل وحدي ونمت على الأريكة وقد تركت النور مضاءً.»

- «هل حدث شيء؟»

- «شاهدتُ حلمًا. كنت في غرفةٍ مظلمة وكان هناك شيء لم أستطع رؤيته داخل الخزانة. كان يصدر صوتًا... صوت سحق أو هرس. ذكّرني هذا بقصة مصوَّرة قرأتها وأنا طفل. كان اسمها (حكايات من السرداب). هل تذكرها؟ كان هناك رجل اسمه جراهام يستطيع رسم أي شيء في العالم. في هذه القصة كانت هناك امرأة أغرقت زوجها. وضعت قدميه في كتلتين من الأسمنت وأغرقته في بحيرة... لكنه عاد. كان متعفّنًا، لونه أخضر وأسود وقد التهمت الأسماك إحدى عينيه والطحالب تكسو شعره. عاد الزوج وقتلها... وعندما استيقظتُ في منتصف الليل أحسستُ بأن ذلك الكائن كان مائلًا عليَّ وأنا نائم بمخالبه... بمخالبه الطويلة.»

نظر الدكتور هاربر إلى الساعة الرقمية الموضوعة على مكتبه. كان لستر بيلينجز يتحدَّث منذ نصف الساعة تقريبًا الآن. سأله الطبيب:

- «عندما عادت زوجتك إلى المترل، كيف كانت تصرُّفاتها تجاهك؟»

أجاب لستر في فخر:

- «كانت لا تزال تحبني وتطيع أوامري. هذا هو دور الزوجة، أليس كذلك؟ ترهات حرية المرأة تلك لا تتسبَّب إلا في مرضهن. أهم شيء في الحياة أن يعرف المرء دوره، أن يعرف... يعرف...»

- «موقعه في الحياة؟»

طرقع لستر إصبعيه وقال:

- «بالضبط! يجب أن تتبع الزوجة زوجها. كانت شاحبة طوال الأشهر الأربعة أو الخمسة التي تلت الحادث. لم تكن تُغنِّي أو تضحك أو تشاهد التليفزيون، لكنني كنت أعرف أنها ستتحسَّن.»

ثم أضاف بلهجةٍ كئيبة:

- «ريتا أرادت طفلًا آخر. قلت لها إنها فكرة سيئة؛ ليس إلى الأبد، ولكن لفترةٍ على الأقل. قلت لها إن الوقت قد حان لأن نبدأ من جديد ونستمتع معًا بالحياة، فالفرصة لم تسنح لنا بفعل ذلك من قبل قط. إذا أردت الذهاب لمشاهدة فيلم، عليك معاناة الأمرين للعثور على جليسة أطفال. لا يمكنك الذهاب إلى المدينة لمشاهدة مباراة البيزبول ما لم يقبل والداها العناية بالطفلين، لأن أمي لا تريد أن تكون لها علاقة بنا، حتى أنها رفضت أن تحضر الزفاف.»

نقر بأصابعه على صدره وهو يواصل:

- «طبيب ريتا أعطاها مانعًا للحمل، لكنها بعد عام حملت مرة أخرى.»

قال الطبيب:

- «موانع الحمل تعمل بنسبة 98% فقط.»

- «وربما لا تعمل على الإطلاق إذا لم تستخدمها.»

- «يجوز.»

- «ثم إذا بها تحيك ملابس صغيرة وتلتهم المخلل كالمسعورة، ثم تُلقي بنفسها بين ذارعيَّ قائلة شيئًا عن إرادة الله.»

- «هل جاء الطفل بعد عامٍ من موت شيرل؟»

- «هذا صحيح. سمته أندرو لستر بيلينجز. لم أرد أن تكون لي علاقة به، في بادئ الأمر على الأقل. أصبح شعاري في الحياة أنها هي التي تسبَّبت في مجيئه، إذن فلتتحمل هي مسؤوليته. أعرف كيف يبدو وقع هذا، إنما يجب أن تتذكَّر أنني مررت بالكثير. على أن قلبي حنَّ إليه. كان الوحيد بين الثلاثة الذي يشبهني. ديني كان يشبه أمه وشيرل لم تكن تشبه أحدًا سوى جدتي ربما. أما أندي فقد بدا كصورةٍ طبق الأصل مني. اعتدت اللعب معه بعد عودتي من العمل. كان يمسك بإصبعي ويقرقر ضاحكًا. كان عمر الطفل تسعة أسابيع، ومع ذلك يضحك كأبيه. هل تُصدِّق هذا؟

وذات ليلة تجدني خارجًا من متجر الألعاب حاملًا دمية في يدي. أنا! الأطفال لا يُقدِّرون الهدايا حتى يصلون إلى السن التي يستطيعون فيها قول شكرًا. كان هذا دومًا شعاري في الحياة. لكن ها أنا ذا

أشتري له لعبة سخيفة، ومن حيث لا أحتسب أكتشف أنني أحبه أكثر من أيِّ شيءٍ في الدنيا. كنت قد حصلت على عملٍ آخر جيد وقتها، وعندما أصبح عمر أندي عامًا انتقلنا إلى ووتربيري. المنزل القديم كان يحمل الكثير من الذكريات السيئة.. والكثير جدًّا من الخزائن...

كان العام التالي هو الأفضل علينا جميعًا. يمكنني التخلّي عن كل إصبع من يمناي ليعود من جديد. كانت الحرب في ڤيتنام لا تزال مستمرَّة، والهيبيز يركضون عرايا في الشوارع، والزنوج يصرخون كثيرًا، لكن لا شيء من ذلك مسَّنا. كنا نقطن في شارعٍ هادئ يسكنه جيران مهذبون. كنا سعداء. سألتُ ريتا مرة إن كانت قلقة. تعرفُ أن الحظ السيء يأتي ثلاثًا. قالت إن ذلك لا ينطبق علينا. قالت إن أندي كان مختلفًا.»

نظر لستر مرة أخرى إلى السقف حيث ترتسم ذكرياته وتابع:

– «لم يكن العام الماضي جيدًا. شيء ما في المنزل قد تغيَّر. بدأت أضع أحذيتي في الردهة لأنني لم أعد أحبِّذ فتح باب خزانة الأحذية. جعلتُ أفكر: حسن، ماذا لو كان جاثمًا بالداخل، يتربَّص بي إلى أن أفتح الخزانة لينقض عليَّ؟ وبدأت أفكر في أنني أسمع صوت سحق أو هرس، كأن شيئًا مبتلًّا أسود وأخضر يتحرَّك بالداخل.

سألتني ريتا إن كنت أبذل جهدًا إضافيًّا في العمل، وبدأت أنا أضربها من جديد، تمامًا كما في الأيام الخوالي. كان تركهما وحدهما يصيبني بقلقٍ عارم، لكن خروجي من المنزل كان يريحني. بدأت أفكِّر في أنه فقد أثرنا لفترة عندما تركنا منزلنا القديم. كان عليه أن يبحث عنا، ينسل في الشوارع ليلًا وربما يزحف في البالوعات. استغرقه الأمر عامًا، لكنه عثر علينا في النهاية. لقد عاد ويريد أندي ويريدني. بدأت أفكِّر في أنك لو أخذت تفكِّر في شيءٍ ما لفترةٍ طويلة وآمنت بأنه حقيقي، فسيصبح حقيقيًّا. لعل كل الوحوش التي أخافتنا ونحن صغار–فرانكنشتاين والرجل الذئب والمومياء– لعلها كانت كلها حقيقية... حقيقية كفاية لتقتل الأطفال الذين كان يجب أن يلقوا مصرعهم بالسقوط في حفرة أو بالوعة ولا يُعثَر عليهم أبدًا. ربما...»

– «هل تحاول تجنُّب قول شيء يا سيد بيلينجز؟»

لاذ لستر بالصمت لوقتٍ طويل– دقيقتانِ انقضتا حسب الساعة الرقمية على المكتب، ثم قال في خشونة:

– «مات أندي في فبراير. لم تكن ريتا موجودة وقتها. كانت قد تلقَّت اتصالًا من أبيها الذي قال إن أمها تعرَّضت لحادث سيَّارة في اليوم التالي لعشية العام الجديد، ولا يبدو أنها ستعيش.»

لعق شفتيه ثم أكمل:

- «كان الطفل نائمًا معي في الغرفة. من السخرية أن ريتا سألتني وهو في الثانية من عمره إن كنتِ أريد نقله إلى غرفةٍ أخرى، لكنني رفضت. كنت خائفًا عليه بعد ما حدث لديني وشيرل.»

- «لكنك نقلته رغم ذلك، أليس كذلك؟»

ابتسم لستر ابتسامة صفراء سقيمة وقال:

- «أجل، نقلته.»

وساد الصمت مرة أخرى، وبدا أن لستر يصارعه قبل أن يقول فجأة في حدة:

- «كان يجب أن أفعل! كان يجب أن...»

توقف وأدار عينيه إلى هاربر قائلًا بابتسامة وقحة:

- «لن تُصدِّق ما حدث. تظنني مجرد معتوه آخر من معاتيهك، لكنك لم تكن هناك لترى أيها الأبله. ذات ليلة انفتح كل باب في المنزل من تلقاء ذاته، وذات صباح استيقظت لأجد آثار وحلٍ وقذارة عبر الردهة بين الباب الرئيس وباب خزانة المعاطف. هل كان داخلًا أم خارجًا؟ لا أدري! أقسم بالله إنني لا أدري! اسطوانات الموسيقا كلها كانت مخدوشة ومغطّاة بالطين اللزج، المرايا كلها كانت محطمة... والأصوات... الأصوات...»

مرَّر يده في خصلات شعره وهو يتابع:

- «تستيقظ في الثالثة صباحًا وتنظر إلى الظلام. تقول في البداية لنفسك إنه صوت الساعة فحسب، لكنك تحت ذلك الصوت تسمع صوت شيءٍ يتحرَّك في خفة. ليس بخفة تامة لأنه يريدك أن تسمعه... صوتًا يشبه مخالب تحك درابزين السلم. تُغلق عينيك وأنت تعرف أن سماعه سيء كفاية، لكن رؤيته... ودائمًا تخشى أن يتوقَّف الصوت قليلًا، لأن ما ستسمعه بعدها هو ضحكة تصحبها الأنفاس العفنة على وجهك قبل التفاف اليدين على عنقك.»

عندما وصل إلى هذه النقطة كان شاحبًا ويرتجف كالورقة.

- «لذا نقلته إلى الغرفة الأخرى. كنت أعرف أنه سيذهب إليه لأنه أضعف؛ ولقد فعل في الليلة ذاتها. صرخ أندي في قلب الليل، وعندما هُرعت إليه، وجدته واقفًا في سريره يصرخ: البُعبُع يا أبي... البُعبُع!»

أصبح صوته غريبًا كصوت الأطفال، وبدت عيناه كأنهما تملآن وجهه، وبدأ كأنه ينكمش على الأريكة.

- «لكنني لم أستطع أخذه معي.. لم أستطع..بعد ساعة سمعت صرخة شنيعة. عرفت عندها كم أحببته، لأنني جريت إليه بسرعة الصاروخ. جريت وجريت... لقد نال منه هو الآخر بحق العذراء... كان يهزه، يهزه كما تهز غسالة الملابس قطعة من القماش. لم أستطع رؤية شيء إلا كتفين مرتخيتين ورأس كخيال الظل مع الرائحة العفنة التي ملأت الغرفة وسمعت...»

شهق وهو يكمل:

- «سمعت صوت عنق أندي وهو ينكسر.»

- «ثم ماذا حدث؟»

قال لستر بصوتٍ باردٍ ميت:

- «ركضتُ. ذهبتُ إلى مطعمٍ ليلى. ما رأيك في هذا الجبن التام؟ ذهبت إلى مطعمٍ ليلى وشربت ستة أقداح من القهوة، ثم عدت إلى المترل. كان الفجر قد طلع بالفعل. اتصلت بالشُّرطة قبل أن أصعد إلى غرفته. كان ملقًى على الأرض، عيناه الميتتان ترمقاني بنظرة اتهام، بينما نزلت قطرة دم واحدة من كل أذن. باب الخزانة كان مفتوحًا، لكن مجرَّد فتحة صغيرة.»

ثم صمت. نظر هاربر إلى الساعة الرقمية ليجد أن خمسين دقيقة قد مرَّت. قال له:

- «أريدك أن تحدِّد ميعادًا مع الممرضة. هل يناسبك الثلاثاء أم الخميس؟»

قال لستر:

- «جئت فقط لأحكي قصتي، لأزيح هذا الحمل عن صدري. لقد كذبت على الشُّرطة، أخبرتهم أن الطفل لا بد وأنه حاول الترول

من المهد ليلًا فسقط ليدق عنقه... وابتلعوا هم الكذبة بالطبع لأن المشهد بدا كذلك بالضبط. لكن ريتا... ريتا عرفت في النهاية.»

وحجب عينيه بذراعه وانفجر باكيًا. صمت الدكتور هاربر قليلًا ثم قال:

– «سيد بيلينجز، هناك الكثير لنتحدَّث عنه. أنا واثق بأننا نستطيع تخفيف إحساسك بالذنب، لكن عليك أولًا أن ترغب في التخلُّص من هذا الإحساس.»

أزاح لستر ذراعه عن عينٍ حمراء جافة جريحة وصاح:

– «ألا تظنني أريد التخلص منه؟»

قال الطبيب في هدوء:

– «ليس بعد. الثلاثاء أم الخميس؟»

بعد صمت طال غمغم لستر:

– «تبًّا! ليكن.»

– «حدِّد موعدًا مع الممرضة يا سيد بيلينجز وطاب يومك.»

أطلق لستر ضحكة فارغة وغادر المكتب بخطواتٍ سريعة دون أن ينظر خلفه.

لم تكن الممرضة موجودة على مكتبها. عاد لستر إلى مكتب الطبيب قائلًا:

- «دكتور هاربر، ممرضتك ليست...»

كانت الغرفة خالية...

لكن باب الخزانة كان مفتوحًا...

مجرَّد فتحة صغيرة...

«جميل، جميل.»

جاء الصوت من الخزانة كأنه يأتي من فم مليء بالطحالب العفنة. تسمَّر لستر في مكانه وشعر بالمياه الدافئة تُبلل نصفه الأسفل بينما انفتح الباب على مصراعه في عنف.

«جميل، جميل.»

قالها البُعبُع وهو يخرج من الخزانة بخطوات بطيئة وهو لا يزال يحمل قناع وجه الدكتور هاربر بيده الخضراء السوداء ذات المخالب.

***



على سبيل الاحتياط



دعني أقول لك إن هذه ليست أداةً يمكنها أن تُلهمك بكتابة أغاني المهد. أتطلّعُ إلى بلطة الجليد – تلك التي يستخدمونها في تسلُّق جبال الجليد– ولا أجد نفسي أفكِّر في شيءٍ إلا القتل. أحملها إلى المرأب وألتقط قطعةً سميكةً من الخشب، وأهوي عليها بطرف البلطة المستدَق محاولًا ألا أتخيَّل السهولة التي يمكن أن يخترق بها هذا الطَرف نفسه جمجمةً بشريَّةً حتى ينفذ إلى المادة الرماديَّة تحتها. أسمع صوت الضربة الثابت المُرضي، فأفكِّر أن الأدوات من عينة أجهزة الصدمة الكهربية وعُلب رذاذ الفلفل ونجوم النينجا المعروضة في نافذة محل الرهونات القريب تبدو كلعب الأطفال مقارنةً بهذه. يمكنك أن تُحدث كثيرًا من الأذى بهذه الأداة الصغيرة، أذى حقيقيًّا مروِّعًا.

الطرف المستدق مشحوذٌ بطول الرأس وله نهاية مدبَّبة، ثم إنه مسنَّن من أسفل، غالبًا لمنعه من الانزلاق بمجرَّد أن يخترق الجليد. أنظر إلى الشقوق التي أحدثتها البلطة في الخشب، فلا أستطيع منع

نفسي من تخيُّلها في جسدٍ بشري، وأظل أتصوَّر البلطة وهي تهوي على صدرٍ أو بطنٍ أو رأسٍ. أظل أتخيَّلها مدفونةً عن آخرها في مؤخرة عنق أو محجر عين.

تبًّا! لا شكَّ أنني أمريكي مريض حقًّا...

وربما لا أكون كذلك، فككثيرٍ من الأدوات الأخرى التي تخطر على العقل -المطارق، المفكات، الحفَّارات، المثاقب، الأزاميل- تملك بلطة الجليد هذه نوعًا من السِّحر الجهنمي، نوعًا من جمالٍ كئيبٍ به صلابةٌ لا تُضاهَى، يكاد لا يفهمهما سوى المصابين بالاضطرابات العصبيَّة. لكن تطلَّع إليها وسترى أن لا جزءَ منها لا يمكن استخدامه، بدايةً من القاعدة المنحوتة الخشنة، مرورًا بالحزام الجلدي الذي يُلف حول المعصم، ونهايةً بطرفها المدبَّب. لست واثقًا من كنه الشيء الموجود على الطرف الآخر رغم ذلك، الشيء الذي يشبه فتَّاحة الزجاجات، لكنني متأكِّد من أن له غرضًا واضحًا ما يفهمه ويستغله هؤلاء الذين يتمتَّعون بالعزم الكافي (والجنون الكافي في الواقع) للمخاطرة بتسلُّق جبال الجليد.

يدفعني هذا إلى استنتاجٍ جديد، فما أشعر به حقًّا وأنا أحمل هذه البلطة ليس إمكانية القتل بها بقدر ما هو جاذبية الأشياء الفانية. إنها تُحدِّثني عن ضعف اللحم البشري، لكن أيضًا عن مرونة وقوة العقل البشري. أضعها على مكتبي وأسمعها تهمس لي:

– «إذا احتجتني سأكون موجودة. إذا أردت أن تشنق نفسك ويظل جسدك الثقيل معلّقًا بي فلن أخذلك، بشرط أن تغرزني جيدًا.»

لست أخطّط لأن أذهب في رحلة تسلُّق لأنني أصاب بالدوار من مجرَّد الصعود أعلى السلالم، لكني أحتفظ رغم ذلك بالبلطة تحت فراشي كلّ ليلة.

ولِمَ لا؟ لا أحد يدري متى قد يحتاج إلى أداةٍ فعَّالةٍ كهذه، أداةٍ قد تصنع كلّ الفارق بين الحياة والموت.

***

أنشودة الپارانويا



لم أعُد أستطيع الخروج

فثمَّة رجل على الباب

يرتدي معطف المطر

ويُدخِّن سيجارة

لكن...

قد كتبتُ عنه في دفتر اليوميَّات

والدفاتر كلها هنا، مصفوفة على فراشي

دامية اللون وقد اصطبغت بضوء لافتة البار المجاور

هو يعرف أنه إذا متُّ

(أو حتى اختفيتُ عن الأنظار)

ستذهب الدفاتر كلها إلى الــCIA في ڤيرچينيا

إن معي 500 مظروف اشتريتها من 500 محل، لا يشبه أحدها الآخر

و500 دفتر في كلٍّ منها 500 صفحة

أنا مستعد

أستطيعُ رؤيته من هنا

ها هي ذي سيجارته تومض من فوق ياقة معطفه

وفي مكانٍ ما هناك رجل في المترو يجلس تحت إعلان البيرة ويُفكِّر في اسمي

ورجال تناقشوا في أمري في الحُجُرات الخلفيَّة

وإذا رنَّ الهاتف لا أسمعُ إلا أنفاسًا ثقيلة

في البار المجاور هناك من أعطى مسدسًا لآخر في حمَّام الرجال

كل رصاصة فيه عليها اسمي

واسمي مكتوبٌ في ملفاتٍ سريَّة

ويبحثون عنه في المشرحة

وثمَّة من تحرَّى عن أمي

فالحمد لله أنها ميتة

هل قلتُ لكِ إن أخي معهم؟

إن زوجته روسية، ولا يكف عن أن يطلب مني أن أملأ أوراقًا ما

اسمعي...

اسمعي...

اسمعي هذا...

يجب أن تسمعي

في محطة الأتوبيس تحت المطر

غربان سوداء تحمل مظلات سوداء تتظاهر بالنظر إلى ساعاتها

لكن ليس هناك مطر يترل، وعيوهم كالدولارات الفضيَّة

وثمَّة بعض الطلبة يتلقُّون أجرًا من الــFBI، ومعظمهم من الأجانب الذين تضج بهم شوارعنا

لكني خدعتهم ونزلتُ في محطةٍ مختلفة

حيث لمحتُ سائق تاكسي يراقبني من تحت الجريدة

في الغرفة التي تعلوني امرأة عجوز

ألصقَت جهاز التنصُّت بالأرض

ليُطلق أشعةً مميتةً من مصباح السقف

والآن أكتبُ في الظلام على وهج لافتة البار

وأقول لكِ إنني أعرف

لقد أرسلوا لي كلبًا مُرقَّطًا

يحمل جهاز تجسُّس من خيوط العنكبوت في أنفه

فأغرقته في الحوض ودوَّنتُ هذا في الدفتر

لم أعد أفتح صندوق البريد

إنه مليء بالرسائل الملغَّمة

(ابتعدوا عني، تبًّا لكم! إني أعرف أناسًا طوالًا! أقول لكم إني أعرف أناسًا طوالًا!)

أرضية المطعم مبطَّنة بالأصوات

والساقية تقول إنها ناولتني مِلحًا، لكنني أعرف الزرنيخ عندما يوضع أمامي

ومذاق الخردل الأصفر عندما يحجب رائحة اللوز المُر

رأيتُ أضواءً غريبةً في السماء

وليلة أمس زحف رجل بلا وجهٍ في المجاري وخرج من مرحاضي

ليتنصَّت على مكالماتي بأذنين من الكروم

وأقولُ لكِ إنني أسمع

وقد رأيتُ بصمات رأسه على الجدران

لم أعُد أردِ على الهاتف

هل أخبرتكِ بهذا؟

إنهم يُخطِّطون لإغراق الأرض بالوحل

ويُخطِّطون للاقتحام

لديهم أطباء يُبشِّرون بأوضاعٍ جنسيَّةٍ غريبة

ويصنعون أدويةً للمعدة تُسبِّب الإدمان

وفتائل تحرق

ويعرفون كيف يُخمدون الشمس

أضعُ نفسي في حَمَّامٍ من الثلج يُضلِّل أشعتهم تحت الحمراء

وأردِّدُ الترانيم وأرتدي التعاويذ

تحسبون أنكم أوقعتم بي، لكني أستطيع تدميركم في أيِّ لحظةٍ الآن

في أيِّ لحظةٍ الآن

في أيِّ لحظةٍ الآن

هل تريدين بعض القهوة يا حبيبتي؟

هل قلت لكِ إنني لم أعد أستطيع الخروج؟

إذ ثمَّة رجل على الباب

يرتدي معطف المطر

ويُدخِّن سيجارة

***

الأشياء التي تركوها وراءهم



الأشياء التي أريدُ أن أحكي لك عنها -تلك الأشياء التي تركوها وراءهم- ظَهَرَت في شقّتي في أغسطس 2002، وأنا متأكّد من التوقيت لأنني وجدها بعد أن ساعدتُ پولا روبسون في إصلاح مكيِّف الهواء بفترةٍ قصيرة. تحتاج الذاكرة دائمًا إلى نقطة ارتكاز يمكنك بدء السَّرد منها، وهذه هي نقطة الارتكاز الخاصَّة بي. كانت پولا رسَّامة لكُتُب الأطفال، حسناء -بل فاتنة في الواقع- ولها زوج يعمل في الاستيراد والتصدير. دائمًا ما يتمكّن الرجل من تذكُّر المناسَبات المختلفة عندما ترتبط باستطاعته مساعدة امرأة جميلة تمر بمأزقٍ ما (حتى إذا ظلّت تؤكّد لك أنها متزوِّجة جدًّا)؛ ومناسَبات كتلك لا تأتي إلا لمامًا كما تعرف. تذكّر أن محاولات ادعاء الشهامة والفروسيَّة لا تُفضي إلا لأسوأ النتائج طرًّا في أيامنا هذه.

كنت قد رأيتها في لوبي البناية التي أسكنها وقد بدا عليها السُّخط، عندما نزلت من شقّتي لأتمشّى بعد الظُّهر كما هي العادة،

فألقيت عليها تحيَّة عابرة كما يفعل الجميع مع جيرانهم. سألَتني بنبرةٍ حانقة تقترب من حافة الانفجار عن سبب أخْذ مشرف الصيانة بالبناية إجازته الآن بالتحديد، فأشرت إلى أنه حتى راعيات البقر يُصَبن بالحزن، وأن مشرفي المباني يأخذون إجازاتٍ أحيانًا، وأن شهر أغسطس بالذات مناسب للغاية للإجازات. أغسطس في نيويورك (وفي باريس يا مونامي) يجعلك ترى القليل جدًّا من المحلِّلين النفسيين والفنَّانين العصريين ومشرفي المباني.

لم تبتسم، ولا أعتقد حتى أنها فهمت ما اقتبسته عن لسان توم روبينز (يبدو أن الكلام غير المباشر هو لعنة عشَّاق القراءة حقًّا). قالت إنني قد أكون محقًّا في أن أغسطس وقت منطقي لحزم الأمتعة والذهاب في إجازةٍ على الشاطئ، لكن المشكلة أن شقَّتها اللعينة تكاد تشتعل من الحَر ومكيِّف الهواء اللعين يرفض العمل تمامًا. سألتها إن كانت ترغب في أن ألقي نظرةً عليه بنفسي، وأذكر الطريقة التي رمقَتني بها هاتين العينين الرماديتين الباردتين كأنها تحاول سبر أغواري. أذكر أنني قلت لنفسي إن عينين كهاتين قد رأيتا الكثير لا ريب، وأذكر أنني ابتسمت عندما سألَتني إن كنت مأمون الجانب. ذكَّرني سؤالها بذلك الفيلم. لا، ليس (لوليتا)، فلم يكن وقت التفكير فيه في الثانية صباحًا قد جاء بعد، بل الفيلم الذي يقوم فيه لورنس أوليفييه بالعمل بارتجال على أسنان داستن هوفمان، سائلًا إياه مرَّة تلو الأخرى إن كان ما يفعله مأمونًا.

قلت في كياسة:

- «لا تقلقي، فلم أهاجِم أيَّ امرأةٍ منذ أكثر من عامٍ كامل. قبلها كنت معتادًا على مهاجمة امرأتين أو ثلاث في الأسبوع، لكن العلاج النَّفسي بدأ يُساعدني.»

طبعًا هو قول طائش، لكني كنت في مزاجٍ حَسَن، في مزاجٍ صيفي على وجه التحديد. رمقتني بنظرةٍ فاحصةٍ أخرى قبل أن تلوح ابتسامة على وجهها وتمد يدها لتصافحني قائلة إن اسمها پولا روبسون. مدَّت لي يدها اليسرى، وهو الشيء غير المعتاد، لكنها كانت اليد التي تحمل خاتم زفافها الذهبي الكبير، ما أظنه كان لفتة متعمَّدة، ألا تعتقد هذا؟ في وقتٍ لاحق قالت لي إن زوجها يعمل في الاستيراد والتصدير. كان هذا في اليوم الذي حان فيه دوري لأن أطلب مساعدتها.

قلت لها في المصعد ألا تتوقَّع الكثير. إذا أرادت من يعثر لها على الأسباب الجوهريَّة لاندلاع أعمال الشَّغب الأخيرة في نيويورك، أو يحكي لها بعض النوادر عن لقاح الجُدَري، أو حتى يأتي لها ببعض الاقتباسات عن الآثار الاجتماعية المترتِّبة على جهاز التحكُّم عن بُعد الخاص بالتليفزيون (وهو أهم اختراع في الخمسين عامًا الماضية في رأيي المتواضع)، فأنا الشخص المطلوب.

سألتني ونحن في عربة المصعد البطيئة ذات الصوت المزعج:

- «إجراء الأبحاث هو لعبتك إذن يا مستر ستالي؟»

أجبت بالإيجاب، وإن لم أذكر أنني ما زلت جديدًا في هذا المجال، كما لم أطلب منها أن تُخاطبني باسمي سكوت مجرَّدًا من الألقاب، فقد كان هذا ليعيد إثارة قلقها من جديد، وبالتأكيد لم أذكر لها أنني أحاول أن أنسى كل ما تعلَّمته في حياتي عن أعمال شركات التأمين، أنني في الحقيقة أحاول أن أنسى أشياء كثيرة، منها حوالي دستتين من وجوه أناسٍ بأعينهم.

الحق أقول إنني أحاول أن أنسى، لكني ما زلت أذكر الكثير من التفاصيل.أعتقد أن هذا يحدث معنا جميعًا عندما نحاول التركيز على شيءٍ ما (وفي أحيانٍ أخرى عندما نحاول العكس، وهذا أسوأ). إنني أذكر حتى ما قاله واحد من روائيي أمريكا الجنوبية هؤلاء الذين ينتمون لمدرسة الواقعية السحريَّة، أتعرفهم؟ لا أذكر اسم الرجل، فهو لا يهم، لكن هذا القول: «في طفولتنا يأتي انتصارنا الأول مع القبض على قطعة صغيرةٍ من العالم، عادةً ما تكون أصابع أمهاتنا، وفي ما بعد نُدرك أن العالم وما يعج به من أشياء هو ما يقبض علينا طوال الوقت.» أهو بورخس؟ نعم، لعله هو. أم ربما ماركيز؟ لا أذكر حقًّا. ما أذكره أنني نجحت في إصلاح مكيِّف الهواء، وأن وجهها قد أشرق بابتسامة كبيرة عندما بدأ الهواء البارد في الخروج. أعرف أيضًا أن ما يقولونه عن الإدراك صحيح، وكيف يتبدَّل فنجد أن الأشياء التي اعتقدنا أننا نتحكَّم فيها هي ما يتحكَّم فينا من البداية. قد تجعلنا سجناء، لكنها تُبقينا في أماكننا كذلك. إنها مقايَضة، وأعتقد أنها

مقايَضة عادلة في الغالب. أو أنني كنت أعتقد ذلك وقتها، أما الآن فلا أدري.

وأعرف أن تلك الأحداث وقعت في نهاية أغسطس 2002، بعد عامٍ أو أقل قليلًا من اليوم الذي سقطت فيه قطعة من السماء ليتغيَّر كل شيء.

***

بعد أسبوعٍ تقريبًا من ارتداء السير سكوت ستالي درع البطولة وخوضه المعركة مع مكيِّف الهواء المخيف بنجاح، خرجت بعد الظُّهر لأتمشَّى حتى متجر الأدوات المكتبيَّة لأبتاع بعض الأوراق والأقلام، حيث كنت ملتزمًا بتسليم أربعين صفحة عن تطوير كاميرات البولارويد (وهو موضوع أكثر إثارةً للاهتمام مما تحسب). إثر عودتي لشقَّتي وجدت تلك النظَّارة الشمسيَّة ذات الإطارَ الأحمر وزوج العدسات المميَّز للغاية موضوعة في الردهة على الطاولة الصغيرة، التي أترك عليها الفواتير التي يجب عليَّ دفعها والشيكات التي يجب صرفها وإيصالات الكُتُب التي استعرتها وتأخَّرت في إرجاعها وما إلى ذلك من أشياء. تعرَّفت على النظَّارة في الحال، ولحظتها فرَّ كلُّ ما في جسدي من طاقة. لم أسقط، لكني أسقطت ما معي على الأرض وارتكنت إلى الباب محاولًا التقاط أنفاسي وأنا أحدِّق في النظَّارة في عدم تصديق. لو لم يكن هناك ما أرتكن إليه، فأعتقد أنني كنت لأترنَّح ثم أسقط فاقدًا الوعي، كما تفعل الفتيات كلهن في الروايات الفيكتورية التي يظهر فيها مصَّاص الدماء الشهواني دائمًا مع حلول منتصف الليل.

لحظتها شعرت بشيءٍ أقرب إلى الخِزي المذعور الذي ينتابك عندما تُدرك أن أحدهم على وشك أن يضبطك وأنت ترتكب فعلًا لن تتمكّن من تفسيره أبدًا؛ والذّكرى التي تراودني في هذا الشأن تخص شيئًا حدث لي -أو كاد يحدث- وأنا في السادسة عشرة من عمري.

كانت أمي وأختي قد ذهبتا للتسوُّق في پورتلاند والمنزل بأكمله لي وحدي حتى المساء، أو هذا ما حسبته. كنت مضطجعًا على فراشي وقد تجرَّدت من ملابسي كلها ولففت واحدًا من ثياب أختي الداخليَّة على قضيبي ونثرت على الفراش مجموعة من الصور العارية التي قصصتها من مجلات كنت قد عثرت عليها في ركنٍ من المرأب. كانت مجموعة مجلات (پنتهاوس) و(جاليري) الخاصَّة بمالك المنزل السابق على ما أعتقد. ثم إنني سمعت صوت محرِّك سيَّارتنا المميَّز يتوقَّف أمام المنزل، فأدركت أن أمي وأختي قد عادتا مبكرًا لسببٍ ما، واتَّضح أن پِج أصيبت بعلّةٍ ما -البرد ربما- وبدأت تقيء من نافذة السيَّارة. كانتا قد بلغتا پولاند سپرينجز فقط قبل أن تعودا أدراجهما.

نظرت إلى الصور المنثورة على الفراش وملابسي المُلقاة على الأرض والثوب الداخلي الوردي في يدي اليُسرى، وأذكر كيف تسرَّبت الطاقة كلها مني والإحساس الشنيع بالكلل الذي حلّ محلها. كانت أمي تنادي عليَّ من الطابق السُّفلي -«سكوت! سكوت! تعال وساعدني! إن أختك مريضة!»- وأذكر أنني قلت لنفسي لحظتها:

- «وما الفائدة؟ لقد افتضح أمري وعليَّ أن أتقبَّل هذا. افتضح أمري وسيظل أول شيء يرد في خاطرهما مرتبطًا بي ما حييت هو أنني سكوت فنَّان العادة السريَّة.»

لكن كثيرًا ما تتملَّكك غريزة البقاء في لحظات كتلك، وهذا ما حدث لي. قرَّرت أنني سأنزل لهما، لكني لن أفعل هذا دون أن أبذل بعض المجهود لحفظ كرامتي على الأقل. هكذا كوَّمت الصور والثوب الداخلي تحت الفراش ثم وثبت وثبًا في ملابسي مدركًا أنني أتحرَّك كالمخدَّر وقد أخذ يلح على خاطري برنامج الألعاب القديم (اسبق الساعة) الذي كنت قد اعتدت مشاهدته.

أذكر كيف تحسَّست أمي وجنتيَّ المحمرَّتين وقالت في قلق:

- «يبدو أنك مريض أيضًا.»

قلت شاعرًا بالسرور:

- «يبدو هذا.»

كان نصف ساعة قد مرَّ قبل أن ألاحظ أنني نسيت إغلاق زمام سروالي، لكن لحسن الحظ لم تلاحظ أمي أو بج هذا، على الرغم من أنه في مناسبة أخرى كانت إحداهما أو كلتاهما لتسألني إن كنت أحمل رُخصة لبيع الهوت دوج (وكان هذا هو نوع التعليقات الساخرة الذي اعتدنا عليه في بيتنا). في ذلك اليوم كانت إحداهما أكثر مرضًا

من أن تلاحظ والأخرى مشغولة بها فلم يكن هناك مجال للسخرية، وهكذا نجوت.

كم أنا محظوظ!

***

ما تبع موجة المشاعر الأولى في ذلك اليوم في أغسطس في شقّتي كان أبسط كثيرًا: خطر لي أنني في طريقي إلى الإصابة بالجنون، والسبب أن تلك النظّارة الشمسيَّة لا يمكن أن تكون هنا على الإطلاق. مستحيل تمامًا.

ثم إنني رفعت عينيَّ لأرى شيئًا آخر لم يكن في شقّتي بكل تأكيد عندما غادرتها قبل نصف ساعة (وقد أوصدت الباب ورائي كما أفعل دائمًا). في الرُّكن بين المطبخ الصغير وغرفة المعيشة رأيته مسنودًا إلى الجدار: مضرب بيزبول من طراز (هلريك آند برادزبي) كما تقول العلامة التجارية. ومع أنني لم أستطع رؤية جانبه الآخر من مكاني، فإنني كنت أعرف المكتوب عليه جيدًا: كلمة (مسؤول الدعاوى) المكتوبة حرقًا على المضرب المصنوع من خشب الدردار بواسطة مكواة لحام والملوَّنة بالأزرق الداكن.

لحظتها شعرت بموجة أخرى من المشاعر تضربني، وكانت عبارة عن رُعب خالص هذه المرَّة. إنني لا أعتقد في وجود الأشباح، لكنني واثق بأنني بدوت كمن رأى شبحًا لتوِّه؛ وهذا ما شعرت به أيضًا

بكلّ تأكيد، لأن نظّارة الشمس تلك لم تعد موجودة منذ شهورٍ طويلة، والشيء نفسه ينطبق على مضرب البيزبول الخاص بكليف فارل.

فعلت الشيء الوحيد الذي أمكنني التفكير فيه، فالتقطت نظّارة سونيا ديميكو وهرولت عائدًا إلى المصعد حاملًا إياها أمامي كما تفعل عندما تحمل شيئًا مقزّزًا عُدت لتجده على أرضيَّة شقّتك بعد أسبوعٍ قضيته في إجازة، كقطعةٍ عفنة من الطعام أو جثة فأرٍ مسموم. وجدت نفسي أتذكّر حوارًا عن سونيا بيني وبين زميلٍ اسمه وارن أندرسون.

– «لا بد أنها بدت كأنها ستثب واقفةً على قدميها مرَّة أخرى وتطلب الكوكا-كولا.» هذا ما فكّرت فيه عندما حكى لي ما رآه. كنا نتناول المشروبات في بار في ثيرد آڤنيو بعد ستة أسابيع تقريبًا من سقوط السماء، بعد أن تبادلنا الأنخاب وهنَّأ كلٌّ منا الآخر على نجاته من الموت.

تلك الأشياء لديها طريقة تظل بها ملتصقةً بذاكرتك سواءً رغبت في ذلك أم لا، كمقطوعةٍ موسيقيَّة تظل تتردَّد في عقلك ولا تستطيع التخلُّص منها. تستيقظ في الثالثة صباحًا شاعرًا بالحاجة إلى إفراغ مثانتك، تقف هناك أمام المرحاض، قضيبك في يدك وعقلك مستيقظ بالكاد، وعندها تتردَّد العبارة في ذهنك: «لا بد أنها بدت كأنها ستثب واقفةً على قدميها مرَّة أخرى وتطلب الكوكا-كولا.»

أثناء ذلك الحوار سألَني وارن إن كنت أذكر نظّارتها الشمسيَّة ذات الشكل الطريف، وقلت إنني أذكرها بالطبع.

***

كان پدرو البوَّاب واقفًا تحت مظلّة مدخل البناية يتجاذب أطراف الحديث مع رافي رجل البريد.

يتَّسم پدرو بالجديَّة الشديدة عندما يتعلّق الأمر بالسماح لعُمال التوصيل بالوقوف أمام البناية (والقاعدة التي وضَعها تنص على ألا تتجاوز فترة الوقوف هناك الدقائق السبع، وهي القاعدة التي يُطبِّقها بصرامة مستخدمًا ساعة الجيب التي يحملها معه دائمًا). كان جميع رجال الشُّرطة في المنطقة أصدقاءه، لكن ألفةً من نوعٍ خاص نشأت بينه وبين رافي بالذات، فكانا يقفان هناك أحيانًا لما يزيد على العشرين دقيقة يقضيانها في الثرثرة. فيم كانا يتحدَّثان؟ السياسة؟ البيزبول؟ الكتاب المقدَّس طبقًا لهنري ديڤيد ثورو؟ لا أدري، ولم أعر الأمر اهتمامًا قَط حتى ذلك اليوم. كانا واقفين هناك عندما صعدت حاملًا أوراقي وأقلامي، وكانا ما زالا هناك عندما نزل سكوت ستالي مرَّة أخرى بقلبٍ مثقَل؛ سكوت ستالِي الذي اكتشف ثُقبًا صغيرًا لكن ملحوظًا في جدار الواقع. مجرَّد وجودهما هناك كان يكفيني. اتَّجهت نحوهما رافعًا يدي اليمنى بنظّارة الشمس، ودون أن أشغل نفسي بالاستئذان لمقاطعتهما أولًا سألت پدرو مباشرةً:

- «ما هذه؟»

رمقني بنظرةٍ متمعِّنة وغمغم:

- «أنا مندهش حقًّا من وقاحتك يا مستر ستالي، حقًّا.»

ثم إنه نظر ليدي، وللحظة مرَّت عليَّ كالدَّهر لم يقل شيئًا، وعندها بدأت فكرة مخيفة في السيطرة على عقلي: إنه لم يرَ شيئًا في يدي لأنه لم يكن هناك ما يراه أصلًا. ليس هناك سوى يدي الممدودة كأنني أطلب منه أن يمنحني بقشيشًا. كانت يدي خاويةً بالتأكيد، لا شكَّ في هذا، لأن نظَّارة سونيا ديميكو هذه لم تعد موجودة منذ زمنٍ طويل.

قال بدرو أخيرًا:

- «إنها نظَّارة شمس يا مستر ستالي. هل يمكن أن تكون شيئًا آخر؟ أم أن هناك حيلة ما في سؤالك؟»

كان رافي رجل البريد أكثر اهتمامًا على ما يبدو، فأخذ مني النظَّارة، ودعني أقول لك إنّ الراحة التي اعترتني إذ رأيته ممسكًا بها يتفحَّصها كان لا يعادلها شيء، كأن يهرش أحدهم الجزء الذي تشعر فيه بالحكَّة بين لوحي كتفك بالضبط. خرج رافي من تحت المظلَّة رافعًا النظَّارة ذات العدستين اللتين اتخذتا شكل القلب في ضوء النهار وقال:

- «تشبه النظّارة التي ارتدتها الفتاة الصغيرة في فيلم البورنو إياه مع چيريمي أيرونز.»

ابتسمت رغمًا عني، فالجميع في نيويورك -حتى عمال التوصيل- نُقّاد سينمائيون، وهو أحد الأشياء التي أحبها في هذه المدينة.

قلت وأنا أستعيد النظّارة منه:

- «هذا صحيح، (لوليتا). لكن النظّارة ذات العدستين المشكّلتين كالقلب كانت في النسخة التي أخرجها ستانلي كيوبريك، عندما كان چيريمي أيرونز لا يزال مجرّد صعلوك.»

لم تحمل العبارة الأخيرة أيَّ معنى لي لكني لم أبالِ، وسألني راڤي:

- «من لعب دور المنحرف في تلك النسخة؟»

- «فلتحل بي اللعنة إن كنت أذكر.»

قال پدرو:

- «إذا سمحت لي يا مستر ستالي، إنك تبدو شاحبًا للغاية، كأنك تعاني من أعراض البرد أو ما شابه.»

كدت أقول إن أختي كانت هي المريضة بالبرد في ذلك اليوم الذي فصلَت فيه عشرون ثانيةً فحسب بيني وبين العثور عليَّ متلبِّسًا بالاستمناء في ثوبها الداخلي وأنا أنظر إلى صور ملكات الجمال العاريات.

لكنني نجوت يومها، تمامًا كما نجوت يوم 11 سبتمبر.

لا أستطيع الكلام بالنيابة عن وارن أندرسون، الذي قال لي في تلك الليلة في البار في ثيرد آفنيو إنه توقّف في الطابق الثالث في ذلك النهار ليتكلّم عن فريق اليانكيز مع أحد أصدقائه، لكن يبدو أن النجاة صارت من عاداتي.

قلت لپدرو إنني بخير، وعلى الرغم من أن هذا لم يكن صحيحًا، إلا أن معرفتي الآن بأنني لم أكن الوحيد الذي يرى نظّارة سونيا جعلتني أشعر بشيءٍ من التحسُّن. إذا كانت هذه النظّارة موجودة حقًّا، فالشيء نفسه ينطبق على مضرب كليف فارل غالبًا.

سألني رافي فجأةً بنبرةٍ تحمل الكثير من الاحترام:

– «أهذه هي النظّارة ذاتها التي كانت في نسخة (لوليتا) الأولى؟»

أجبت بالنفي وأنا أطوي النظّارة، وفي هذه اللحظة تذكّرت أن اسم الفتاة في النسخة التي أخرجها كيوبريك كان سو ليون، لكن اسم الممثل الذي لعب دور المنحرف ظلّ غائبًا عن ذاكرتي.

– «مجرّد تقليد رخيص.»

– «هل هناك شيء يُميِّزها إذن؟ ألهذا السبب وجدناك تهرع إلينا هنا؟»

– «لا أدري. لقد تركها أحدهم في شقّتي.»

صعدت إلى شقّتي مرّة أخرى قبل أن يُلقيا المزيد من الأسئلة، ونظرت حولي آملًا ألا أجد المزيد من الأشياء.

على أني وجدت المزيد من الأشياء طبعًا. بالإضافة إلى نظّارة الشمس ومضرب البيزبول، وجدت واحدةً من تلك الوسائد التي تُصدر صوت إخراج ريح وتُستخدم في الدعابات، بالإضافة إلى محارةٍ من التي تنفخ فيها فتُخرج نغماتٍ موسيقية، وبنس معدني معلّق في مكعَّب زجاجي، وقطعة من السيراميك على شكل نبتة فطر ذات نقاطٍ حمراء تجلس عليها أليس (بطلة أليس في بلاد العجائب).

كانت الوسادة ملكًا لجيمي إيجلتون، وكان لها حضور لا بأس به في حفلات الكريسماس كل عام. أليس السيراميكية كانت مكانها مكتب مورين هانون، وقد أخبرَتني مورين ذات مرّةٍ أنها كانت هدية من حفيدها. كانت مورين تملك أجمل شعرٍ أبيض يمكنك أن تراه على الإطلاق، وكانت تطيله حتى خصرها. من النادر أن ترى هذا في عالم الأعمال، لكنها كانت قد قضت نحو أربعين عامًا في الشركة، وكان رأيها أنها تستطيع أن تفعل بشعرها كما ترغب الآن. كنت أذكر البنس والمحارة كذلك، لكن الذاكرة لم تُسعفني باسمي صاحبيهما وفي أيِّ المكاتب كانا. قد أتذكّر لاحقًا وقد لا أفعل، فقد كانت المكاتب كثيرة في شركة التأمين إياها.

وجدت المحارة والمكعَّب وأليس على الطاولة الصغيرة في غرفة المعيشة وقد وُضعوا بنظام، أما الوسادة فقد وجدتها على مقعد المرحاض (وهل يمكن أن توضع في مكانٍ آخر؟) إلى جوار نشرة أخبار شركات التأمين. هل قلت لك إن التأمين كان تخصُّصي؟ أعتقد أني فعلت.

كانت الاحتمالات هي لعبتي ذات يوم، فما هي الاحتمالات المتعلِّقة بما يحدث الآن؟

***

عندما تحدث مشكلة ما في حياتك وتجد نفسك راغبًا في الكلام عنها، فإن أول فكرة تراودك هي أن تتَّصل بأحد أفراد عائلتك. لم يكن هذا الخيار مطروحًا أمامي، فقد رحل أبي عن بيتنا ولم يعُد قَط عندما كنت في الثانية وأختي في الرابعة، وقد تحمَّلت أمي الألم وربَّتنا وحدها أثناء ممارسة بيع المشغولات اليدويَّة عن طريق البريد. كان عملًا لا بأس به يدر علينا دخلًا معقولًا (وإن كانت قد ذكرت لي لاحقًا أن السنة الأولى كانت مخيفة حقًّا). كانت أمي تُدخِّن كقطارٍ قديم، ولولا وفاتها بسرطان الرئة في سن السادسة والأربعين لكانت قد أصبحت مليونيرة لو استغلَّت الإنترنت في التسويق لمنتجاتها. فقط سبقت وفاتها ظهور الإنترنت بستٍّ سنواتٍ تقريبًا.

أما أختي بج فتعيش في كليڤلاند، حيث أصبحت حياتها تتمحور حول مستحضرات التجميل والهنود الحُمر والتعصُّب الديني (دون ترتيب). إذا اتَّصلت ببج وحكيت لها عن الأشياء التي وجدتها في شقّتي، لاقترحت أن أجثو على ركبتيَّ وأدعو أن يدخل المسيح حياتي، وسواءً كانت النتيجة مضمونة أم لا، فلا أعتقد أن المسيح يمكنه مساعدتي في مشكلتي الحالية كثيرًا.

كنت أملك عددًا معقولًا من الأقارب، لكن أغلبهم يعيش غرب نهر المسيسيبي ولم أرَ أيهم منذ سنواتٍ طويلة. لم يكن آل كيليان - أقربائي من جانب الأم- أكثر الناس ودًّا في العالم، وفي رأيهم كان إرسال بطاقة بريدية في أعياد الميلاد والكريسماس يُغني عن جميع الواجبات العائليَّة الأخرى، وإذا تلقَّيت واحدةً في الڤالانتاين أو عيد الفصح فإن هذا يُعد كرمًا مبالَغًا فيه. كنت أتَّصل بأختي في الكريسماس أو تتَّصل بي فنتبادل الهراء المعتاد عن لقاءٍ قريب لا يتم أبدًا، ثم يضع كلٌّ منا السمَّاعة شاعرًا بما أعتقد أنه راحة متبادَلة.

الخيار التالي في القائمة أن تدعو صديقًا مقرَّبًا لاحتساء المشروبات وتشرح له الموقف ثم تطلب نصيحته، لكني لطالما كنت ولدًا خجولًا كبر ليصبح رجلًا خجولًا، كما أن وظيفتي البحثيَّة الحالية تجعلني أعمل وحدي (بناءً على طلبي) وليس لديَّ زملاء من الممكن أن تتطوَّر علاقتي بواحدٍ أو أكثر منهم ليصبح صديقًا.

كان لي عدة أصدقاء في عملي القديم -وسونيا ديميكو وكليف فارل كانا اثنين منهم- لكنهم ماتوا جميعًا بالطبع.

***

فكّرت أنه إذا لم يكن لديك صديق يمكنك أن تتكلّم معه، فإن أفضل خيارٍ لديك أن تستأجر صديقًا.

يمكنني بالتأكيد تحمُّل تكلفة العلاج النَّفسي، وخطر لي أن بضع جلسات على أريكة طبيبٍ نفسيٍّ ما (أربع جلساتٍ مثلًا) قد تكون كافيةً لأن أشرح ما حدث وأبيِّن كيف جعلني أشعر في وضوح. كم ستُكلِّفني الجلسات الأربع؟ ستمائة دولار؟ ثمانمائة؟ هذا ثمن عادل لبعض راحة البال في رأيي. خطر لي أيضًا أن هذا سينطوي على فائدةٍ أخرى، ألا وهي وجود شخصٍ غريب غير منحاز قد يتمكّن من رؤية تفسير عقلاني بسيط فاتتني ملاحظته في خضم ارتباكي. في عقلي كان الباب الموصد بيني وبين العالم الخارجي يكفي للتخلُّص من الأشخاص من هذا النوع في المعتاد، لكننا نتكلّم عن عقلي الآن. أوليست هذه هي المسألة؟ أو ربما المشكلة؟

لقد خطّطت لكلِّ شيء. في الجلسة الأولى سأحكي ما حدث، وعندما يحين موعد الجلسة الثانية، سأجلب معي الأشياء التي وجدتها -النظّارة والمكعَّب والمحارة والمضرب وأليس والوسادة الشهيرة- كي يطّلع عليها طبيبي النَّفسي. أما بالنسبة للجلستين المتبقيتين

فسأخصِّصهما لمحاولة التوصُّل مع صديقي المستأجَر إلى سبب هذا الميل المزعج في محور حياتي وإعادة الأمور إلى نصابها السابق.

طبعًا الظهيرة التي قضيتها في تصفُّح الإعلانات وطلب أرقام الهاتف كانت تكفي لأن أرى أن فكرة العلاج النَّفسي غير عمليَّة على أرض الواقع بغضِّ النظر عن نجاحها النظري. أقرب ما توصَّلت إليه في تحديد موعدٍ مع طبيبٍ نفسي كان عندما أخبرتني موظَّفة الاستقبال الخاصة به أن الدكتور ياوس قد يتمكَّن من حجز موعدٍ لي في يناير المقبل، وشدَّدت على كلمة (قد) هذه. غني عن الذِّكر أني لم أجد أملًا مع بقية الأطباء الذين جرَّبت الاتصال بهم. لقد حاولت مع ستةٍ منهم في نيو آرك وأربعةٍ في وايت بليتر، بل إنني جرَّبت من يمارس التنويم المغنطيسي في كويتز أيضًا، لكن بلا طائل. خطر لي أن محمد عطا وزملاءه في كتيبة الانتحاريين أنزلوا بنيويورك أسوأ كارثةٍ ممكنة، لكن تلك الظهيرة التي قضيتها على الهاتف أكَّدت لي أن ما فعلوه جعل نشاط الأطباء النفسيين يزدهر حقًّا.

إذا أردت الاستلقاء على أريكة الطبيب النفسي في صيف 2002، كان عليك أن تأخذ رقمًا وتنتظر دورك.

***

كان بإمكاني النوم في وجود تلك الأشياء في شقَّتي، لكن ليس جيدًا.

كانت تهمس لي...

أستلقي في الفراش مستيقظًا حتى الثانية صباحًا في بعض الأحيان، وأفكِّر في مورين هانون التي ارتأت أنها بلغت سنًّا —وكفاءةً في العمل تجعلهم عاجزين عن الاستغناء عنها— تسمح لها بأن تُصفِّف شعرها الأبيض الطويل الجميل كيفما شاءت؛ أو أفكِّر في المرَّات العديدة التي اختطف فيها البعض وسادة جيمي إيجلتون ليعبثوا بها في حفلات الكريسماس التي اعتدنا إقامتها في الشركة. تذكَّرت كيف قال لي بروس ميسون في إحدى تلك الحفلات إن هذه الوسادة تُذكِّره بالحقنة الشرجيَّة، ما قادني إلى تذكُّر أنه كان صاحب المحارة. بالطبع، بروس ميسون، أمير الذُّباب. إن العقل ليشبه القرد المراوغ: أحيانًا يلتقط منك حبة الموز وأحيانًا لا يفعل كما تقول الأغنية الشهيرة. ثمَّة قصيدة لجورج سيفريس تقول: «أهذه أصوات أصدقائنا الموتى أم أنه الجرامافون؟» قد يكون من المفيد أن تطرح سؤالًا كهذا أحيانًا، بشرط أن تطرحه على أحدٍ غيرك.

أذكُر أنه ذات ليلةٍ في أواخر الثمانينات، قُرب نهاية علاقة رومانسية دامت بيني وبين الكحول لمدة عامين، استيقظت في غرفة المكتب بعد أن غفوت على الطاولة في منتصف الليل، فمشيت مترنِّحًا إلى غرفة النوم، وإذ مددت يدي إلى مفتاح النور رأيت من يتحرَّك في الغرفة. في غمضة عين صرت شبه موقنٍ أن لصًّا مدمنًا

يحمل مسدسًا رخيصًا قد تسلّل إلى شقّتي، ومن فرط الخوف كاد قلبي يثب خارج صدري. بيدٍ أضأت الغرفة، بينما كانت يدي الأخرى تبحث في لهفةٍ عن شيءٍ ثقيل (كان أي شيء ليصلح وقتها، حتى الإطار الفضي الذي يحيط بصورة أمي) عندما أدركت أن المتسلّل هو أنا. كنت أرمق نفسي بعينين متسعتين في المرآة المعلّقة على جدار الغرفة المواجه وقد خرج نصف قميصي من السروال وانتصب الشعر على مؤخّرة عنقي. لحظتها شعرت بالاشمئزاز من نفسي، لكني شعرت بالراحة أيضًا.

أردت أن يكون الموقف الحالي كتلك الليلة في أواخر الثمانينات. أردت أن يتّضح في النهاية أنها المرآة، أو الجرامافون، أو حتى شخص يمارس دعابة قاسية معي (ربما شخص يعرف لِمَ لم أكن في المكتب في ذلك اليوم في سبتمبر 2001). لكني كنت أعرف أن الإجابة لا تكمن في أيٍّ من تلك الأشياء. الوسادة كانت في شقّتي لا شك، وكذلك أليس، التي بإمكاني تمرير أصابعي على الأبازيم في حذائها السيراميكي وتحسُّس شعرها الأصفر، وأستطيع قراءة التاريخ المكتوب على البنس المعلّق في المكعّب الزجاجي دون مجالٍ للخطأ.

أذكر الآن أن بروس ميسون -رجل المحارة أو أمير الذُّباب كما كنا نُطلق عيه- أخذ محارته الوردية معه إلى حفل الشركة الراقص على شاطئ چونز بيتش في يوليو السابق لسقوط السماء، ونفخ فيها

ليستدعينا لتناوُل غداءٍ شهي من ساندويتشات الهوت دوج والهامبرجر، ثم إنه حاول أن يُري فريدي لاوندز كيف يستخدمها، لكن الأصوات التي خرجت منها لم تختلف كثيرًا عن الأصوات الصادرة من وسادة چيمي إيجلتون!

وتستمر تداعيات الذكريات،وفي النهاية تجد أنك كدت تستجمع الصورة الكاملة.

***

في أواخر سبتمبر 2002 خطرت لي واحدة من تلك الأفكار شديدة البساطة، التي تجعلك تشعر بالغباء لأنك لم تُفكِّر فيها من قبل. لماذا أحتفظ بكلِّ هذه الأشياء غير المرغوبة أصلًا؟ لِمَ لا أتخلَّص منها ببساطة؟ إنها ليست أمانة معي مثلًا، وأصحابها لن يعودوا ليُطالبوا بها في وقتٍ لاحق. آخر مرَّةٍ رأيت فيها وجه كليف فارل كانت على مُلصَقٍ في الشارع، وآخر تلك المُلصَقات تم تمزيقه في نوڤمبر 2001. كان الشعور العام -وإن لم يتكلَّم عنه أحد صراحةً- أن كلَّ هذا الإعراب عن التقدير لضحايا العمل الإرهابي الشنيع يُنفِّر السائحين، الذين كانوا قد بدأوا في العودة من جديد إلى مدينة المرح. الذي حدث كان رهيبًا بكلِّ المقاييس، لكن أمريكا كانت لا تزال موجودة رغم كلِّ شيء.

ليلتها كنت قد ابتعت بعض الطعام الصيني من ذلك المطعم الذي أحبه على بُعد شارعين، وكنت أنوي أن أتناوله وأنا أشاهد تشاك سكاربورو يشرح حقائق العالم لي من وراء شاشة التليفزيون كما هي العادة. كنت أفتح التليفزيون عندما جاءت لحظة التنوير: إنها ليست أمانة معي فعلًا، تلك التذكارات المتبقية من آخر يومٍ شعرنا فيه بالأمان، كما أنها ليست أدلّة كذلك. نعم، ثمّة جريمة وقعت ولا أحد يجادل في هذا، لكن المجرمين الذين ارتكبوها ماتوا، ومن وضعوهم على هذا الطريق المجنون هاربون مُطارَدون قد تقام محاكمة في وقتٍ لاحق، لكن أحدًا لن يستدعي سكوت ستالي للوقوف على منصّة الشهود، ولن تُدرَج وسادة چيمي إيجلتون بين أدلّة الجريمة أبدًا.

تركت الدجاج الذي ابتعته من مطعم چنرال تسو على طاولة المطبخ في الطبق الألومنيوم، والتقطت كيسًا قماشيًّا من على الرف المثبَّت فوق الغسّالة التي نادرًا ما أستخدمها، وكوّمت فيه الأشياء (ولحظتها شعرت بالدهشة من خفّتها ومن الفترة الطويلة التي انتظرتها حتى توصّلت إلى تصرُّفٍ بهذه البساطة)، ثم ركبت المصعد إلى اللوبي وقد وضعت الكيس بين ساقيّ. ثم إنني اتّجهت إلى تقاطُع الشارعين 75 وپارك متلفّتًا حولي لأتأكّد من عدم وجود من يُراقبني (والله وحده يعلم لِمَ شعرت بالحاجة إلى التسلُّل خلسةً هكذا)، ثم وضعت الكيس على الأرض وانصرفت ملقيًا نظرةً واحدةً ورائي. كانت يد المضرب بارزةً من الكيس تدعو أيَّ عابر سبيل إلى أخْذ كلّ شيء، ولم أشعر بأدنى شكٍّ في قدوم أحدهم بعد قليل ليأخذ الحمولة التي

تركتها، على الأرجح قبل أن يُفسح تشاك سكاربورو المجال لجون ساينجنثالور أو غيره من الضيوف في برنامج توم بوركو الشهير تلك الليلة.

في طريق العودة إلى شقّتي توقّفت عند المطعم الصيني من أجل طلبٍ جديدٍ من الدجاج، وهناك سألَتني روز مينج الجالسة على ماكينة النقود في قلق إن كان الطلب السابق لم يرُق لي، فقلت لها إنني فقطْ شعرت بشهيَّةٍ لتناول وجبتين الليلة، فضحكَت كأن ما قلته هو أطرف شيءٍ سمعته في حياتها على الإطلاق، وضحكتُ بدوري بشدَّة. إنه ذلك النوع من الضحك الذي يتجاوز مجرَّد الشعور بالمرح، وكنت لا أذكر آخر مرَّةٍ ضحكت فيها هكذا. بالتأكيد لم أضحك هكذا منذ سقوط البرجين.

ركبت المصعد إلى الطابق الرابع، وقطعت الاثنتي عشرة خطوة الفاصلة بيني وبين شقّتي في 4-ب. كنت أشعر كمن يستيقظ بعد مرضٍ مؤلمٍ طويل ليجد أنه قد تحسَّن، وأدرت المفتاح في الباب وقد دسست كيس الطعام تحت إبطي. أشعلت الضوء، وهناك، على الطاولة الصغيرة التي أضع عليها الفواتير التي يجب عليَّ دفعها، والشيكات التي يجب صرفها، وإيصالات الكُتُب التي استعرتها وتأخَّرت في إرجاعها، وما إلى ذلك من أشياء، كانت تقبع النظّارة ذات الإطار الأحمر والعدستين المُشكّلتين كالقلب من فيلم (لوليتا) الأول التي كانت ملكًا لسونيا ديميكو؛ سونيا ديميكو التي قال وارن

أندرسون (وهو النَّاجي الآخر الوحيد من موظّفي شركتنا القديمة على حدٍّ علمي) إنها وثبت من الطابق المائة وعشرة من البرج المتداعي.

قال أندرسون إنه رأى صورةً تم التقاطها لها وهي تسقط؛ رأى صورةً لسونيا وقد ثبَّتت يديها على تنورتها كي لا تكشف عن فخذيها، وتطايَر شعرها على خلفية الدخان الذي غمر سماء نيويورك يومها. جعلني الوصف أفكِّر في قصيدة (السقوط)، التي كتبها جيمس ديكي عن مضيفة الطيران التي تحاول توجيه جسدها الساقط نحو المياه، كأنها ستثب واقفةً على قدميها مرَّة أخرى وتطلب الكوكا-كولا.

- «لقد أفرغت معدتي عندما رأيتها.» قالها لي وارن أندرسون في تلك الليلة في البار. «لا أريد أن أرى صورةً كتلك مرَّة أخرى يا سكوت، لكني أعرف أني لن أنساها أبدًا. كان وجهها ظاهرًا في الصورة، وبشكلٍ ما أعتقد أنها كانت مؤمنةً بأن... بأن كلَّ شيءٍ سيكون على ما يرام.»

لم يحدث قَط أني صرخت منذ أن صرت رجلًا راشدًا، لكني كدت أفعل عندما رأيت نظّارة سونيا ديميكو ومضرب كليف فارل الموضوع في الركن عند مدخل غرفة المعيشة، كأن صاحبه قد أسنده هناك بعد عودته من مباراة للبيزبول. لا بد أن جزءًا ما من عقلي قد تذكَّر أن باب الطُّرقة الخارجية لا يزال مفتوحًا، وأن جيراني في الطابق الرابع سوف يسمعونني لا شكَّ إذا صرخت، وعندها سأضطر لاختلاق حجَّةٍ ما.

أطبقت بيديَّ على فمي لأكتم الصرخة فسقط كيس الطعام على الأرض ليتمزَّق، لكن الحالة التي كنت فيها لم تُتِح لي ترف إلقاء نظرةٍ على الفوضى التي سبَّبها هذا. ألقيت بجسدي على المقعد الوحيد الذي أضعه في الردهة، وغطَّيت وجهي بيديَّ باذلًا ما أستطيع كي لا أصرخ أو أبكي، ثم بعد قليلٍ نهضت لأنظِّف قِطع الطعام المتناثرة على الأرض. ظلَّ عقلي يحاول التفكير في الأشياء التي سبقَتني إلى البيت من تقاطُع **75** وبارك لكني لم أسمح له، وكلما حاولَت أفكاري الوثوب في ذلك الاتجاه كنت أسحبها بعيدًا عنه قدر المستطاع.

في تلك الليلة استلقيت في الفراش أصغي إلى كلامها وكلامهم. بدأت الأشياء تتكلَّم أولًا بأصوات خفيضة، ثم بدأ أصحابها في الردِّ بأصواتٍ أعلى قليلًا. كانوا يتكلَّمون أحيانًا عن الرحلة إلى چونز بيتش، عن رائحة جوز الهند المميِّزة للكريم المضاد لأشعة الشمس الذي وضعه الجميع يومها، ولويس بيجا الذي لم يكف عن الغناء في الميكروفون الذي جلبه ميشا بريزينسكي، والأقراص الطائرة التي أخذت الكلاب تطاردها في مرح في ذلك اليوم الصحو، والأطفال يبنون قلاعًا من الرمال وقد لوَّثوا أغلب الكراسي بملابسهم المبتلَّة والرمل.

كم طفلًا فقد أباه أو أمه يوم سقطت السماء؟

لعمري، هذه مسألة حسابيَّة لا أريد أن أجريها، لكن الأصوات التي سمعتها في شقّتي أرادت إجراءها مرارًا وتكرارًا.

أذكر بروس ميسون الذي نفخ في محارته وأعلن أنه أمير الذُّباب، وأذكر مورين هانون التي قالت لي –في يومٍ آخر غير يوم الشاطئ– إن (أليس في بلاد العجائب) كانت أول رواية تشرح الصدر في التاريخ، وأذكر چيمي إيجلتون الذي ذَكَر لي في مرَّةٍ إن ابنه يعاني من إعاقةٍ تجعله بطيء التعلُّم، بالإضافة إلى التهتهة التي لديه. عرضٌ خاص، إصابتان بسعر واحدة، وسيحتاج الطفل إلى مدرِّس خصوصي للرياضيات وآخر للغة الفرنسية إذا كانت هناك نيَّة لتخرُّجه في المدرسة الثانويَّة في المستقبل القريب.

كنت قد بدأت أغيب في النوم فعلًا، لكن تلك الذكرى الأخيرة أيقظتني من جديد لأنني تذكَّرت أن تلك الحادثة سبقت **11** سبتمبر بأيامٍ قلائل، وربما يوم الجمعة السابق له مباشرةً، ما يجعلها آخر مرَّةٍ رأيت فيها چيمي إيجلتون حيًّا. والصغير الذي يعاني من التهتهة، أكان اسمه چيريمي كما في چيريمي أيرونز؟ بالتأكيد لا. لا بد أن عقلي (الذي يلتقط مني حبة الموز أحيانًا وأحيانًا لا يفعل) يمارس ألاعيبه الصغيرة المعتادة، لكني أكاد أقسم إن اسم الولد كان قريبًا من هذا. چيسون ربما أو چاستن. في آخر الليل ترتبك الأشياء كلها، وأذكر أنني فكَّرت أنني سأفقد عقلي حتمًا لو اتَّضح أن اسم الولد هو چيريمي فعلًا. إنها القشَّة التي تقسم ظهر البعير يا عزيزي.

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة عندما تذكّرت أخيرًا أن رولاند آبلسون كان صاحب المكعَّب ذي البنس المعدني المعلّق فيه. كانت عادة رولاند أن يقول مازحًا دائمًا إن زميلتنا لوسي لديها ما يجب أن تُفسِّره. في خريف 2001 رأيت أرملته في نشرة أخبار السادسة، وكنت قد تبادلت بضع عبارات معها في واحدةٍ من رحلات الشركة (تلك الرحلة إلى چونز بيتش غالبًا)، وخطر لي أنها حسناء حقًّا، لكن الترمُّل أخذ هذا الحُسن وحوَّله إلى جمالٍ حارق. أخذت تشير إلى زوجها في نشرة الأخبار باعتباره مفقودًا وليس ميتًا، وإذا عاد إليها حيًّا فلا بد أن لديه ما يجب أن يُفسِّره. طبعًا، لكن في تلك الحالة عليها أن تُفسِّر بدورها كيف تسبَّبت واحدة من كبرى جرائم القتل الجماعي في التاريخ في تحوُّلها من مجرَّد امرأةٍ حسناء إلى الفاتنة التي صارتها!

أستلقي في الفراش مستيقظًا وأستمر في اجترار الذكريات؛ ارتطام ألواح التزلّج بالأمواج والأقراص الطائرة في أفواه الكلاب وأيدي الأطفال في ذلك اليوم في چونز بيتش، وسرعان ما ملأني حزن عميق ظلّ يتراكم بداخلي إلى أن أفرغته دموعًا. لكن يجب أن أعترف بأنها كانت تجربة تعليميَّة رغم كلّ شيء، إذ كانت تلك هي الليلة التي أدركت فيها أن الأشياء – حتى الصغير منها كبنسٍ معلّق في مكعَّبٍ زجاجي– يمكنها أن تزداد ثقلًا مع مرور الزمن. لكن لأن الثقل غير واقع على جسدك المادي، فليست هناك معادَلة رياضية تُسعفك بالحل

كالمعادلات التي كنا نستخدمها في شركة التأمين، عندما ترتفع قيمة وثيقة التأمين على الحياة إلى (س) إذا كنت مدخنًا، وتزداد تغطية محصولك إلى (ص) إذا ضرب إعصار مزرعتك. هل تفهم ما أعنيه؟

إنها أشياء تُثقِل العقل، وتُثقِل الروح.

***

جمعت الأشياء كلها في الصباح التالي من جديد بعد أن وجدت واحدًا آخر تحت الأريكة. كان ميشا بريزينسكي يحتفظ في مكتبه - الذي كان مجاورًا لمكتبي- باثنتين من دُمى پنش آند چودي الشهيرة، وما وجدته تحت أريكتي كان دُمية پنش، أما دُمية چودي فلم يكن لها أثر، لكن الأخرى كانت تكفيني على كلِّ حال. سحبت الدُّمية شاعرًا بالبغض نحو خطِّ الغبار الذي خلَّفته وراءها. إن الأشياء التي تترك أثرًا هي أشياء حقيقية ذات وزن ولا مجال للتشكيك في وجودها. وضعت الدُّمية مع بقيَّة الأشياء في الخزانة الصغيرة المعلَّقة في المطبخ حيث ظلَّت. في البدء لم أكن واثقًا من بقائها هناك، لكنها ظلَّت في مكانها.

***

قالت لي أمي ذات يومٍ إنه إذا مسح رجل مؤخِّرته ورأى قطراتٍ من الدَّم على ورق الحمَّام الذي استخدمه، فإن أفضل ما يفعله أن يقضي حاجته في الظلام طوال الأيام الثلاثين التالية ويأمل في أن

تتلاشى المشكلة من تلقاء ذاتها. استخدمَت أمي هذا المثال كي تُعبِّر عن إيمانها بأن حجر زاوية الفلسفة الذُّكورية هو أنك إذا تجاهلت المشكلة فقد تحل نفسها بنفسها؛ وأنا قد تجاهلت الأشياء التي وجدتها في شقّتي وأملت أن تنتهي المشكلة، والحق أقول إنني شعرت ببعض التحسُّن. صرت نادرًا ما أسمع الأشياء تهمس لي من خزانة المطبخ (اللهم إلا في الليل)، وإن أضحيت أفضِّل أن أمارس عملي البحثي في مكانٍ آخر خارج الشقّة، ومع حلول منتصف نوفمبر كنت قد أصبحت أقضي معظم وقتي في مكتبة نيويورك العامَّة، وأعتقد أن تمثالي الأسدين الواقفين على المدخل اعتادا رؤيتي في دخولي وخروجي.

سارت الأمور على هذا المنوال حتى الأسبوع السابق لعيد الشُّكر، عندما كنت أغادر البناية ذات يومٍ فالتقيت مصادفةً ببولا روبسون، الأميرة بارعة الحُسن التي كان قد سبق لي أن أنقذتها بإصلاح مكيِّف الهواء في شقَّتها. الذي حدث لحظتها كان تلقائيًّا تمامًا، فلو كان قد أتيح لي ما يكفي من الوقت، فإنني مقتنعٌ بأني لم أكن لأنطق كلمةً واحدةً، لكني وجدت نفسي أسألها إن كان يمكنني دعوتها إلى الغداء لأحدِّثها عن شيءٍ ما.

– «الحقيقة أن لديَّ مشكلة، وأتساءل إن كان بإمكانك مساعدتي.»

كان پدرو البوّاب جالسًا في الركن يقرأ النيويورك پوست (ويُصغي إلى كلِّ كلمةٍ تقال لا ريب، فبالنسبة إليه كانت حياة ساكني البناية أفضل دراما واقعيَّة يمكنه مشاهدتها على الإطلاق). منحتني پولا ابتسامةً تجمع بين اللُّطف والعصبيَّة وقالت:

– «أعتقد أنني مدينة لك، لكنك تعلم أنني متزوِّجة، أليس كذلك؟»

أجبت بالإيجاب دون أن أضيف أنها سبق وصافحتني باليد الخطأ كي لا تدع مجالًا لعدم ملاحظتي خاتم زفافها.

هزَّت رأسها وأضافت:

– «لا بد أنك رأيتنا معًا مرَّتين على الأقل، لكنه كان في أوروبا عندما كان المكيِّف معطَّلًا، وهو في أوروبا الآن أيضًا. اسمه إدوارد. لقد قضى خلال العامين الماضيين وقتًا في أوروبا أكثر مما قضاه هنا، وعلى الرغم من أن هذا الوضع لا يروق لي كثيرًا، فإنني أؤكِّد لك أنني متزوِّجة جدًّا.»

وصمتت لحظةً قبل أن تُردف:

– «إنه يعمل في الاستيراد والتصدير.»

خطر لي أن أقول إنني كنت أعمل في مجال التأمين إلى أن جاء يوم وانفجرت الشركة، لكني فضَّلت أن أقول شيئًا أكثر عقلانيَّة.

- «لست أريد موعدًا غراميًّا يا مسز روبسون.»

أكانت هذه لمحة من خيبة الأمل في عينيها؟ خطر لي للحظة أنها كانت كذلك فعلًا، لكني نجحت في إقناعها على الأقل بأنني ما زلت مأمون الجانب. وضعت يديها على فخذيها وقالت في غضبٍ مصطنع (أو لعله لم يكن مصطنَعًا تمامًا):

- «ماذا تريد إذن؟»

- «أحدًا أتكلَّم معه فقط. لقد جرَّبت عدة أطباء نفسيين، لكنهم مشغولون.»

- «كلهم؟»

- «يبدو هذا.»

- «إذا كنت تعاني من مشكلةٍ في حياتك الجنسيَّة، أو تشعر بحافزٍ مُلِح لقتل الملتحين مرتدي العمامات في المدينة، فلا أريد أن أسمع شيئًا من هذا.»

- «لا شيء من هذا على الإطلاق، أؤكِّد لك.»

كنت أقول الحقيقة طبعًا، وإن أغفلت أن أقول شيئًا على غرار «أؤكِّد لك أنني لن أصدمك.» أو «لن تحسبي أنني مجنون.»

- «لا أريد إلا تناوُل الغداء ونصيحة صغيرة، هذا كل ما هنالك.»

كنت مندهشًا –بل مذهولًا– من قدرتي على الإقناع. لو كنت قد خطَّطت لهذه المحادثة مسبقًا، فأنا واثق بأنني كنت لأفسد الأمر كله. أعتقد أنها شعرت بالفضول، وأنها ميَّزت الصِّدق في نبرات صوتي. لعلها خمَّنت أيضًا أنني لو كنت من الرجال الذين يحاولون التقاط النساء في أيِّ مناسَبة، لكان اليوم الذي أصلحت فيه مكيِّف الهواء في شقَّتها في أغسطس فرصة مثاليَّة، عندما كنا وحدنا تمامًا وقد غاب إدوارد في فرنسا أو ألمانيا. أتساءل أيضًا عن كمِّ اليأس الذي رأته في ملامحي.

في النهاية وافقت پولا على تناوُل الغداء معي في اليوم التالي في مطعم دونالدز جريل في نهاية الشارع، وهو المطعم الذي أحسبه الأقل رومانسيَّة على الإطلاق في ماهاتن كلها. ليس هناك سوى طعام جيد ومصابيح فلورسنت وسُقاة يقول أسلوب تعامُلهم لك بكلِّ صراحة إنهم يرغبون في أن تتناول طعامك ثم تنصرف وتترك مكانك للزبون التالي. اقترحت پولا المكان بأسلوب امرأة ترغب في تسديد دَينٍ قديم كانت قد نسيته، وهو ما لم يُشعرني بالكثير من الإطراء، لكن لا بأس. الظهيرة موعد مناسب لها، ويمكننا أن نلتقي في لوبي البناية لنسير إلى هناك معًا، وقلت لها إن هذا يناسبني أيضًا.

خلدت إلى النوم في الحال تقريبًا في تلك الليلة، ولم أحلم بسونيا ديميكو وهي تسقط من البرج المحترق وقد جذبت تنورتها بيديها كي لا تكشف عن فخذيها.

سألت پولا في اليوم التالي ونحن نقطع الشارع 86 أين كانت عندما سمعت الخبر.

– «سان فرانسسكو. كنت غائبة في النوم في جناحٍ بفندق واردلينج وإدوارد إلى جواري يغط كالمعتاد. كان المفترَض أن أعود إلى نيويورك في اليوم التالي بينما يذهب إدوارد إلى لوس أنچليس لحضور اجتماعٍ ما. يومها أطلقَت إدارة الفندق إنذار الحريق.»

– «لا بد أن هذا جمَّد الدماء في عروقك.»

– «حقًّا، وإن حسبت في البداية أنه زلزال وليس حريقًا. ثم خرج هذا الصوت من السمَّاعات المنتشرة في أروقة الفندق ليخبرنا بأنه لا يوجد حريق، لكن نيويورك تتعرَّض إلى هجومٍ غير مسبوق.»

– «ربَّاه!»

– «سماع الخبر هكذا وأنا في مكانٍ غريب... سماعه قادمًا من السقف كأنه صوت السماء المنذِر بالويل...»

وهزَّت رأسها وقد ضغطت شفتيها معًا في قوة، ثم أضافت:

– «كان الموقف مرعبًا بكلِّ المقاييس. أتفهَّم الحاجة إلى إعلان خبرٍ كهذا في الحال، لكني ما زلت لا أستطيع مسامحة إدارة الفندق على إعلانه بتلك الطريقة، ولا أعتقد أني سأنزل لديهم مرَّة أخرى.»

– «وهل ذهب زوجك إلى اجتماعه؟»

– «ألغوه، وأظن أن كثيرًا من الاجتماعات قد ألغي يومها. مكثنا في الفراش أمام التليفزيون إلى أن أشرقت الشمس محاولين أن نستوعب ما يحدث. هل تفهم ما أعنيه؟»

– «بالتأكيد.»

– «تساءلنا عمن قد يكون هناك من معارفنا، ولم نكن الوحيدين على ما أعتقد.»

– «وهل كان هناك أحد؟»

– «سمسار من شركة شيرسون ليمان ومساعد مدير مكتبة بوردرز في المركز التجاري. الأول لم يحدث له شيء، والثاني... أنت تعرف. وماذا عنك؟»

اتَّضح أنني لم أكن بحاجة للتمهيد، فلم نكن قد بلغنا المطعم بعد عندما فتح الموضوع نفسه.

– «كان من المفترَض أن أكون هناك. كنت أعمل في شركةٍ في الطابق المائة وعشرة.»

تجمَّدت بولا في مكانها وحملقت فيَّ بعينين متَّسعتين. أعتقد أننا بدونا كحبيبين للمارَّة حولنا لحظتها.

– «سكوت، لا!»

- «سكوت، نعم!» قلتها في هدوء، ثم إنني أفصحت لأحدهم أخيرًا عن استيقاظي صباح 11 سبتمبر متوقّعًا أن أمارس طقوسي اليومية المعتادة، بدايةً باحتساء كوب القهوة السوداء بينما أحلق ذقني، وحتى كوب الكاكاو الذي أتناوله في منتصف الليل أثناء مشاهَدة موجز الأنباء. يومٌ كأيِّ يومٍ آخر كما حسبت. أعتقد أن هذا ما أصبح الأمريكيون يعتبرونه نمط حياتهم الطبيعي الذي لا يتبدَّل، لكن انظر ما حدث. إنها طائرة! طائرة ترتطم بناطحة سحاب! ها ها! لقد خُدِعت يا أحمق ونصف العالم يضحك عليك!

حكيت لها أنني تطلَّعت من نافذتي لأرى سماء السابعة صباحًا صافيةً تمامًا، وقد اكتست بتلك الدرجة شديدة العُمق من الأزرق التي تجعلك تحسب أنك تستطيع رؤية النجوم من ورائها. ثم إنني حكيت لها عن الصوت. أعتقد أن كلنا لديه عدد من الأصوات في رأسه يعتاد على وجوده. عندما كنت في السادسة عشرة خاطبني واحد من تلك الأصوات قائلًا إنها ستكون مغامرة مثيرة أن أستمني في واحدٍ من ثياب أختي الداخليَّة، قائلًا إن لديها ألف ثوبٍ داخلي تقريبًا ولن تلاحظ غياب واحدٍ منها بالتأكيد. طبعًا لم أحكِ لپولا عن تلك المغامرة المشينة. أعتبر هذا الصوت بالذات صوت انعدام المسؤولية المُطلَق، أو (مستر يو جيت داون) كما أطلقت عليه.

سألتني پولا في استغراب:

– «مستر يو جيت داون؟»

– «تكريمًا لجيمس براون، مطربي المفضَّل.»

– «ليكن!»

كان مستر يو جيت داون نادرًا ما يُخاطبني وقتها، خصوصًا أني كنت قد أقلعت عن الكحول تمامًا، لكنه أفاق من غفوته في ذلك النهار كي يُلقي عليَّ اثنتي عشرة كلمة لا أكثر، لكنها كانت الكلمات التي غيَّرت حياتي تمامًا، وأنقذتها.

الكلمات الخمس الأولى (وأنا جالس على حافَّة الفراش): «اتَّصل بالمكتب وأخبرهم أنك مريض!» ثم الكلمات السبع التالية (وأنا أمشي متهاديًا نحو الحمَّام أحك مؤخِّرتي): «يمكنك أن تقضي اليوم في سنترال پارك!» لم يكن هذا هاجسًا على الإطلاق. كان صوت مستر يو جيت داون بكلِّ وضوح وليس صوت السماء، وهو مجرَّد تنويع آخر على صوتي أنا (كما جميع الأصوات الأخرى) يقول لي أن أتكاسل وأتخلَّف عن العمل اليوم. أذكر أن آخر مرَّةٍ سمعت فيها هذا الصوت كانت أثناء مسابقة كاريوكي في بار في أمستردام آڤنيو قبل أعوام: «فلتصعد إلى المنصَّة وتُغنِّي لنيل دياموند! هلُم، امرح قليلًا!»

قالت پولا بابتسامةٍ صغيرة:

– «أظن أني أفهم ما تعنيه.»

– «فعلًا؟»

– «حدث مرّة أنني خلعت قميصي ورقصت في أحد بارات كي وست لأربح عشرة دولارات! إدوارد لا يعرف هذه القصة، وإذا أخبرتَه بها سأضطر لأن أطعنك في عينك بمسمار!»

– «انطلقي يا فتاة!» صحت بها مازحًا، فاكتست ابتسامتها بنوعٍ من الحنين جعلها تبدو أصغر وأجمل، ولحظتها خطر لي أن هناك فرصة ما لنجاح علاقتنا.

دخلنا مطعم دونالدز. كان هناك ديك رومي مصنوع من الورق المقوّى على الباب، وصور للمهاجرين مصنوعة أيضًا من الورق المقوّى معلّقة على الجدران. إن عيد الشُّكر يدنو إذا كنت قد نسيت.

– «لقد أصغيت لمستر يو جيت داون وهأنذا هنا حيٌّ أرزق، لكن ثمّة أشياء أخرى هنا أيضًا، أشياء لا أستطيع الخلاص منها، وهي ما أريد أن أتكلّم معك عنه.»

قالت في شيءٍ من عدم الراحة:

– «دعني أكرِّر أنني لست طبيبة نفسية. لقد درست اللغة الألمانية والتاريخ الأوروبي.»

قلت لنفسي إنها قد تملك الكثير مما تتكلّم عنه مع زوجها، وما قلته لها إنني بحاجةٍ إلى الكلام مع أحدٍ لا أكثر.

- «ليكن، طالما وضعت هذا في الاعتبار.»

أملينا طلبنا على أحد السُّقاة - قهوة منزوعة الكافيين لها وعاديَّة لي- ثم طلبت مني أن أريها الأشياء التي ذكرتها.

- «هذا واحد منها.» قلتها مُخرِجًا البنس المعلّق في المكعَّب الزجاجي ووضعته على الطاولة، ثم إنني حكيت لها عن الأشياء الأخرى وأصحابها، عن كليف فارل محب البيزبول، وموري هانون التي كانت تطيل شعرها الأبيض إلى خصرها كدلالة على عدم قدرة الإدارة على الاستغناء عن خدماتها، وجيمي إيجلتون الذي كان يملك حاسَّة خاصَّة تتيح له تمييز عمليات النَّصب، وابنًا ذا إعاقة تجعله بطيء التعلُّم، ووسادة تُصدر صوت إخراج الريح يحتفظ بها في مكتبه ولا يُخرجها إلا في حفل الكريسماس، وسونيا ديميكو المحاسبة الأفضل في الشركة، التي حصلت على نظّارة (لوليتا) الشمسيَّة كهديَّة طلاقٍ من زوجها الأول، وبروس ميسون أمير الذُّباب، الذي صرت لا أراه إلا واقفًا عاري الجذع على الشاطئ ينفخ في محارته بينما تتكسر الأمواج عند قدميه، وأخيرًا وليس آخرًا عن ميشا بريزينسكي، الذي حضرت معه دستةً على الأقل من مباريات فريق المتس. حكيت لها كيف وضعت كلَّ شيءٍ -باستثناء دُمية بِنش- في كيسٍ قماشي تركته في تقاطع الشارعين 75 وپارك قبل أن يسبقني إلى شقَّتي لا أدري كيف، ربما لأنني توقَّفت لدى مطعم چنرال تسو لأطلب وجبةً ثانيةً من

الدجاج. طوال كلّ هذا كان المكعَّب جاثمًا بيننا على الطاولة، وعلى الرغم من منظره الذي أشعرنا بعدم الراحة، إلا أن كلًّا منا نجح في تناوُل بضع لقيماتٍ من وجبته.

عندما فرغت من الكلام شعرت بتحسُّنٍ أكثر مما كنت آمل، لكن الصمت الذي ران من جانبها بعدها كان شديد الثقل، فقلت كي أقطعه:

- «إذن؟ ما رأيك؟»

استغرقَت لحظاتٍ قبل أن تتكلّم -ولا ألومها- ثم قالت أخيرًا:

- «أعتقد أننا لم نعد الغريبين اللذين كناهما قبل قليل. إن تكوين صداقة جديدة ليس شيئًا سيئًا أبدًا، وأنا مسرورة لأنك حكيت لي عن مستر يو جيت داون هذا، ولأني حكيتِ لك عن الذي فعلته في البار إياه.»

قلت إنني أشعر بالشيء نفسه، وكنت صادقًا.

- «والآن هل تسمح بأن ألقي عليك سؤالين؟»

- «بالطبع.»

- «هل تعتقد أنك تعاني من ما يُطلقون عليه شعور النّاجين من الكوارث بالذّنب؟»

- «حسبت أنك لست طبيبة نفسية.»

- «لكني أقرأ، وأشاهد برنامج (أوبرا) كذلك. زوجي يعرف هذا، وإن كنت أفضِّل ألا أثير غيظه بذكر هذا البرنامج أمامه. إذن، هل تعتقد أنك تعاني من شعور النَّاجين من الكوارث بالذّنب؟»

تأمَّلت السؤال، وهو سؤال وجيه بالطبع، وقد طرحته على نفسي مرارًا في تلك الليالي التي استلقيت فيها في فراشي وقد جافاني النوم.

- «أشعر بالكثير منه على ما أعتقد، لكني لن أنكر أني أشعر بالراحة لنجاتي كذلك. هل يصدمك هذا؟»

مدَّت يدها عبر الطاولة ومسَّت يدي مسَّة خفيفة وغمغمت:

- «إطلاقًا.»

قولها هذا جعلني أشعر بتحسُّنٍ أكبر وأكبر، وضغطت يدها ضغطة خفيفة بدوري قبل أن أقول:

- «ما السؤال الثاني؟»

- «إلى أيِّ مدى يهمك أن أصدِّق قصتك عن عودة تلك الأشياء؟»

خطر لي أنه سؤال ممتاز حقًّا على الرغم من وجود المكعَّب إلى جوار وعاء السكَّر، فهو ليس بالشيء النادر في الواقع. خطر لي أيضًا أنها لو كانت قد درست الطب النَّفسي بدلًا من الألمانية لكانت أبلت بلاءً لا بأس به.

- «لم يعد هذا مهمًّا كما كان منذ ساعة واحدةٍ فقط. مجرَّد الحكي ساعدني.»

هزَّت رأسها مبتسمةً وقالت:

- «عظيم. أفضل تخمين لديَّ إذن أن هناك من يمارس حيلة قاسية عليك.»

- «يخدعني...» قلتها محاولًا إخفاء إحباطي من الإجابة. لعل هناك طبقة من عدم التصديق تُغلّف الناس في مواقفٍ كتلك لتحميهم من الحقيقة، أو لعلي -وهو الاحتمال الأرجح هنا- لم أنجح في التعبير عن نفسي جيدًا. إنني على يقين بأن ما حدث قد حدث فعلًا، ولا يزال يحدث، تمامًا كالانهيارات الجليديَّة.

- «يخدعك... لكنك لا تُصدِّق هذا.»

نقطة أخرى تُسجَّل لها لقوة الإدراك.

- «لقد أوصدت الباب عندما خرجت، وكان موصدًا عندما عُدت. لقد سمعت صوت القفل وهو يُفتَح، وهو صوت عالٍ لا يمكن ألا أسمعه.»

- «ولو. هذا النوع من الشعور بالذّنب غريب حقًّا، وقوي، على الأقل طبقًا لما قرأته.»

كدت أقول محتدًّا إن ما يحدث ليس شعورًا بالذّنب، لكنه كان ليصبح القول الخطأ، فقد كانت الفرصة متاحة أمامي لتكوين صداقة جديدة أنا في أمسِّ الحاجة إليها بغضِّ النظر عن ما سيحدث لاحقًا.

هكذا قلت في لُطف:

- «لا أعتقد أنه الشعور بالذّنب»

وأشرت إلى المكعَّب مضيفًا:

- «إنه موجود هنا، أليس كذلك؟ تمامًا كنظّارة سونيا وبقيَّة الأشياء. إنك ترينه كما أراه. من الجائز أنني اشتريته بنفسي من مكانٍ ما، لكن...»

وهزَّزت كتفيَّ وقد أغناني هذا عن إضافة أن كلينا يعرف أن كلَّ شيءٍ ممكن.

- «لا أظن أنك فعلت هذا، ومع ذلك لا أستطيع تقبُّل فكرة أن بابًا قد فُتح بين عالم الواقع ومنطقة الشَّفق فسقطت منه بضعة أشياء.»

نعم، تلك هي المشكلة. بالنسبة لپولا تُعد فكرة وجود أصل خارق للطبيعة وراء الأشياء التي وجدها في شقّتي غير مقبولةٍ دون نقاش مهما كانت هناك حقائق تدعمها. كان عليَّ ساعتها أن أفاضل بين الرغبة في المزيد من الكلام حول هذه الفكرة والرغبة في أن تستمر هذه الصداقة.

وقرَّرت ألا أخوض في المزيد من الجدل.

قلت وأنا أشير إلى السَّاقي بإحضار الشيك:

- «حسن. يمكنني أن أتقبَّل عدم قدرتك على تقبُّل هذه الفكرة.»

سألتني وهي ترمقني في إمعان:

- «حقًّا؟»

- «نعم، بشرط أن نلتقي لاحتساء القهوة بين الحين والآخر أو نتبادل التحيَّة في اللوبي.»

- «بكلّ تأكيد.»

لكنها بدت شاردةً نوعًا. كانت تتطلّع إلى المكعَّب الزجاجي والبنس المعدني بداخله. ثم إنها رفعت عينيها إليّ، وأكاد أقسم أنني لمحت مصباحًا يشتعل فوق رأسها كما في أفلام الكارتون. مدَّت پولا يدها والتقطت المكعَّب، والحق أقول إنني لا أستطيع وصْف الخوف العميق الذي شعرت به عندما فعلت هذا، لكن ماذا أقول؟ إننا نيويوركيان جالسان في مكان نظيف ذي إضاءة جيدة، ومن ناحيتها كانت قد أرست القواعد واستبعدت أيَّ تفسيرٍ خارق للطبيعة في الحال.

كانت ثمَّة لمعة في عيني پولا تشي بأن مستر يو جيت داون كان حاضرًا، ومن تجاربي الشخصية أعرف أن له صوتًا تصعب مقاومته.

قالت مبتسمةً:

- «أعطني إياه.»

في تلك اللحظة أدركت -للمرَّة الأولى فعلًا- أنها امرأة مثيرة بالإضافة إلى جمالها.

وكأني لا أعرف الإجابة سألتها عن السبب، فأجابت بالابتسامة ذاتها:

- «اعتبره أجري لقاء الإصغاء إليك.»

- «لا أعتقد أن هذه فكرة...»

- «بل هي كذلك.»

حزرت أن فكرةً ما قد بدأت السيطرة عليها، وعندما يحدث هذا مع الناس فإنهم لا يقبلون أن تكون الإجابة بلا.

- «إنها فكرة ممتازة في الواقع. سأتأكَّد على الأقل من عدم عودة هذا التذكار إليك، وهو يهز ذيله كالكلاب. إن لدينا خزانة في شقّتنا.»

ثم أدَّت حركة پانتومايم كأنها تُغلق باب الخزانة وتدير قرص الأرقام ثم تُلقي المفتاح وراء ظهرها، ما زادها سحرًا في نظري.

- «ليكن. هو هديَّة مني إليك إذن.»

وشعرت بشيءٍ يعتمل بداخلي أعتقد أنه كان نوعًا من السرور الخبيث. من الواضح أن الكلام فقط لم يكن كافيًا رغم كلّ شيء. هي لم تُصدِّقني تمامًا، وكان هناك جزء بداخلي يرغب في هذا بشدَّة، ويشعر بالضّيق منها لأنها لم تفعل. كان هذا الجزء يعرف تمام المعرفة أن السماح لها بالاحتفاظ بالمكعِّب فكرة بالغة السوء، لكنه شعر بالسرور مع ذلك لرؤيتها تضعه في حقيبة يدها.

– «هكذا، ماما تقول باي باي وتعالج كلّ شيء. ربما عندما لا يعود إليك بعد أسبوعٍ أو اثنين – وهذا يعتمد على مدى عناد عقلك الباطن– يمكنك أن تبدأ في منح بقيَّة الأشياء كهدايا.»

وكان قولها هذا الهديَّة الفعليَّة لي يومها، مع أني لم أعرف هذا في حينه.

– «ربما.»

وابتسمتُ. ابتسامة كبيرة لصديقتي الجديدة. ابتسامة كبيرة لماما.

لكنك ستعرفين أن الحل ليس بهذه البساطة يا عزيزتي.

***

ولقد فَعَلَت...

بعد ليالٍ ثلاث كنت أشاهد تشاك سكاربورو يتكلّم عن أزمة المرور الأخيرة في المدينة في نشرة أخبار السادسة، عندما دقَّ جرس الباب، وبما أنني لم أكن أنتظر أحدًا، فقد افترضت أنه طرد جاء به رافي ساعي البريد كالعادة. فتحت الباب لأجد أنها پولا روبسون.

لم تكن هذه هي المرأة التي تناولت الغداء معها منذ أيامٍ معدودة. كانت تضع طلاء شفاه خفيفًا لكن لا ماكياج آخر من أيِّ نوع، وقد اكتست بشرتها بلونٍ أبيض مصفر كأنها سقيمة، وظهرت هالات سوداء تحت عينيها. أعتقد أنها مرّرت الفرشاة على شعرها سريعًا قبل أن تنزل من شقّتها في الطابقِ الخامس، لكن شعرها بدا كالقشِّ وقد برز على جانبي رأسها، ما كان من الممكن أن يبدو مشهدًا طريفًا في ظروفٍ أخرى. كانت تحمل المكعَّب أمام صدرها، ولاحظت أن أظفارها المقلّمة بعنايةٍ في المعتاد قد اختفت إذ يبدو أنها قضمتها حتى اللحم.

الخاطر الأول الذي راودني —وليسامحني الله— أنها اختبرت الحقيقة بنفسها.

مدّت المكعَّب إليّ قائلة:

– «هاك، خُذه.»

تناولته منها بلا تردُّد ودون أن أنبس ببنت شفة.

– «كان اسمه رولاند آبلبسون، أليس كذلك؟»

– «بلى.»

– «وكان أحمر الشعر.»

– «نعم.»

– «غير متزوِّج لكنه يعول ابنًا غير شرعي من امرأة في راهواي.»

لم أكن أعرف تلك المعلومة –ولا أعتقد أن أحدًا في الشركة كان يعرف– لكني أجبت بالإيجاب، وليس من أجل أن تُواصِل الكلام فحسب، فقد كنت متأكِّدًا من أنها على حق.

سألتها دون أن أدري سبب السؤال:

– «ما اسمها؟»

– «تونيا جرجسون.»

كانت تتكلّم كالمُغيَّبة، وإن كان ثمَّة شيء في عينيها جعلني لا أحتمل النظر إليها. على أنني خزَّنت الاسم في ذاكرتي: تونيا جرجسون، راهواي.

– «لقد حاول أن يزحف تحت مكتبه، أكنت تعرف هذا؟ كلا، من الواضح أنك لم تعرف طبعًا. كان شعره يحترق وكان يبكي، لأنه فهم في تلك اللحظة أنه لن يشتري الزورق الذي يحلم به أبدًا، ولن يجز الحشائش في منزله ثانيةً أبدًا.»

ثم مدَّت يدها ووضعتها على وجنتي، وشعرت برعدة تسري في جسدي كنت لأشعر بها على أية حال حتى لو لم تكن يدها شديدة البرودة.

- «في النهاية كان مستعدًّا للتخلّي عن كلِّ سنت يملكه وكلِّ سهم لديه في البورصة مقابل أن يتمكّن من جزٍّ الحشائش في منزله مرَّة أخرى. أتُصدِّق هذا؟»

- «نعم.»

- «كان المكان يعج بالصراخ ورائحة وقود الطائرات تُفعِم الهواء، وقد أدرك أن ساعته قد حانت. هل تفهم هذا؟ هل تُدرك فداحة هذا؟»

هززت رأسي دون أن أقوى على الكلام. حتى لو صوَّبت مسدَّسًا إلى رأسي لحظتها فلم أكن لأقوى على الكلام.

- «يتكلّم الساسة عن نُصُبٍ تذكاري وعن الشجاعة وعن الحروب التي ستُجهِز على الإرهاب، لكن الشعر المحترق لا علاقة له بالسياسة. كان يحاول أن يزحف تحت مكتبه وقد اشتعل شعره، وكان هناك شيء بلاستيكي تحت المكتب. ما... ما اسمه؟»

- «حصيرة؟»

- «حصيرة، نعم، حصيرة بلاستيكية. كان يتحسَّسها ويشم رائحة شعره المحترق. هل تستوعب هذا؟»

هززت رأسي وبدأت الدموع تجري على وجهي. كنا نتكلّم عن رولاند آبلسون، الرجل الذي كان زميلي في العمل ولم أعرفه جيدًا ولم تتجاوز علاقتنا تبادُل التحيَّة، فأنى لي أن أعرف بوجود ابن غير شرعي له في راهواي؟ وإذا لم أتكاسل عن الذهاب إلى العمل يومها لكان شعري قد احترق أيضًا. الواقع أنني لم أدرك هذه الحقيقة بهذا الوضوح من قبل.

- «لا أريد أن أراك مرّة أخرى.» قالتها وهي تبكي. «لا أبالي بمشاكلك، ولا أبالي بالأشياء التي وجدتها. انتهينا. من الآن فصاعدًا ستدعني وشأني.»

ودارت على عقبيها مغادرةً، ثم إنها التفتت لي وقالت:

- «لقد فعلوها باسم الله، لكن ليس هناك إله، أليس كذلك؟ لو كان هناك إله يا مستر ستالي لكان سوّى بهم الأرض جميعًا قبل أن يصعدوا إلى متن الطائرات. لكن شيئًا من هذا لم يحدث. لقد نادوا على المسافرين ليصعدوا إلى طائراتهم وصعد السَّفَلة معهم.»

راقبتها وهي تعود إلى المصعد وقد تصلّب ظهرها وبرز شعرها على جانبي رأسها كما في رسمٍ كاريكاتوري في صحيفة. لم تعد ترغب في رؤيتي مرّة أخرى ولم أقدر على أن ألومها. أغلقت الباب وتطلعّت إلى البنس المعدني الذي يحمل صورة أبراهام لينكن داخل المكعَّب، وفكّرت في رائحة لحية لينكن إذا احترقت.

على شاشة التليفزيون كان هناك إعلان عن عرضٍ خاص على حشيات الأسرَّة، تلاه تقرير عن كرة السلَّة.

***

استيقظت في الثانية صباحًا في تلك الليلة لأسمع الأصوات تهمس لي. لم أكن قد رأيت أحد أصحاب الأشياء في حُلمٍ أو رؤيا، ولم أرَ أيهم وشعره يحترق أو يثب من نافذة مركز التجارة العالمي هربًا من وقود الطائرات المحترق؛ ولِمَ أفعل؟ إنني أعرف من كانوا. والأشياء التي تركوها وراءهم تُركت لي. كان من الخطأ أن أدع پولا روبسون تأخذ المكعَّب، لكن فقط لأنها كانت الشخص الخطأ.

وعلى ذِكر پولا، فأحد الأصوات كان صوتها هي: «ربما يمكنك أن تبدأ في منح بقيَّة الأشياء كهدايا، وهذا يعتمد على مدى عناد عقلك الباطن.»

ظللت مستلقيًا في الفراش حتى غالبني النوم من جديد، وحلمت بأنني في سنترال پارك أُطعِم البط، عندما دوَّى انفجار هائل فجأةً وامتلأت السماء بالدخان، وفي الحُلم كانت للدخان رائحة الشعر المحروق.

***

فكّرت في تونيا جرجسون في راهواي، وفي الطفل الذي قد يملك عيني رولاند آبلسون وقد لا يفعل، لكني سأكتشف هذا بنفسي بعد قليل. سوف أبدأ بأرملة بروس ميسون أولًا.

أخذت القطار إلى دوبز فيري، واستقللت سيَّارة أجرة من المحطة إلى المنزل الواقع في شارعٍ هادئ، وطلبت من السائق أن ينتظرني فلن أتأخَّر. ضغطت جرس الباب وقد وضعت العلبة التي تشبه عُلب كعك أعياد الميلاد تحت إبطي. لم أضطر لضغط الجرس إلا مرَّةً واحدةً، لأنني كنت قد اتَّصلت بجانيس ميسون مسبقًا وكانت تنتظرني. كنت قد توخَّيت الحذر في اختلاق القصة التي حكيتها لها بقدرٍ معقول من الثقة.

يوم 7 سبتمبر، قلت لها، كنت قد حاولت إخراج بعض النغمات من المحارة التي يحتفظ بها بروس على مكتبه مثلما فعل في الرحلة إياها إلى شاطئ جونز بيتش (وكانت السيدة حرم أمير الذُّباب حاضرة في تلك الرحلة بالطبع). كي لا أطيل عليك، قلت لها، نجحت في إقناع بروس بأن يُقرضني المحارة خلال عطلة نهاية الأسبوع لأتمرَّن على استخدامها، ثم استيقظت صباح الثلاثاء 11 سبتمبر مصابًا بميكروب في الأنف وصداعٍ قوي (وهي القصة التي حكيتها لكثيرين)، وكنت أحتسي الشاي عندما سمعت الانفجار ورأيت الدخان من النافذة. لم أفكِّر في محارة بروس حتى الأسبوع الماضي عندما وجدتها وأنا أنظِّف خزانتي، وخطر لي أن... إنها ليست تذكارًا بالضبط، لكني فكّرت أنك قد ترغبين في أن...

اغرورقت عيناها بالدموع كما حدث معي عندما أعادت پولا مكعَّب رولاند. فقط لم تكن الدموع مصحوبةً بنظرات الرُّعب، التي بتُّ واثقًا من أنها كانت على وجهي إذ وقفت پولا هناك وقد شحب وجهها وبرز الشعر على جانبي رأسها. قالت لي چانيس إن أيَّ تذكارٍ من بروس يُسعدها.

قالت وهي تحمل العلبة:

- «لا أستطيع نسيان الطريقة التي تبادلنا بها الوداع. كان يغادر مبكِّرًا جدًّا دائمًا كي يلحق بالقطار. قبَّلني يومها على خدِّي وطلبت منه أن يشتري بعض الحليب في طريق عودته، فقال إنه سيفعل. كان هذا آخر شيءٍ قاله لي على الإطلاق. عندما طلب الزواج مني شعرت يومها كأنني هيلين الطرواديَّة. أعرف أنه تشبيه سخيف لكنه حقيقي. أتمنى لو أنني قلت له شيئًا أفضل من طلب شراء الحليب، لكن أعوامًا كانت قد مرَّت على زواجنا واليوم بدا كأيِّ يومٍ آخر و... لكننا لا نعرف أيَّ شيء، أليس كذلك؟»

- «نعم.»

- «نعم. أي وداع قد يكون وداعًا أبديًّا دون أن ندري. أشكرك جزيلًا يا مستر ستالي لمجيئك وإعطائي هذه المحارة. هذا لُطف بالغ منك.»

وابتسمت وهي تسألني:

- «هل تذكر كيف وقف على الشاطئ ونفخ فيها وقد خلع قميصه؟»

أجبت بالإيجاب وأنا أتطلّع إلى الطريقة التي تحمل بها العلبة. سوف تجلس لاحقًا وتضع المحارة في حِجرها وتبكي، لكني أعرف الآن أن هذه المحارة لن تعود إلى بيتي مرّة أخرى، لأنها عادت إلى بيتها.

***

عُدت إلى المحطة وأخذت القطار إلى نيويورك. كانت العربات شبه فارغة في هذه الساعة من اليوم، وجلست إلى جوار النافذة التي تلوّثت بمياه المطر والغبار، متطلّعًا إلى النهر وخط أفق المدينة التي تدنو. في الأيام الغائمة والمطيرة تجد أنك تخلق خط الأفق من مخيّلتك قطعة قطعة.

غدًا أذهب إلى راهواي بالبنس المعلّق في المكعّب الزجاجي، ولعل طفل رولاند آبلسون سيحمله بيده الصغيرة المكتنزة ويفحصه في فضول. في جميع الحالات سيخرج من حياتي بدوره إلى الأبد. فكّرت أن الشيء الوحيد الذي سيتعذّر إرجاعه بعض الشيء هو وسادة جيمي إيجلتون، فمن الصعب أن أخبر زوجته بأنني اصطحبتها معي إلى البيت كي أتمرّن على استخدامها! لكن الحاجة أم الاختراع، ولا شك أنني سأنجح في اختلاق قصة مُقنعة.

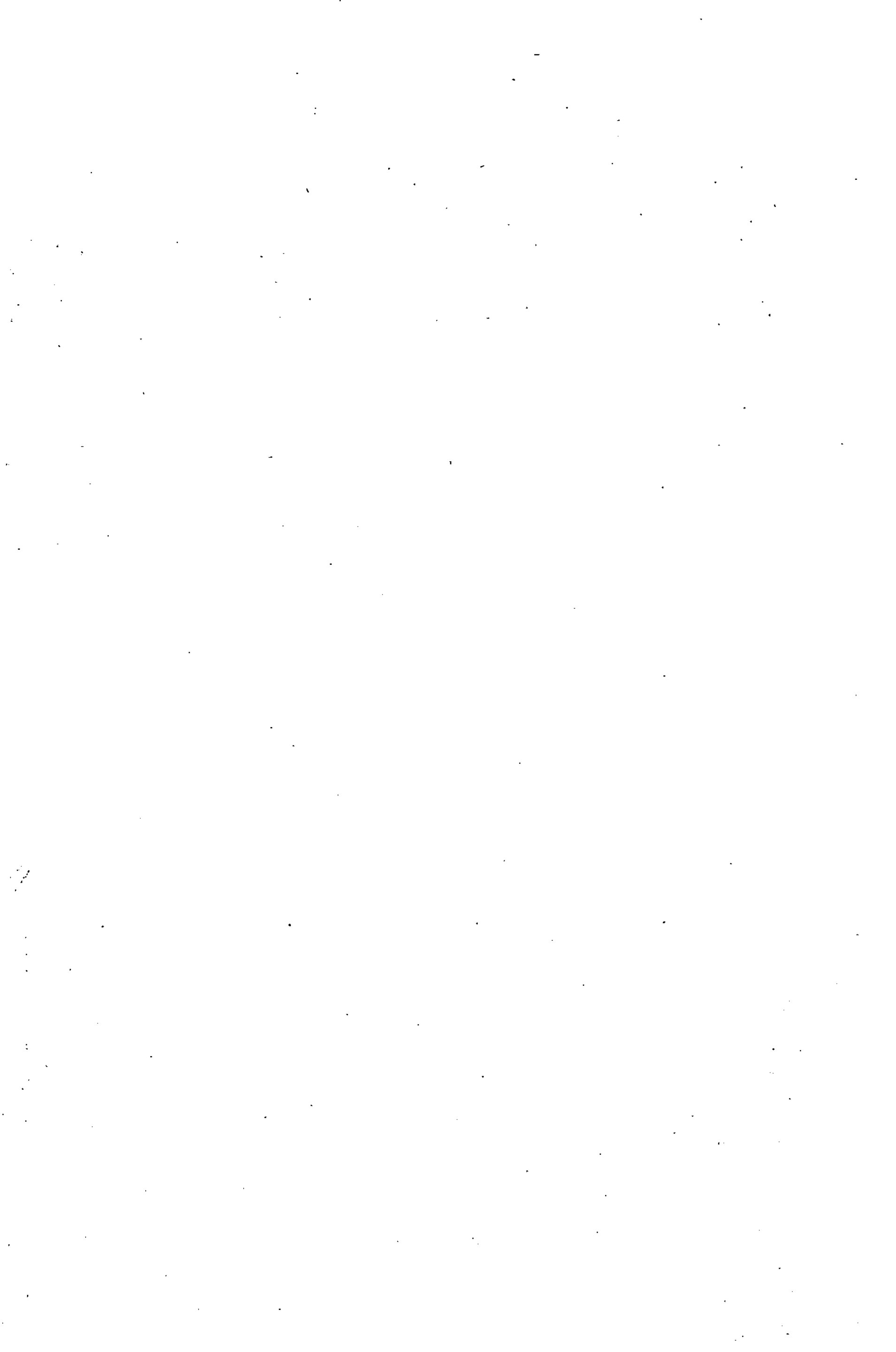
خطر لي أن أشياء أخرى قد تظهر في شقّتي في وقتٍ لاحق، وأكون كاذبًا إذا قلت لك إن هذا الاحتمال أزعجني كثيرًا.

عندما يتعلّق الأمر بإرجاع أشياءٍ ظنَّ الناس أنّها ضاعت إلى الأبد، أشياءٍ لها طول وعرض وارتفاع وثقل، فأعتقد أن هذا في حدٍّ ذاته يمنحك شعورًا لا يُضاهى بالرضا، حتى إذا كانت أشياء صغيرة كنظّارة شمس أو محارة.

نعم، إنني مقتنعٌ بهذا.

***

سهرة عند الإله



خَشبة المسرَح مظلِمة. ثم تسقُط دائرةٍ من الضوء علي كرةٍ مصنوعةٍ من الورق المقوَّى تدور من تلقاء ذاتها في قلب الظلام.

شيئًا فشيئًا تضيء أنوار خشبة المسرح، فنرى بضع قِطَعٍ من الأثاث تُشكِّل غرفة معيشة: كرسي مريح وإلى جواره طاولة صغيرة (وعلى الطاولة زجاجة مفتوحة من المياه الغازيَّة)، وجهاز تليفزيون في منتصف الغرفة. هناك مبرِّد صغير من الذي يُستخدم في الرحلات مليء بالمشروبات الباردة تحت الطاولة، بالإضافة إلى عددٍ كبير من الزجاجات الفارغة. إلى يسار المسرح هناك باب.

يجلس الإله – وهو رجل كبير الحجم ذو لحيةٍ بيضاء– في الكرسي المريح وينقل عينيه من حينٍ إلى آخر بين شاشة التليفزيون وكتابٍ بعنوان (عندما تحدث الأشياء الطالحة للناس الصالحين). يضطر الإله إلى أن يميل إلى الأمام كلما أراد أن ينظر إلى شاشة التليفزيون، لأن الكرة الطافية (والتي أعتقد أنها معلَّقة بخيطٍ رفيع يترل من سقف المسرح) تدور في منتصف المسافة بينه وبين التليفزيون. القناة التي

يُشاهدها تعرض واحدًا من مسلسلات السيت كوم، وبين الحين والآخر يُطلق الإله ضحكةً مصاحبةً للضحكات المسجَّلة لجمهور المسلسل.

نسمع طَرقةً على الباب.

الإله* (بصوتٍ قوي مدوٍّ): ادخل. الباب مفتوح.

ينفتح الباب ويدخل سانت بيتر حاملًا معه حقيبة أوراق وقد ارتدى ثوبًا أبيض أنيقًا.

الإله: بيتر! حسبتك في إجازة!

سانت بيتر: سأغادر خلال نصف ساعة، لكن خطر لي أن أحضر لك الأوراق كي تُوقِّعها أولًا. كيف حالك الآن؟

الإله: أفضل. لم يكن يجدر بي أن آكل تلك الشطَّة الحرِّيفة. إنها تحرق المعدة حرقًا. أهذه أوراق النقل من الجحيم؟

سانت بيتر: نعم، إنها هي أخيرًا.

ويُخرج بعض الأوراق من حقيبته، فيُلقي عليها الإله نظرةً ثم يمد يده بصبرٍ نافد. كان سانت بيتر يتطلَّع إلى الكرة المعلَّقة في الهواء، ثم إنه يلتفت ويرى الإله منتظرًا، فيُخرج من جيبه قلمًا ويضعه في اليد الممدودة. يُذيِّل الإله الأوراق بتوقيعه، وبينما يفعل هذا يعود سانت بيتر بنظره إلى الكرة.

سانت بيتر: ما زالت الأرض موجودة إذن بعد كلّ تلك السنين، هه؟

يعيد إليه الإله الأوراق ويرمق الكرة بنظرةٍ عابسة.

الإله: نعم. إن مسؤولة النظافة تنسى أمرها كثيرًا. في الحقيقة هي أكثر من يعاني من ضَعف الذاكرة في الكون كله.

ترتفع ضحكات مدويَّة من التليفزيون في هذه اللحظة، فينحني الإله لينظر لكن المشهد يفوته.

الإله: تبًّا! أكان هذا آلان ألدا؟

سانت بيتر: لا أدري يا سيدي، لم أرَ.

الإله: ولا أنا كذلك.

ثم يميل إلى الأمام ويسحق الكرة المعلّقة محوِّلًا إياها إلى بودرة.

الإله (بنبرةٍ تحمل الكثير من الرضا): انتهينا. كنت أنوي أن أفعل هذا منذ زمنٍ طويل. الآن يمكنني مشاهدة التليفزيون على راحتي.

يرمق سانت بيتر بقايا الأرض المسحوقة في حزن.

سانت بيتر: هممم. أعتقد أن هذا كان عالم آلان ألدا.

الإله: وماذا في هذا؟ (يضحك مع التليفزيون) روبن ويليامز! كم أحب روبن ويليامز!

سانت بيتر: أظن أن كلا روبن ويليامز وآلان ألدا كانا على الأرض عندما سحقتها يا فندم.

الإله: وما المشكلة؟ إن لديَّ جميع شرائط الڤيديو الخاصَّة بهما. أتريد شرابًا؟

يتناول سانت بيتر الشراب وتبدأ أضواء المسرح في الخفوت، وتسقط دائرة الضوء على بقايا الأرض.

سانت بيتر: الحقيقة أن هذا العالم كان يروق لي نوعًا، الأرض أعني.

الإله: لم تكن شديدة السوء، لكن هناك المزيد من العوالم على كلٍّ حال. والآن لنشرب نخب إجازتك!

كلاهما الآن عبارة عن ظلٍّ وقد ساد الظلام خشبة المسرح، وإن كان من السهل تمييز الإله عن طريق هالة النور الخفيفة التي تحيط برأسه. تُدوِّي الضحكات من التليفزيون مرَّة أخرى.

الإله: انظر، إنه ريتشارد پرايور! هذا الرجل يقتلني ضحكًا. أعتقد أنه هو الآخر كان على...

سانت بيتر: إممم. نعم يا فندم.

الإله: تبًّا! (صمت قصير) لكن هذا كان سيحدث عاجلًا أو آجلًا في جميع الأحوال.

تُظلم خشبة المسرح تمامًا باستثناء دائرة الضوء المسلَّطة على بقايا الكرة.

سانت بيتر: صحيح يا فندم.

الإله (مغمغمًا): لقد عاد ابني من هناك، أليس كذلك؟

سانت بيتر: نعم يا فندم، منذ فترة.

الإله: عظيم. كل شيءٍ على ما يرام إذن.

تختفي دائرة الضوء ويسود الظلام التام.

* (ملاحَظة من المؤلّف: يجب أن يكون صوت الإله عاليًا قدر الإمكان.)



إنهم يعودون أحيانًا



كانت زوجة چيم نورمان تنتظر عودته منذ الثانية ظُهرًا، وعندما رأته يركن السيَّارة أمام المنزل أخيرًا خرجت للقائه. كانت قد ذهبت إلى السوق وابتاعت مكوِّنات وجبةٍ تصلح للاحتفال؛ بضع شرائحٍ من اللحم للشواء وزجاجة من النبيذ ورأسًا من الخس وتتبيلة السَّلطة التي تروق له. والآن تراقبه وهو يترجَّل من السيَّارة، وتجد نفسها تتمنَّى بشيءٍ من اليأس –وليس للمرَّة الأخيرة في ذلك اليوم– أن يكون هناك ما يحتفلا به فعلًا.

كان يحمل حقيبة أوراقه الجديدة وأربعة كُتُبٍ استطاعت أن تلمح عنوان أحدها: (مقدِّمة في قواعد اللغة). وضعت يدها على كتفه وسألته:

– «كيف سارت المقابلة؟»

وابتسم چيم.

لكنه رأى الحُلم القديم في منامه تلك الليلة للمرَّة الأولى منذ زمنٍ طويلٍ للغاية، واستيقظ يتصبَّب عرقًا وقد كتم صرخةً وراء شفتيه.

كان قد أجرى المقابَلة معه مدير مدرسة هارولد ديفيز الثانويَّة ورئيس قسم اللغة الإنجليزية، وهي المقابلة التي لم تخلُ من موضوع الانهيار العصبي الذي أصابه من قبل، تمامًا كما توقَّع. مال المدير فنتون – وهو رجل أصلع نحيل– في مقعده إلى الوراء ناظرًا إلى السقف، وأشعل سيمونز رئيس القسم غليونه، بينما قال جيم:

– «كنت واقعًا تحت ضغطٍ شديد في تلك الفترة.»

كانت أصابعه تريد أن تلتوي في حِجره من فرط التوتُّر لكنه لم يسمح لها، وقال فنتون مبتسمًا:

– «إننا نتفهَّم هذا. ليست لدينا رغبة في التطفُّل على أمورك الشخصيَّة، لكننا متَّفقون على أن التدريس مهنة تولِّد الكثير من الضغط، خصوصًا التدريس للمرحلة الثانويَّة. إنك تُدرِّس خمس حصصٍ من أصل سبع، وأغلب طلابك حالته مستعصية فعلًا. لأسبابٍ كهذه يُصاب المدرِّسون أكثر من غيرهم بقُرَح المعدة، هُم ومرشدو الملاحة الجويَّة.»

قال الجزء الأخير بشيءٍ من الفخر، فعلَّق جيم مؤكِّدًا:

– «الضغوط الذي كنت أتعرَّض لها وقتها كانت شديدة فعلًا.»

هزَّ فنتون وسينموز رأسيهما في تشجيعٍ صامت، وأعاد الأخير إشعال غليونه. شعر چيم فجأةً بأن المكتب خانق ضيِّق، وراوده هذا الإحساس الغريب بأن أحدهم قد أشعل مصباحًا ساخنًا عند مؤخِّرة عنقه. بدأت أصابعه تلتوي في حِجره، لكنه ضغط عليها بشدَّة كي يُسيطر على حركتها.

- «كنت في السنة الأخيرة من الدراسة وأمارَس التدريس كمتدرِّب. كانت أمي قد ماتت بالسرطان في الصيف السابق، وفي آخر محادثة بيننا طلبت مني أن أُنهي دراستي وأتم ما بدأه أخي الأكبر الذي كان قد مات ونحن صغيرين، لكنه كان راغبًا في أن يكبر ليصبح مدرِّسًا، وكان رأي أمي أن...»

كان يرى في عيونهما أنه يثرثر كثيرًا، وخطر له أنه على وشك إفساد الأمر كله.

- «على كلِّ حال فعلت كما تمنَّت أمي.» قالها ليضع لكلامه عن العلاقة المتشابكة بينه وبين أمه وأخيه واين -واين القتيل المسكين- حدًّا.

- «خلال الأسبوع الثاني لي في التدريس أصيبت خطيبتي في حادث سيَّارة عنيف. كانت سيَّارة قديمة تم تجديد محرِّكها على ما يبدو، لكنهم لم يقبضوا على صاحبها قَط.»

أطلق سيمونز همهمةً صغيرة ليُشجِّعه على مواصَلة الكلام، فأكمل چيم:

- «لكني واصلت حياتي لأنه لم يكن أمامي سبيل آخر. كانت خطيبتي تعاني ألمًا شديدًا، إذ كُسرت ساقها وأربعة من أضلاعها، لكن حياتها لم تكن في خطر. لا أحسب أني قدَّرت الضغط الذي أوقعه الموقف عليَّ حق قدره.»

وقال لنفسه لائمًا إن العبارة الأخيرة قد تخصم من رصيده، ثم أضاف:

- «تلقَّيت تدريبي في سنتر ستريت الثانويَّة التجاريَّة.»

غمغم فنتون في امتعاض:

- «سنتر ستريت، مقلب قمامة المدينة. مطاوٍ في الجيوب، أحذية جلديَّة طويلة العُنُق، مسدَّسات صاعقة في خزائن الطلبة، مضارب للحماية من البلطجيَّة، وكلُّ طفلٍ من ثلاثة يبيع المخدَّرات للاثنين الآخرين. أعرفها جيدًا.»

- «كان هناك ولد اسمه مارك زيمرمان، ولد حسَّاس يلعب الجيتار يحضر فصل الكتابة الذي كنت أدرِّسه، وكان موهوبًا في الكتابة فعلًا. دخلت المدرسة ذات صباحٍ لأجد ولدين آخرين يُكتِّفانه، بينما يحطِّم ولد ثالث جيتاره الياماها على جهاز التدفئة المركزي، وكان زيمرمان يصرخ. صرخت فيهم أن يتوقَّفوا ويعطوني الجيتار، وتحرَّكت نحوهم عندما لَطَمني أحدهم من الخلف.»

وهزَّ كتفيه واستطرد:

- «كانت القَشَّة التي قسمت ظهر البعير. أصبت بانهيارٍ عصبي. لم يكن هناك صراخ أو عويل، ولم أتكوَّم على نفسي وأبكي في الركنِ. لا شيء من هذا. فقط لم أستطع العودة إلى ذلك المكان مرَّة أخرى. كلما اقتربت كنت أشعر بصدري يضيق وأنفاسي تتلاحق ويغمرني العَرَق البارد.»

قال فنتون في لُطف:

- «هذا يحدث لي أيضًا.»

- «خضعت للعلاج النَّفسي على نفقة الدولة، فلم أكن أستطيع تحمُّل مصاريف الطبيب بنفسي، وقد أفادني العلاج حقًّا. أنا وسالي متزوِّجان الآن. إنها تعاني من عرجٍ خفيف ولديها نُدبة، لكنها سليمة كالجرس في ما عدا ذلك.»

ورفع عينيه إليهما مضيفًا في حزم:

- «ويمكنكما أن تقولا الشيء نفسه عني.»

قال فنتون:

- «ثم إنك أنهيت تدريبك في كورتز الثانويَّة على ما أعتقد.»

وغمغم سيمونز:

- «والتدريس هناك ليس نزهةً أيضًا.»

أشار جيم بإصبعه قائلًا:

- «أردت مدرسة صعبة، فبادلت مكاني مع مدرِّس من كورتز.»

قال فنتون:

- «وحصلت على الدرجات النهائيَّة من المشرف على تدريبك.»

- «هذا صحيح. إنني أستمتع بعملي.»

تبادل فنتون وسيمونز النظر، ثم نهضا فنهض جيم بدوره، وقال فنتون:

- «ما زال لدينا عدد من المتقدِّمين لشغل الوظيفة يا مستر نورمان، لكننا سنكون على اتِّصال...»

- «نعم، طبعًا.»

- «... لكني من ناحيتي أشعر بالإعجاب بسجلِّك الأكاديمي وصراحتك في الكلام.»

- «هذا لُطف منك.»

أشار فنتون إلى سيمونز قائلًا:

- «سيم، انظر إن كان مستر نورمان يرغب في تناوُل القهوة قبل أن يغادر.»

صافح چيم المدير، وفي الطُّرقة خارج المكتب قال له سيمونز:

– «اسمع، أظن بشدَّة أن الوظيفة لك إذا كنت تريدها. أقول لك هذا بشكلٍ غير رسمي بالطبع.»

هزَّ چيم رأسه مفكِّرًا أن هناك الكثير مما لم يقله.

كان مبنى هارولد ديڤيز الثانويَّة منفِّر الشكل نوعًا، لكن باستثناء ذلك كانت مدرسة لا بأس بها على الإطلاق. كان الجناح العلمي وحده قد تلقى تمويلًا بقيمة مليون ونصف دولار في العام السابق، والفصول –التي كانت مسكونة بأشباح العُمال الذين بنوها والدُّفعة الأولى التي درست فيها منذ عشرات السنين (مجازًا لا فعليًّا)– مزوَّدة بأثاثٍ حديث وسبُّورات لا تعكس الضوء. كان الطلبة نظاف مهندمين ومفعمين بالحيويَّة، أغلبهم من عائلاتٍ ثريَّة، ويملك ستة من بين كلِّ عشرةٍ منهم سيَّارته الخاصَّة. بشكلٍ عام مدرسة جيدة تجعل سنتر ستريت الثانويَّة التجاريَّة تبدو كدولةٍ إفريقية ضربتها المجاعة.

لكن بعد أن يرحل الطلبة، بعد أن تخلو المدرسة، يحسب چيم أحيانًا أن شيئًا كئيبًا قديمًا يجثم على المبنى ويهمس في الحُجُرات الخالية، شيئًا كوحشٍ أسودٍ بغيض لا تستطيع التقاطه بنظرك أبدًا. في بعض الأحيان، وبينما يقطع رواق الجناح 4 إلى المرأب حاملًا حقيبة الأوراق الجديدة، يتصوَّر چيم نورمان أنه يسمعه يتنفَّس.

***

رأى چيم الحُلم مرَّة أخرى قُرب نهاية أكتوبر، وهذه المرَّة أفلتت منه الصرخة. شقَّ طريقه في صعوبةٍ إلى عالم اليقظة ليجد سالي جالسةً إلى جواره في الفراش وقد وضعت يدها على كتفه، وكان قلبه يدُق في عنف. قالت وهي تمسح وجهه بيدها الأخرى:

– «هل أنت بخير؟»

– «نعم. لقد صرخت، أليس كذلك؟»

– «صرخت، نعم. أكان كابوسًا؟»

– «نعم.»

– «هؤلاء الأوغاد الذين كسروا الجيتار؟»

– «لا، حادثة أقدم من هذا بكثير أسترجعها أحيانًا. لا تقلقي.»

– «متأكِّد؟»

– «نعم.»

– «هل أصب لك كوبًا من الحليب؟»

كانت عيناها تشيان بالكثير من القلق، فطبع قُبلةً على كتفها وقال:

– «لا. عودي إلى النوم.»

أطفأت نور المصباح الصغير المجاور للفراش، واستلقى هو في مكانه متطلِّعًا إلى الظلام.

كان جدوله اليومي لا بأس به إطلاقًا إذا وضعنا في الاعتبار أنه المدرِّس الجديد. كانت الحصَّة الأولى شاغرة، أما الثانية والثالثة فكانت مادة الكتابة لفصلين، أحدهما سخيف والآخر جيد نوعًا. الحصَّة الرابعة كانت المفضَّلة لديه،حيث يُدرِّس مادة الأدب الإنجليزي لمجموعة لا بأس بها من الطلبة، والخامسة كانت حصَّة استشاريَّة يلتقي فيها بالطلبة الذين يعانون من مشاكلٍ شخصيَّة أو أكاديمية، وعدد هؤلاء كان قليلًا وأغلبهم لا يريد أن يُفصح له عن شيءٍ على كلِّ حال، فكان غالبًا ما يقضي تلك الحصَّة في مُطالَعة روايةٍ ما. أما الحصَّة السادسة فكانت لقواعد اللغة، وهي حصَّة باردة الطابع جافَّة كالطبشور.

كانت الحصَّة السابعة هي الأقل تفضيلًا لديه على الإطلاق، وهي حصَّة مادة (الحياة مع الأدب) التي يُدرِّسها في فصلٍ أشبه بصندوقٍ صغير في الطابق الثالث. كان الفصل حارًّا في بداية الخريف وباردًا مع دنو الشتاء، والطلبة أنفسهم كانوا مِن مَن يصفونهم في شيءٍ من الخجل بأنهم بطيئو التعلُّم.

كان هناك سبعة وعشرون من بطيئي التعلُّم في فصل جيم، وأرق وصف يمكنك إطلاقه عليهم أنهم غير مهتمِّين بالتعليم أصلًا. كان قد دخل الفصل ذات مرَّة ليجد رسمًا كاريكاتوريًّا بذيئًا لكن دقيقًا له على السبُّورة، وقد كُتِب تحته اسمه بالطبشور دون داعٍ في الحقيقة، فما كان منه إلا أن مسحه دون تعليق وبدأ الدرس على الرغم من الضحكات الساخرة.

أعدَّ چيم خطَّة تعليميَّة تجذب الانتباه، وأضاف إليها بعض وسائل الإيضاح بالصوت والصورة، كما طلب بعض النصوص التي حسب أنها ستثير اهتمامهم، لكن بلا جدوى. ظلّ مزاج الطلبة يتأرجح بين العبث الصاخب والصمت اللامبالي. في بدايات نوڤمبر نشبت مشاجرة بين ولدين أثناء مناقشة رواية (عن الفئران والبشر)، ففضَّها چيم وأرسل الولدين إلى مكتب المدير، وعندما فتح الكتاب على الصفحة التي أغلقها وجد عبارة (اذهب إلى الجحيم) تستقبله في استخفاف.

قصَّ المشكلة على سيمونز، فهزَّ هذا كتفيه وأشعل غليونه قائلًا:

– «ليس لديَّ حل ناجز في الحقيقة. الحصَّة الأخيرة هي الأسوأ دائمًا. كل ما أستطيع أن أقوله إن الحصول على درجات سيئة في هذا الفصل يعني لبعضهم ألا يلعب كرة القدم أو السلّة مرَّةً أخرى، لهذا يعتبرون أنفسهم عالقين معك رغمًا عنهم.»

– «وأنا معهم.»

– «عليك أن تُريهم أنك لا تمزح إذن وسيبذلون جهدًا حقيقيًا، حتى لمجرَّد ألا يفشلوا في الحصول على تأهيلٍ لممارسة الرياضة في الجامعة بعد ذلك.»

لكن الحصَّة السابعة ظلّت كشوكةٍ في جانبه.

إحدى أكبر المشاكل التي واجهته في حصَّة (الحياة مع الأدب) كانت في صورة ثور آدمي بطيء الحركة اسمه تشيپ أوزواي. في أوائل ديسمبر، في فترة الراحة القصيرة بين موسمي كرة القدم وكرة السلَّة (وكان تشيپ هذا يمارس اللعبتين)، ضبطه چيم وهو يغش في أحد الامتحانات فطرده من الفصل، ويومها صرخ في رواق الطابق الثالث سيء الإضاءة:

– «إذا جعلتني أرسب سننال منك أيها الوغد! هل تسمعني؟»

فقال چيم:

– «هلُم إذن، لا تُبدِّد أنفاسك في التهديد.»

– «سننال منك أيها الأحمق!»

عاد چيم إلى الفصل فوجدهم يتطلَّعون إليه في أدب دون أن تُفصح وجوههم عن مشاعرهم، لكنه لم يول هذا اهتمامًا مع الشعور الغريب والمألوف في آنٍ واحد الذي جاش به صدره، الشعور الذي سبق أن أحسَّ به من قبل.

سننال منك أيها الأحمق!

أخرج چيم كشكول الدرجات من مكتبه وفتحه على صفحة مادة (الحياة مع الأدب)، وفي حرصٍ دوَّن كلمة (راسب) في الخانة المجاورة لاسم أوزواي.

وفي تلك الليلة رأى الحُلم من جديد...

دائمًا ما يكون الحُلم بطيئًا على نحوٍ شديد القسوة يجعله يرى كلّ شيءٍ ويشعر بكلّ شيء بالتّفصيل، وأضف إلى هذا الرُّعب الذي ينتابه وهو يشهد أحداثًا يعرف نهايتها المحتومة وهو عاجز عن تغيير أيِّ شيءٍ، تمامًا كرجلٍ مقيَّد داخل سيَّارة تنطلق نحو هاوية.

في الحُلم هو في التاسعة من عمره وأخوه واين في الثانية عشرة، وكانا يقطعان شارع برود ستريت في ستراتفورد، كونيتيكيت في الطريق إلى المكتبة العامَّة. كان جيم قد تأخَّر يومين في إرجاع عددٍ من الكُتُب التي استعارها، فاختلس أربعة سنتات من الوعاء الزجاجي الذي تضعه أمهما في خزانة المطبخ ليدفع غرامة التأخير. إنها إجازة الصيف، ويمكنك بسهولة أن تشم رائحة العُشب المجزوز، وتسمع أصوات مباراةٍ آتية من التليفزيون في شقَّةٍ من في الطابق الثاني وقد تقدَّم فريق اليانكيز على الرد سوكس بستة أهدافٍ مقابل لا شيء، وترى ظلّ بناية شركة المقاولات يستطيل ببطءٍ عبر الشارع إذ يحل الظلام.

وراء السوق وشركة المقاولات كان هناك جسر للسكك الحديديَّة، وعلى الجانب الآخر من الجسر يجتمع بعض الفاشلين من ساكني المنطقة عند محطة وقود قديمة أغلقت منذ زمن؛ خمسة أو ستة أولاد يرتدون السترات الجلديَّة والسراويل الجينز. يكره جيم المرور

بهم حقًّا. أحيانًا ينادونه بذي العيون الأربع ويسألونه إن كان معه مال، وذات مرَّةٍ طاردوهما لمسافةٍ قصيرة. لكن واين كان يرفض أن يقطع الطريق الأطول إلى المكتبة، لأن هذا في رأيه يجعله جبانًا كدجاجة.

في الحُلم يلوح جسر السكك الحديديَّة ويدنو أكثر فأكثر، وتبدأ في الشعور بالخوف يتكوَّن في حلقك كأنه طائر أسود ضخم يخرج من بيضته. في الحُلم ترى كلَّ شيء: لافتة شركة المقاولات النيون التي تنطفئ وتضيء بلا انتظام، الصدأ الأخضر الذي يكسو الجسر، لمعة الزجاج المكسور بين قضيبي القطار وحولهما، هيكل درَّاجة قديمة ملقى على جانب الطريق.

تحاول أن تقول لأخيك إنك مررت بهذا الموقف من قبل مائة مرَّة، ومجموعة الفشلة غير مجتمعةٍ عند محطة الوقود القديمة هذه المرَّة بل تواروا بين الظلال، لكن الكلمات لا تغادر فمك. أنت عاجز تمامًا.

ثم تنفصل بضعه ظلال عن الجدران، ويدفع ولد طويل ذو شعرٍ أشقر قصير وأنفٍ مكسور واين نحو حائطٍ من القرميد، ويقول له أن يعطيهم بعض النقود.

دعوني وشأني.

تحاول أن تركض، لكن ولدًا بدينًا ذا شعرٍ دهني أسود يُمسك بك ويدفعك إلى الحائط إلى جوار أخيك. تُلاحظ أن جفن عينه اليسرى يرتجف دومًا في عصبيَّة.

هلُم أيها الطفل. كم معك من نقود؟

أربــــ... أربعة سنتات.

كذّاب!

يحاول واين أن يتملّص، لكن ولدًا آخر ذا شعرٍ غريب برتقالي اللون يساعد الأشقر على تثبيته، وفجأةً يلطمك ذو الجفن المرتجِف على فمك، فتشعر بثقلٍ مفاجئ بين فخذيك وتظهر بقعة داكنة على سروالك.

انظر يا ڤيني، لقد بلّل سرواله!

تستحيل محاولة واين للتملُّص إلى مقاومة عنيفة، ويكاد يتحرَّر من الوغدين الممسكين به لكنه لا يفلح، إذ يدفعه إلى الجدار ولد آخر يرتدي سروالًا أسود وقميصًا أبيض. ثمَّة وحمة حمراء صغيرة شبيهة بحبَّة فراولة على ذقنه.

يبدأ الجسر في الارتجاف دلالة على قطارٍ يقترب في سرعة.

يختطف أحدهم الكُتُب من يدك ويُلقيها ذو الوحمة الحمراء في البالوعة المفتوحة القريبة، ثم يدفع واين ركبته اليمنى فجأةً لتضرب ذي الجفن المرتجِف بين ساقيه فيصرخ.

ڤيني، إنه يهرب!

يصرخ ذو الجفن المرتجف شيئًا عن خصيتيه، لكن صراخه يذوب وسط زئير القطار الداني، ثم يعبر القطار الجسر وتعم الضوضاء العالم للحظات.

ينعكس الضوء على نصلي مديتين، واحدة مع الأشقر والأخرى مع ذي الوحمة. لا يمكنك أن تسمع واين، لكن الكلمات مرسومة على شفتيه وتُدركها دون أن تسمعها.

چيمي، اركض! اهرب من هنا!

تنزلق إلى أسفل متملِّصًا من اليدين اللتين تُمسكانك، وتثب بين الساقين كأنك ضفدعة. تلطمك يد على ظهرك محاولةً الإمساك بك من جديد لكنها تفشل، ثم تجد نفسك تركض عائدًا من الطريق الذي جئتما منه بالبطء القاسي الذي تتسم به الكوابيس، تمامًا كأنك تخوض في بِركةٍ من الوحل الثَّخين. تنظر إلى الخلف من وراء كتفك لترى...

استيقظ چيم في الظلام للحظةٍ كاتمًا صرخته ليرى سالي النائمة إلى جواره في سلام، ثم لم يلبث أن غاب من جديد.

... ترى ظلام الجسر كفمٍ كبيرٍ يتثاءب، وترى الأشقر وذا الوحمة يطعنان أخاك في صدره وبين فخذيه فتتفجَّر منه الدماء.

ويستلقي چيم في الظلام بأنفاسٍ متلاحقة منتظرًا أن يأتيه نوم بلا أي أحلام، وبعد مدةٍ لا يدريها غاب في النوم.

***

كانت الإدارة التعليميَّة في المدينة تضم عطلتي الكريسماس ونصف العام معًا لتصبحا إجازةً واحدةً تمتد شهرًا تقريبًا، رأى چيم في بدايته الحُلم مرتين ثم لم يره بعدها. سافر مع سالي إلى أختها في ڤرمونت حيث مارسا التزلُّج كثيرًا، وكانا سعيدين حقًّا.

في الهواء الصافي الطَّلق بدت مشكلة مادة (الحياة مع الأدب) لچيم غير ذات أهمية كبيرة، بل وسخيفة بعض الشيء، وعاد إلى المدرسة شاعرًا بالهدوء والطمأنينة. قابله سيمونز في طريقه إلى تدريس الحصَّة الثانية وناوله ملفًّا قائلًا:

– «لديك طالب جديد في الحصَّة السابعة. روبرت لوسون، منقول من مدرسةٍ أخرى.»

– «لديَّ سبعة وعشرون طالبًا بالفعل، وهذا عدد كبير بما فيه الكفاية.»

– «وما زال العدد كما هو. بيل ستيرنز قُتل في حادث سيَّارة يوم الثلاثاء التالي للكريسماس. صدمه أحدهم وفرَّ.»

– «بيلي؟!»

تشكّلت الصورة في عقله بالأبيض والأسود: ويليام ستيرنز، يلعب كرة القدم، أحد الواعدين القلائل في (الحياة مع الأدب)، هادئ، يحصل على درجاتٍ مرتفعة بانتظام في امتحاناته، لا يتطوَّع كثيرًا بالإجابة على الأسئلة التي يُلقيها چيم لكنه يأتي بالإجابات الصحيحة غالبًا عندما يفعل، وغالبًا ما يُلقيها بأسلوبٍ جذّاب محبَّب. مات؟ كان الفتى في الخامسة عشرة من عمره. شعر چيم فجأةً بأَجَلِه يهمس له من داخل عظامه، كما يتسرَّب إليك تيَّار الهواء البارد من تحت عتبة الباب.

- «مأساة! هل يعرفون ماذا حدث؟»

- «الشُّرطة تُحقِّق في الحادث. كان في وسط البلد يتبادل هدايا الكريسماس مع أصدقائه، ثم غادر وصدمته سيَّارة فورد قديمة وهو يعبر الشارع. لم يرَ أحد لوحة الأرقام، لكن عبارة (عيون الثعبان) كانت مكتوبةً على الباب الجانبي.»

- «ربَّاه!»

دقَّ جرس الحصة الثانية، فابتعد سيمونز واتَّجه چيم نحو الفصل شاعرًا بالخواء.

***

خلال فترة الراحة فتح چيم ملف روبرت لوسون. كانت الصفحة الأولى تقريرًا من مدرسة ميلفورد الثانويَّة التي لم يكن چيم قد سمع بها من قبل، والثانية تحوي عدَّة معلومات عن الصحَّة النفسيَّة للطالب الجديد. مُعامل الذكاء يبلغ **78**، بضع مهاراتٍ يدويَّة، إجابات على اختبار بارنت–هدسون توحي بشخصيَّةٍ غير اجتماعيَّة. الدرجات ضعيفة كذلك. فكَّر چيم في بؤسٍ أنه طالب مناسب تمامًا لفصل (الحياة مع الأدب)، خصوصًا أن الصفحة التالية قد أظهرت أن لوسون أوقع نفسه في عددٍ لا حصر له من المشاكل في مدرسته القديمة.

قلب چيم الصفحة وألقى نظرةً عابرةً على صورة لوسون، وكاد يقلب الصفحة ثم عاد يتطلَّع إليها من جديد وقد زحف الهلع إلى أحشائه وشعر به يهس كأنه ثعبان.

كان لوسون يرمق الكاميرا بنظرةٍ عدائيَّة كأن من يلتقط الصورة شُرطي في القسم وليس مصوِّرًا في مدرسة، وكانت هناك وحمة حمراء صغيرة شبيهة بحبَّة فراولة على ذقنه.

***

مع حلول الحصَّة السابعة كان چيم قد أدار جميع الاحتمالات المنطقيَّة في رأسه. قال لنفسه إن هناك الآلاف ممن يحملون وحمةً مشابهةً على ذقونهم. قال لنفسه إن الوغد الذي طعن أخاه منذ ستة عشر عامًا في الثلاثين من عمره اليوم على الأقل. لكن الوَجَل ظلّ رفيقه طوال اليوم رغم ذَلك، بل وأضيف إليه تشاؤم جعله يشعر بمذاقٍ صدئ في فمه.

هذا هو الشعور نفسه الذي راودك قبل أن تصاب بانهيارك العصبي.

كانت مجموعة الطلبة المعتادة تعبث عند باب الغرفة 33، ودخل بعضهم الفصل مباشرةً إثر رؤية چيم، بينما ظلّ عدد منهم بالخارج يتبادل الهمسات الضاحكة. رأى الولد الجديد واقفًا إلى جوار تشيپ أوزواي، وقد ارتدى سروالًا چينز أزرق وحذاءً أصفر ثقيلًا كأحذية المزارعين.

– « تشيپ، هلُم، ادخل.»

قال الولد مبتسمًا في تحدٍّ وهو ينظر إلى چيم من أعلى:

– «أهذا أمر؟»

– «بالتأكيد.»

– «هل رسبتُ في الامتحان؟»

- «بالتأكيد.»

- «نعم، تمامًا كما...»

لم يُميِّز چيم بقيَّة ما قاله بغمغمةٍ مكتومة، والتفت إلى روبرت لوسون قائلًا:

- «أنت الطالب الجديد إذن. أردت أن أخبرك كيف تُدارَ الأمور هنا.»

قال لوسون في براءة:

- «بالطبع يا مستر نورمان.»

كان حاجبه الأيمن مشقوقًا بنُدبة صغيرةٍ لكن واضحة، نُدبةٍ يعرفها چيم جيدًا. ليس هناك مجال للخطأ. نعم، هذا تخريف، بل هو جنون مُطبق، لكنه حقيقي تمامًا كذلك. قبل ستة عشر عامًا طعن هذا الولد أخاه بسكّينٍ حتى الموت.

مُخدَّرًا، وكأنما يأتي صوته من على مسافةٍ بعيدة، سمع نفسه يشرح قواعد الفصل، بينما دسَّ روبرت لوسون إبهاميه في حزامه مبتسمًا، وبدأ يهز رأسه متَّفقًا مع كلِّ ما يقوله كأنهما صديقان قديمان.

***

- «چيم؟»

- «هممم؟»

- «هل ثمَّة مشكلة ما؟»

- «لا.»

- «أما زال هؤلاء الأولاد يُتعبونك؟»

لا إجابة...

- «چيم؟»

- «لا.»

- «لِمَ لا تخلد إلى النوم مبكِّرًا الليلة؟»

لكنه لم يفعل. كان الحُلم في غاية القسوة تلك الليلة. عندما طعن الولد ذو الوحمة الحمراء أخاه، التفت إليه قائلًا:

- «أنت التالي.»

واستيقظ چيم صارخًا.

***

كان يُدرِّس رواية (أمير الذُّباب) هذا الأسبوع ويتكلّم عن الرمزيَّة عندما رفع لوسون يده، فقال بلهجةٍ محايدة:

– «روبرت؟»

– «لماذا لا تكف عن النظر إليَّ؟»

ارتعش جفنا چيم وشعر بفمه يجف.

– «هل ترى كائنًا فضائيًّا أخضر،أم أن سوستة سروالي مفتوحة؟»

صدرت ضحكات ساخرة مكتومة من بقيَّة الطلاب، بينما قال چيم بنفس اللهجة المحايدة:

– «لم أكن أنظر إليك. والآن هلا أخبرتنا لِمَ اختلف رالف وچاك على»

– «بل كنت تنظر إليَّ.»

– «هل تريد أن تشكوني إلى المدير إذن؟»

بدا لوسون كأنه يُفكِّر في السؤال قليلًا، ثم قال في لامبالاة:

– «كلا.»

– «عظيم. والآن هلا أخبرتنا لِمَ اختلف رالف وچاك على...»

– «لم أقرأ الكتاب السخيف.»

- «حقًّا؟ عليك أن تتذكّر أن الكتاب يحكم عليك أيضًا بينما تحكم عليه. والآن هلا أخبرتنا لِمَ اختلف رالف وچاك على وجود الوحش على الجزيرة؟»

رفعت طالبة اسمها كاثي سلاڤين يدها في تردُّد، فرمقها لوسون بنظرةٍ صارمةٍ وقال شيئًا لتشيپ أوزواي عن أن لها نهدين جميلين، فهزَّ هذا رأسه موافقًا.

أشار چيم إلى الطالبة فأجابت:

- «لأن چاك كان يرغب في صيد الوحش؟»

- «بالضبط.»

واستدار ليكتب بالطبشور على السبُّورة، وفي اللحظة التي أدار ظهره فيها ارتطمت ثمرة جريب فروت بالسبُّورة وتحطمَّت إلى جوار رأسه، فتراجع إلى الوراء بحركةٍ غريزيَّة عنيفة والتفت إليهم ليجد بعضهم يضحك بينما رسم لوسون وأوزواي تعبير البراءة على وجهيهما.

انحنى چيم والتقط الثمرة قائلًا:

- «أجدر بمن ألقى هذه أن يحشرها في حلقه.»

كانت كاثي سلاڤين تلهث، بينما ألقى چيم الثمرة في سلَّة المهملات وعاد يكتب على السبُّورة.

كان يرشف من كوب القهوة وهو يُطالع جريدة الصباح عندما رأى العنوان الذي جعل الدماء تتجمَّد في عروقه: «مصرع فتاة مُراهقة إثر سقطوها من فوق سطح منزلها.» كان متن الخبر يقول إن «كاثرين سلاڤين، الطالبة بمدرسة هارولد ديڤيز الثانويَّة، قد سقطت – أو دفعها أحدهم– من فوق سطح منزلها بوسط المدينة مساء الأمس. كانت الفتاة ذات السبعة عشر عامًا تحتفظ بقفص حمام على السطح، وقد صعدت كي تُطعم الحمائم طبقًا لرواية والدها الثكلى. وقد صرَّح رجال الشُّرطة أن جارةً لم يُحدِّدوا هويَّتها قد رأت ثلاثة أولاد يجرون على السطح في حوالي السابعة إلا رُبعًا مساءً بعد دقائق من سقوط الفتاة... (البقيَّة في صفحة 3).»

سألته سالي في توتُّر:

– «أهي واحدة من طالباتك؟»

لكنه لم يستطع إلا النظر إليها كمن أصابه الخرس.

***

بعد أسبوعين التقى به سيمونز في الرواق حاملًا ملفًّا في يده، وشعر چيم بمعدته كأنها تمتلئ بالشَّظايا.

قال لسيمونز في فتور:

– «طالب جديد لفصل الحياة مع الأدب، أليس كذلك؟»

ارتفع حاجبا سيمونز وهو يسأله في دهشة:

– «وكيف عرفت؟»

هزَّ جيم كتفيه وتناول الملف من سيمونز الذي قال:

– «على كلِّ حال يجب أن أذهب الآن. هناك اجتماع لرؤساء الأقسام. لكنك تبدو مريضًا. هل أنت بخير؟»

– «نعم.»

ربَّت سيمونز على كتفه وقال:

– «أعتنِّ هذا.»

انصرف سيمونز، وفتح جيم الملف على صورة الطالب الجديد وقد اعتلى الخوف ملامحه مقدَّمًا كأنه على وشك أن يُضرب.

لكن الوجه لم يكن مألوفًا؛ مجرَّد وجه عادي قد يكون قد رآه أو لم يره من قبل. كان الولد –واسمه ديفيد جارسيا– متين البنيان ذا شعرٍ داكن وشفتين ممتلئتين كالزنوج ونظرة ناعسة في عينيه. قال الملف إنه محوَّل أيضًا من ميلفورد الثانويَّة، وإنه قضى عامين في إصلاحية الأحداث لسرقة سيَّارة.

وأغلق جيم الملف بيدين ترتجفان قليلًا.

***

– «سالي.»

رفعت عينيها إليه وهي تكوي بعض القمصان. كان جالسًا أمام مباراةٍ لكرة السلّة في التليفزيون دون أن يراها حقًّا.

– «لا شيء. نسيت ما كنت سأقوله.»

– «لا بد أنها كانت كذبة إذن!»

منحها ابتسامةً روتينيَّة وعاد ينظر إلى التليفزيون. كانت القصة كلها على طرف لسانه، لكن كيف له أن يحكيها؟ إنها قصة أكثر من مجنونة. ومن أين يبدأ؟ من الكابوس الذي لا يكف عن ملاحقته؟ الانهيار العصبي؟ روبرت لوسون؟

كلا. عليك أن تبدأ بواين، بأخيك.

لكنه لم يكن قد أخبر أحدًا عن الحادث قَط، ولا حتى أثناء خضوعه للعلاج النفسي. انتقلت أفكاره إلى ديڤيد جارسيا والرُّعب الغامض الذي اعتراه عندما تبادلا النظرات للمرَّة الأولى. بالطبع لم يبدُ الولد مألوفًا في الصورة، لكن الصور لا تتحرَّك أو ترتجف. كان جارسيا واقفًا في الرواق مع لوسون وأوزواي، وعندما رفع عينيه ورأى چيم نورمان بدأ جفنه الأيسر في الارتجاف، وبدأت الأصوات تتكلّم في عقل چيم بوضوحٍ غير مسبوق:

انظر يا ڤيني، لقد بلّل سرواله!

هلُم أيها الطفل. كم معك من نقود؟

أربــ... أربعة سنتات.

كذّاب!

– «چيم؟ هل قلت شيئًا؟»

– «لا.»

لكنه لم يكن واثقًا تمامًا إن كان قد قال شيئًا بالفعل أم لا. كان الخوف قد بدأ يستحوذ عليه تمامًا.

***

سمع چيم الدقّة على باب مكتب الأساتذة في ذلك اليوم في فبراير بعد انتهاء اليوم الدراسي، وعندما فتحه وجد تشيپ أوزواي واقفًا هناك وقد لاح الخوف والارتباك على ملامحه. كانت الساعة الرابعة وعشر دقائق، وقد ظلّ چيم وحده بعد رحيل بقيَّة الأساتذة لتصحيح واجبات (الحياة مع الأدب).

قال في حياد:

– « تشيپ؟»

بدَّل هذا وضع ساقيه وقال:

– «مستر نورمان، هل تسمح بدقيقة؟»

– «بالتأكيد. لكن إذا كان هذا بخصوص الامتحان، فإنك تُضيِّع...»

- «لا، إنها مسألة أخرى. هل يمكنني أن أدخّن هنا؟»

- «لا بأس.»

أشعل أوزواي السيجارة بيدٍ ترتجف قليلًا، ولم يقل شيئًا لدقيقة تقريبًا. بدا الولد كأنه لا يستطيع الكلام وقد ارتعشت شفتاه وشبّك يديه معًا وبدا تعبير غريب على وجهه.

ثم إنه صاح فجأةً:

- «إذا فعلاها، فأريدك أن تعرف أن لا علاقة لي بالأمر! إنني لا أحبهما على الإطلاق! إنهما مخيفان حقًّا!»

- «عمّن تتكلّم بالضبط؟»

- «لوسون وجارسيا.»

كان الخوف القادم من عالم الكوابيس قد اعتراه من جديد على ذكر الاسمين، وكان يعرف الإجابة من قبل حتى أن يسأل:

- «هل يُخطّطان لإيذائي؟»

- «كانا يروقان لي في البداية. لقد خرجنا معًا لنشرب البيرة، وبدأت أشكو منك بسبب الامتحان إياه وكيف أنني سأنال منك، لكنه كان مجرّد كلام، فضفضة، أقسم لك!»

- «ماذا حدث؟»

- «يبدو أن الموضوع أثار اهتمامهما في الحال. أخذا يسألاني عن الوقت الذي تُغادر فيه المدرسة، وعن نوع السيَّارة التي تقودها وما إلى ذلك. سألتهما عن سبب عدائهما لك، وقال جارسيا إنهما يعرفانك منذ زمنٍ طويل و... هل أنت بخير؟»

- «إنها السيجارة. لم أعتد رائحة الدخَّان قَط.»

فأطفأ أوزواي السيجارة وواصل:

- «سألتهما منذ متى يعرفانك، فقال لوسون إنني كنت لا أزال أبول في حفَّاضتي وقتها. لكنهما في السابعة عشرة مثلي!»

- «ثم ماذا؟»

- «مال جارسيا على الطاولة وقال إنني لن أستطيع النيل منك كما ينبغي إن كنت لا أدري متى تغادر المدرسة حتى. ثم سألني عما كنت أنتويه، فقلت إنني كنت سأفرغ إطارات سيَّارتك الأربعة فحسب.»

ثم أضاف مدافعًا:

- «لكني لم أكن سأفعل ذلك حتى! فقط قلت له هذا لأنني...»

- «كنت خائفًا؟»

- «نعم، وما زلت.»

– «وماذا كان رأيهما في فكرتك؟»

ارتجف أوزواي وهو يجيب:

– «قال لوسون: أهذا كل ما لديك أيها الأبله؟ فقلت محاولًا أن أبدو خشنًا: وماذا ستفعل أنت؟ ستقتله؟ عندها بدأ جفن جارسيا في الارتعاش وأخرج شيئًا من جيبه فتحه فوجدته مدية، وعندها غادرت.»

– «متى كان هذا؟»

– «ليلة أمس. إنني خائف من الجلوس معهما الآن يا مستر نورمان.»

خفض چيم ناظريه إلى الأوراق التي كان يُصحِّحها دون أن يراها، فسأله أوزواي:

– «ماذا ستفعل؟»

– «لا أدري. لا أدري حقًّا.»

***

وجاء اليوم التالي –الاثنين– وهو لا يزال لا يدري. أول خاطر راوده كان أن يحكي كلَّ شيءٍ لسالي بدايةً بمقتل أخيه منذ ستة عشر عامًا، لكنه رأى هذا الخيار مستحيلًا. سوف تتعاطف معه بالتأكيد، لكنها لن تُصدِّقه وسينتابها الخوف بدورها.

سيمونز؟ مستحيل أيضًا، فسيحسبه بالتأكيد مجنونًا، ولعله مجنون بالفعل. كان قد سمع من رجلٍ في واحدةٍ من جلسات العلاج الجماعي التي حضرها أن الإصابة بالانهيار العصبي تُشبه أن تكسر مزهريَّة ثم تعيد لصق القطع معًا. لا يمكنك أن تعتمد على قدرتك على التعامل مع المزهريَّة بثقةٍ بعدها ثانيةً أبدًا، وَلا يمكنك أن تضع فيها زهورًا لأن الزهور تحتاج إلى ماء، والماء يُذيب الصَّمغ.

هل أنا مجنون إذن؟

إذا كان مجنونًا، فتشيب أوزواي مجنون بدوره. فكَّر في هذا وهو يركب سيَّارته، وولَّد هذا قشعريرة في جسده.

بالطبع! لقد هدَّده لوسون وجارسيا في حضور أوزواي، وقد لا يكون لهذا قيمة كبيرة من الناحية القانونيَّة، لكنه يستطيع على الأقل أن يحرمهما من دخول المدرسة إذا استطاع إقناع أوزواي بتكرار قصته أمام المدير فنتون، وكان متأكِّدًا إلى درجةٍ كبيرة بقدرته على إقناع أوزواي الذي كان يرغب في بقائهما بعيدًا عنه بدوره.

لكنه لسببٍ ما ظلَّ يُفكِّر في ما حدث لبيلي ستيرنز وكاثي سلاڤين.

خلال الحصَّة الأولى التي لا يعمل فيها صعد إلى مكتب سكرتيرة المدرسة التي كانت تُراجع قائمة الغياب، وسألها بأسلوبٍ عرضي إن كان تشيب أوزواي قد جاء اليوم، فنظرت إليه في شكٍّ وهي تُردِّد:

– «تشيپ؟»

– «تشارلز أوزواي. تشيپ اسم مستعار.»

تصفَّحت أوراقها في سرعة، ثم قالت إنه متغيِّب اليوم، فطلب منها أن تجد له رقم هاتف الولد. ناولته السكرتيرة الرقم بعد أن راجعت ملف أوزواي، فطلبه من مكتبها في الحال. رنَّ الهاتف على الطرف الآخر كثيرًا، وكان على وشك وضْع السمَّاعة عندما أجابه صوت خشن لرجل.

– «مستر أوزواي؟»

– «باري أوزواي متوفٍّ منذ ست سنوات. أنا جاري ديكنچر.»

– «هل أنت زوج أُم تشيپ؟»

– «ماذا فعل بالضبط؟»

– «معذرةً؟»

– «لقد هرب. أريد أن أعرف ما فعله بالضبط.»

– «لا شيء على حدِّ علمي. أريد أن أكلِّمه فقط. هل تعرف أين قد يكون؟»

– «لا. إنني أعمل ليلًا، ولا أعرف أيًّا من أصدقائه.»

– «هل تدري إن...»

– «كلا. لقد أخذ حقيبة الملابس القديمة وخمسين دولارًا لا بد أنه ادَّخرها من بيع أجزاء السيَّارات المسروقة أو بيع الماريجوانا. أو أيًّا كان النشاط الإجرامي الذي يُمارسه. لعله ذهب إلى سان فرانسسكو ليصبح هيبي.»

– «أرجو أن تتَّصل بي في المدرسة إذا سمعت منه. أنا چيم نورمان من قسم اللغة الإنجليزية.»

– «ليكن.»

وضع چيم السمَّاعة ومنحته السكرتيرة ابتسامةً بلا معنى، لكنه لم يُبادلها الابتسام.

بعد يومين ظهرت عبارة (تَرَكَ المدرسة) إلى جوار اسم تشيپ أوزواي في دفتر الحضور والغياب، وبدأ چيم ينتظر ظهور سيمونز بملفٍّ لطالب جديد، ما حدث بالفعل بعد أسبوع. تطلَّع چيم في بلادة إلى الصورة التي لم يكن هناك مجال للخطأ فيها. كان الشعر القصير قد استطال لكنه ما زال أشقر، والوجه لم يتغيَّر. ڤينسنت كوري، أو ڤيني كما يناديه أصدقاؤه. كان يرمق چيم من الصورة وعلى شفتيه ابتسامة متغطرسة.

كانت خفقات قلبه مضطربة كثيرًا إذ دنا من الغرفة التي يُدرِّس فيها الحصَّة السابعة. كان لوسون وجارسيا وڤينسنت كوري واقفين إلى جوار الباب يتبادلون الحديث العابث، لكنهم اعتدلوا في وقفتهم عندما اقترب منهم. استقبله ڤينسنت بابتسامته الواثقة، لكن النظرة في عينيه كانت ميتة باردة كالجليد وهو يقول:

- «لا بد أنك مستر نورمان. أهلًا نورم!»

أطلق لوسون وجارسيا ضحكة مكتومة، بينما قال جيم متجاهلًا يد ڤيني الممدودة:

- «اسمي مستر نورمان.من السهل أن تتذكّر هذا،أليس كذلك؟»

- «بكلّ تأكيد. كيف حال أخيك؟»

تجمَّد جيم في مكانه وشعر بالبول يحتشد في مثانته يكاد يُفجِّرها، ومن مكانٍ بعيد كأنه دهليز في موقعٍ سحيقٍ من جمجمته سمع الصوت الشبحي يتردَّد.

انظر يا ڤيني، لقد بلّل سرواله!

- «ما الذي تعرفه عن أخي؟»

- «لا شيء. أو لا شيء كثيرًا على الأقل.»

وابتسم ثلاثتهم في وجهه تلك الابتسامة الخاوية المنذرة بالويل، ثم دقَّ جرس الحصَّة فدلفوا إلى الداخل في تراخٍ مُستفِز.

***

كابينة الهاتف القريبة من الصيدليَّة، العاشرة مساءً تلك الليلة...

- «أريد الاتصال بقسم الشرطة في ستراتفورد، كونيتيكيت. لا، لا أعرف الرقم.»

اسم الشُّرطي المطلوب مستر نل. في تلك الأيام كان أبيض الشعر، في منتصف العقد السادس من العمر غالبًا. كان أبوهما قد مات، وبشكلٍ ما عرف الشُّرطي العجوز هذا فرقَّ قلبه لهما.

أنا مستر نل. يمكنكما المجيء إليَّ إذا احتجتما أيَّ شيء.

اعتاد چيم وواين اللقاء كلَّ يومٍ وقت الغداء في مطعم البلدة الصغير لتناوُل طعامهما الذي كانت أمهما تعده لهما، وكانت أمهما تعطي كلًّا منهما خمسة سنتات لشراء الحليب. كان هذا قبل بدء برنامج توزيع الحليب على التلامذة في المدارس الأمريكية. أحيانًا كان مستر نل يأتي إلى المطعم وتسمع أنين حزامه تحت ثقل بطنه الكبيرة ومسدَّسه الحكومي، فيبتاع لكلٍّ منهما فطيرة التفاح مغطَّاة بالآيس كريم.

أين كنت عندما طعنوا أخي يا مستر نل؟

تمَّ الاتِّصال ورنَّ الهاتف مرَّة واحدة على الطرف الآخر.

– «شُرطة ستراتفورد.»

– «مرحبًا. اسمي چيمس نورمان، أتَّصل من... (وذَكَر اسم المدينة)... كنت أتساءل إن كان يمكنكم إيصالي برجلٍ كان يعمل في القسم لديكم سنة 1957.»

– «لحظة واحدة.»

صمْت، ثم صوت...

– «مستر نورمان، أنا الرقيب مورتون ليڤينجستون. بمن تحاول الاتّصال؟»

– «كنا نعرفه وقتها باسم مستر نل، فهل...»

– «بالتأكيد! دون نل! إنه متقاعد الآن. لا بد أنه في الثالثة أو الرابعة والسبعين من عمره.»

– «أما زال يقطن في ستراتفورد؟»

– «نعم، في بارنوم آڤنيو. هل تريد عنوانه؟»

– «ورقم الهاتف إذا سمحت.»

– «حسَن. هل كنت تعرف دون؟»

– «كان يبتاع فطائر التفاح لي ولأخي في المطعم الصغير ونحن صغار.»

– «آه! لم يعد المطعم موجودًا منذ عشرة أعوام. خسارة. انتظر لحظة.»

ثم عاد الرقيب إلى الهاتف بالعنوان والرقم اللذين دوَّنهما چيم وشَكَر الرجل قبل أن يُغلق الخط.

عندما طلب رقم الشُّرطي المتقاعد وسمع نغمة الرنين شعر بتوتُّرٍ ساخن يُفعمه، وبحركةٍ غريزية تطلّع حوله فلم يجد إلا فتاةً مُراهِقة تطالع مجلة ما.

رفع أحدهم السمَّاعة على الطرف الآخر، وجاءه صوت رجولي قوي لا يشي بسرٍّ صاحبه أبدًا يتساءل عن المتَّصل، وولَّد هذا في عقل چيم سلسلة من الذكريات والمشاعر ذكَّرته بمتلازمة پاڤلوف، التي قد تصاب بها إذا سمعت أغنية قديمة تعرفها تخرج من الراديو.

- «مستر نل؟ دونالد نل؟»

- «نعم.»

- «اسمي چيمس نورمان. هل تذكرني؟»

أجاب الصوت في الحال:

- «نعم. فطائر التفاح بالآيس كريم. قُتل أخوك طعنًا. كان هذا مؤسفًا.»

ارتكن چيم إلى زجاج كابينة الهاتف وقد غادر التوتُّر جسده تاركًا إياه خاويًا كدُمية من التي تُنفَخ. وجد نفسه على حافَّة الإفصاح بكلِّ شيءٍ للرجل، لكنه قاوم هذه الرغبة في قوة.

- «ولم يُقبَض على من ارتكبوا الجريمة قَط.»

- «كلا. كان هناك عدد من المشتبَه بهم، لكن لم يتم إثبات الجريمة على أحدهم.»

- «هل تذكُر إن كان أحدهم قد تلا عليَّ أسماءهم؟»

- «لم يحدث. لقد استخدمنا الأرقام فقط أثناء عرض المشتبه بهم عليك. ما الذي ذكَّرك بهذه القضيَّة الآن يا مستر نورمان؟»

- «دعني أتلو عليك بضعة أسماء، وأخبرني إن كانت تُذكّرك بأيّ شيءٍ له علاقة بالقضيَّة.»

- «بني، كان هذا منذ...»

قاطعه چيم وقد بدأ مقدار من اليأس في التسلُّل إليه:

- «لكنك قد تتذكّر. روبرت لوسون، ديڤيد جارسيا، ڤينسنت كوري... هل...»

قاطعه نل هذه المرَّة قائلًا:

- «كوري. نعم، أذكره. ڤيني الأفعى كان اسم شهرته. كان أحد المشتبَه بهم بالفعل، لكن أمه زوَّدته بحجَّة غياب قوية. لا أذكر شيئًا عن روبرت لوسون، لكن جارسيا هذا يدق جرسًا في ذاكرتي، لا أدري لماذا. لقد صرت عجوزًا على كلِّ حال.»

حملت العبارة الأخيرة نوعًا من الاشمئزاز في صوت الرجل.

- «مستر نل، هل من وسيلة تعرف بها أين يوجد هؤلاء الأولاد الآن؟»

- «بالطبع، لكنهم لم يعودوا أولادًا.»

فعلًا؟

- «اسمع يا چيمي، هل ظهر أحدهم وتحرَّش بك مثلًا؟»

- «لا أدري. هناك أشياء غريبة تحدث منذ فترة، أشياء لها علاقة بمصرع أخي.»

– «أشياء مثل ماذا؟»

– «لا أستطيع أن أخبرك. ستحسبني مخبولًا.»

جاء الرد سريعًا حازمًا:

– «وهل أنت كذلك؟»

صمت چيم لحظة ثم أجابَ:

– «لا.»

– «حسن، سأرى ما يمكنني أن أفعله بشأن الأسماء. أين يمكنني الاتِّصال بك؟»

أملى عليه چيم رقم هاتفه المنزلي، ثم أضاف:

– «ستجدني في الغالب ليلة الثلاثاء.»

كان متواجدًا بالمنزل كلَّ ليلةٍ تقريبًا، لكن سالي كانت تتلقَّى دروس النحت في ليالي الثلاثاء.

– «ماذا تفعل هذه الأيام يا چيمي؟»

– «أستاذ في مدرسةٍ ثانويَّة.»

– «عظيم. قد يستغرق الأمر بضعة أيام. إنني متقاعد الآن كما تعلم.»

– «لم يتغيَّر صوتك أو أسلوبك إطلاقًا.»

— «آه، «لكن للكن رأيتني رأيتليها! زألف زتلكل تأكل فطائر فطائفا التفاالأخرىالأ يس كريم؟كريم؟»

— «طبعًا طبعًا.»

كان يكلّب يكملفقد ثقافو عقليتها منها زمنٍ طويل طويل.

— «هذا «هذا الذي يعيش عيش هنا، كان هناك هنالك شيء آخر، آخر فسوف...»

— «ثمّة شيء شيء آخر هنا هنالك هنالك معقد رأسهم بمسيلفو ميطفو الثاني ثانية في ستر اتفوتر الكبر د؟»

— «ليس «لعلي عليّ علمي عليهي.»

— «كما «كما طبعًا.»

— «الشيء المثالي حيلو الذي الحميل هنا الأسلم لأهنا هنا مقاييس مقيلفو ميطفور د، وبالطبع الطبيعة يخرج فيها فيها!»

وأطلق أطلق قهقهة قهقهة قصيرة قصيرة وقعها وقعها في أذني أذني كالبرتقال الطام تتعاظم العظام بعضها لبعض لبعض.

سمع نفسه نفسه ذهب التعب، ولم يعد يرى يلاحقها التي تحيلت بتأملق أغلق الخطاط امنط من ناحيتنا حيث سمع وسمع حاملًا عالما لها يتطلب بطلب منه، أنه بأن عين سنتين سنيّا في الماكينة كونت فيها شكل شكل آلي، آلي، استعد استعد لربما الكابل الكابل فقط فلم يجد ليجد نفسه يحدق محدّقًا في وجه وجهٍ ملتصق ملتصقًا بجانب جانب زجاج يتسم بابتسامة مخيفة مخيفة.

كان كانه وجهه وجهي، قليلًا قليلًا فعلًا...

وصرخ چيم حتى بُحَّ صوته.

الفصل مرَّة أخرى...

كان قد كلَّف طلبة (الحياة مع الأدب) بكتابة موضوع إنشاء، وكان معظمهم منحنيًا في تعاسةٍ على ورقته يصب فيها أفكاره. معظمهم لأن ثلاثة منهم جلسوا يراقبونه وقد فرغت أوراقهم من أيِّ كلمات: روبرت لوسون جالسًا في مقعد ويليام ستيرنز، وديڤيد جارسيا في مقعد كاثرين سلاڤين، وڤينسنت كوري في مقعد تشارلز أوزواي.

قبل أن يدق الجرس معلنًا نهاية الحصَّة أشار چيم إلى ڤيني قائلًا في هدوء:

– «مستر كوري، أريد أن أتكلَّم معك بعد الحصَّة.»

– «بالتأكيد يا عزيزي نورم.»

ضحك لوسون وجارسيا بصوتٍ عالٍ بينما لاذ بقيَّة الطلبة بالصمت، وعندما دقَّ الجرس سلَّموه أوراقهم وغادروا في سرعة. ظلَّ جارسيا ولوسون في مكانيهما، وشعر چيم بأحشائه تتوتَّر.

هل سيقتلوني الآن إذن؟

ثم أشار لوسون برأسه إلى ڤيني قائلًا:

– «نراك لاحقًا.»

غادرا وأغلق لوسون الباب وراءهما، ثم من وراء الكوة الصغيرة في الباب صاح جارسيا فجأةً بصوتٍ مبحوح:

– «سيأكل نورم التراب قريبًا!»

نظر ڤيني ناحية الباب، ثم عاد ينظر إلى چيم مبتسمًا وقال:

– «كنت أتساءل متى ستطلب الكلام معي.»

– «حقًّا؟»

– «لقد أثرت فزعك في كابينة الهاتف، أليس كذلك يا والدي؟»

– «لم يعد أحد يستخدم هذه الكلمة مع من هُم أكبر منه.»

– «وأنا أتكلّم كما أشاء.»

– «أين رفيقكم الآخر ذو الشعر الأحمر؟»

– «انفصل عن مجموعتنا يا رجل.»

لكن چيم أحسَّ نوعًا من الحذر متواريًا تحت الإجابة التي حاول ڤيني أن تكون لامبالية.

– «إنه حي، أليس كذلك؟ لهذا السبب ليس موجودًا هنا. إنه حي وفي الثانية أو الثالثة والثلاثين الآن، نفس السِّن التي يُفترَض أن تكونوا فيها لو لم...»

– «لطالما كان بليتش نكرةً على كلِّ حال.»

واعتدل في مقعده فاردًا يديه على المكتب وأضاف ولمعة ما تلوح في عينيه:

– «ما زلت أذكرك يوم عرضوا المشتبَه بهم عليك. بدوت كأنك ستُبلّل سروالك مرَّة أخرى. لقد رأيتك تنظر إليّ وإلى جارسيا، لكنني ألقيت لعنتي عليك.»

– «أظنك فعلت حقًّا. لقد أعطيتني ستة عشر عامًا من الكوابيس. ألم يكن هذا كافيًا؟ لماذا الآن؟ ولماذا أنا؟»

بدا ڤيني مرتبكًا للحظة، ثم ابتسم من جديد وهو يجيب:

– «لأنك عمل غير مكتمل يا رجل، ويجب أن نتم ما بدأناه.»

– «وأين كنتم قبل هذا؟»

شاب ابتسامة ڤيني شيء من القسوة وهو يقول:

– «إننا لن نتكلّم عن هذا، مفهوم؟»

– «لقد حفروا لك قبرًا يا بني، قبرًا على عمق ستة أقدام في مقابر ميلفورد. ستة أقدام من الـــ...»

– «اخرس!»

وانتفض واقفًا بعنفٍ جعل المكتب ينقلب على جانبه في الممر، وقال چيم:

- «لا تحسبوا أنني سأكون فريسةً سهلة.»

- «سوف نقتلك يا والدي، وعندها ستعرف بنفسك كلَّ شيءٍ عن القبور.»

- «اخرج من هنا.»

- «وربما زوجتك الحسناء كذلك.»

انقضَّ عليه چيم شاعرًا بالانتهاك والفزع على ذِكر سالي صارخًا:

- «أيها الحقير! إذا مسستموها...»

تفاداه الولد في بساطة واتجه نحو الباب قائلًا:

- «حنانيك يا والدي.»

- «إذا مسستم زوجتي سأقتلكم.»

اتسعت ابتسامة ڤيني وهو يقول في سخرية:

- «تقتلنا؟ حسبتك تعرف أننا موتى بالفعل.»

وغادر تاركًا صدى خطواته يتردَّد في الرواق لوقتٍ طويل.

***

- «ماذا تقرأ يا عزيزي؟»

أدار چيم غلاف كتاب (استدعاء الشياطين) ناحية المرآة التي تُمشِّط فيها شعرها، فقالت:

- «يَك!»

ابتسم بوسلهم وسألها:

— «هل ستلتقين بالتي كلمتك في طريق العودة؟»

— «إنها مضيفة أو ابنة أو ربما قريبة مساكنة، كانت أكثر ما أذكر المتنبي المفيد مفيد للريجيم يا ابنتي.»

قال كاذبًا:

— «أحد هؤلاء تعرض لحالة هزة في طريق الباب الفني يستر يظنها أظنها كانت كالحلوى لها علاقة بالصب.»

— «حقًا؟ حقًا؟ من؟»

اختلق خلقًا عنها لئيلاً ملائمًا سريعًا:

— «اسمها أميليا ميلنو. سفيرة فترة مؤهلة مخففًا. هل قلت التي كلمتك كسي وأنت عائدة مع أمك أجل أجل تلتقيها؟»

هزت رأسها أن لا، بألم، توقفت قعدت المقعد الجالس عليه عليه ووضعت يديها عليها وجنتيه ونظرت في عينيه عميقًا قائلة:

— «ماذا هناك يا صغيري؟»

— «لا شيء لا شيء.»

— «بل هناك شيء.»

— «ليس شيئًا لا أستطيع التعامل معه.»

- «أهو شيء... أهو شيء يتعلّق بأخيك؟»

هبَّ تيّار من الهواء البارد بداخله كأن أحدًا قد فتح بابًا في أعماقه، وقال في ارتباك:

- «لِمَ تقولين هذا؟»

- «كنت تئن باسمه في منامك ليلة أمس. واين، واين. اهرب يا واين.»

- «لا تشغلي بالك. كلُّ شيءٍ على ما يرام.»

ولم يكن كلُّ شيءٍ على ما يرام بالطبع، وكلاهما كان يعرف هذا. راقبها وهي تغادر من وراء النافذة، وفي الثامنة والرُّبع تقريبًا جاءه الاتِّصال المنتظَر من مستر نل الذي قال:

- «لا يُقلقنَّك شيء من أمرهم. لقد ماتوا جميعًا.»

كان يضع إصبعه على الصفحة التي توقَّف عندها في كتاب (استدعاء الشياطين) وهو يتكلَّم.

- «هكذا إذن؟»

- «حادث سيَّارة بعد ستة شهور من مقتل أخيك أثناء مطارَدة شُرطي لهم. فرانك سايمون كان اسمه. إنه يعمل في سيكورسكي الآن، وغالبًا يتلقَّى أجرًا أكبر بكثير.»

– «وتحطّمت سيّارتهم؟»

– «لقد خرجت السيّارة عن الطريق بسرعة مائة ميل في الساعة وارتطمت ببُرجٍ للضغط العالي، وعندما فصلوا الكهرباء أخيرًا وأخرجوهم من السيّارة كانوا قد تفحّموا تمامًا.»

أغلق چيم عينيه وسأله:

– «هل رأيت التقرير؟»

– «طالعته بنفسي، نعم.»

– «وهل من معلوماتٍ عن السيّارة نفسها؟»

– «مجرَّد سيّارة قديمة تم تجديد محرِّكها. فورد سوداء طراز 1954 تحمل عبارة (عيون الثعبان) على جانبها.»

– «كان معهم ولد رابع يا مستر نل. لا أعرف اسمه الحقيقي، لكنهم أطلقوا عليه اسم بليتش.»

قال العجوز بلا تردُّد:

– «تتكلّم عن تشارلي سپوندر. أذكر أنه غسل شعره بالكلور ذات مرّة فاستحال لونه إلى الأبيض، وعندما حاول صبغه اكتسب اللون البرتقالي.»

– «هل تعرف أين هو الآن؟»

– «في الجيش. التحق بالخدمة العسكريَّة سنة 58 أو 59 بعد أن حملت منه فتاة.»

– «هل من وسيلةٍ للاتِّصال به؟»

– «أمه ما زالت تعيش في ستراتفورد. لا بد أنها تعرف.»

– «أريد عنوانها إذن.»

– «لن أعطيك إياه يا جيمي، ليس قبل أن تُخبرني بما يحدث.»

– «لا أستطيع يا مستر نل. قلت لك إنك ستحسبني مخبولًا.»

– «جرِّبني.»

– «لا أستطيع.»

– «وهو كذلك يا بني.»

– «هل ستعطيني العنوان إذن؟»

لكن الخط كان قد قُطع.

– «الوغد العجوز!» غمغم بها جيم في حنق وهو يضع السمَّاعة مكانها في عنف، فأحدثت رنينًا أجفل له كأن الهاتف قد أحرق يده.

تطلَّع جيم متنفِّسًا في عُمق إلى الهاتف الذي بدأ يرن فجأةً بعد قليل، وبعد الرنين الرابع رفع السمَّاعة مصغيًا.

وأغلق عينيه في انهيارٍ تام.

أوقفه شُرطي في الطريق إلى المستشفى، ثم سبقه وسارينته تولول لإفساح الطريق.

كان هناك طبيب حديث السن في غرفة الطوارئ رمق چيم بنظرةٍ خاليةٍ من المشاعر.

- «معذرةً، أنا چيمس نورمان، و...»

- «تقبَّل أسفي يا مستر نورمان. لقد ماتت في التاسعة وأربع دقائق.»

كان على شفا فقدان الوعي. شعر بالأرض تميد به وبطنينٍ صاخبٍ في أذنيه، وجاست عيناه في المكان بلا هدف محدَّد. الجدرانُ المغطَّاةُ بالقرميد الأخضر،محفَّة تلتمع تحت المصابيح الفلورسنت، ممرِّضة تعدل وضع قبَّعتها المائلة، ممرِّض مستند إلى الجدار خارج غرفة الطوارئ يرتدي زيًّا أبيض تلطَّخ من الأمام ببُقعٍ من الدم ويُنظِّف أظفاره بسكِّين.

يرفع الممرِّض عينيه إلى چيم ويبتسم ابتسامة واسعة.

ديڤيد جارسيا.

وادلهمَّ كلُّ شيءٍ أمام عينيه، ومادت الأرض تحت قدميه، وسقط چيم فاقدًا الوعي.

الجنازة كمسرحيَّة من ثلاثة فصول: المنزل، ثم الكنيسة، ثم المقابر. وجوه تأتي من لا مكان، تدور وتدنو ثم تدور وتبتعد في الظلام. أم

سالي عيناها محمرَّتان من فرط البكاء من وراء حجاب الوجه الأسود. أبوها يبدو هرِمًا مصدومًا. سيمونز وآخرون. يُقدِّمون أنفسهم إليه ويصافحونه، فيهز رأسه دون أن يذكر اسمًا واحدًا من أسمائهم. أحضرت بعض النساء طعامًا، وأحضرت واحدة منهن فطيرة تفاح التهم منها أحدهم قطعة، وعندما رآها جيم وهو يدخل المطبخ وهي تنز ما بداخلها من عصيرٍ كالدم الكهرماني في الطبق، فكَّر أن الفطيرة ينقصها بعض الآيس كريم على الوجه.

شعر برجفةٍ في يديه وساقيه وقد تملَّكته رغبة في أن يأخذ الفطيرة ويقذفها على الحائط.

ثم غادروا وقد أخذ يشاهد نفسه من الخارج كما تشاهد نفسك في فيلم ڤيديو منزلي.

شكرًا لكَ. نعم، سأفعل. شكرًا لكِ. أنا واثق بأنها في مكانٍ أفضل. شكرًا لكَ.

أصبح المنزل له وحده مرَّة أخرى بعد رحيلهم، فعمد إلى رفٍّ المدفأة الزاخر بتذكارات زواجهما. دُمية جرو كانت قد فازت بها في ملاهي كوني آيلاند في شهر عسلهما، شهادتا تخرُّجهما من الجامعة الخاطتان بإطارين أنيقين، نرد كبير أهدته إياه على سبيل الدعابة بعد أن خسر ستة عشر دولارًا في لعبة بوكر قبل عامٍ ونيف، قدح قهوة من الخزف الصيني كانت قد اشترته من سوق السلع المستعملة في

كليفلاند العام الماضي، صورة زفافهما تتوسَّط رفَّ المدفأة. قَلَب الصورة على وجهها، ثم جلس أمام شاشة التليفزيون المغلَق وقد بدأت فكرة تتكوَّن في عقله.

بعد ساعة تقريبًا رنَّ الهاتف لينتزعه من أفكاره، فرفع السمَّاعة ليسمع الصوت الرهيب.

– «عزيزي نورم، أنت التالي.»

– «ڤيني؟»

– «أريدك أن تتخيَّل منظرها وقد انتثرت أشلاؤها على الأرض.»

– «ڤيني، سأكون في المدرسة الليلة، الغرفة **33**. سأترك الأنوار مطفأة. سوف نعيد إحياء تلك الليلة عند جسر السكك الحديديَّة. بل إنني أعتقد أني أستطيع تدبير قطارٍ كذلك.»

– «تريد أن ينتهي كل شيء، أليس كذلك؟»

– «هذا صحيح. وستكونون هناك.»

– «ربما.»

– «بل ستكونون هناك.»

وأغلق الخط.

***

كان الظلام على وشك أن يبسط سلطانه بالكامل عندما وصل چيم إلى المدرسة.

ركن السيَّارة في مكانه المعهود، ثم دخل المدرسة من الباب الخلفي مستخدمًا مفتاحه الذي سلَّمته المدرسة له، واتَّجه أولًا إلى قسم اللغة الإنجليزية في الطابق الثاني. دخل المكتب وفتح خزانة الاسطوانات الموسيقيَّة وانتقى واحدةً منها تحمل عنوان (مؤثِّرات صوتيَّة هاي فاي). كانت المقطوعة الثالثة على غلاف الاسطوانة الخلفي تحمل عنوان (قطار الخوف) ومدَّتها ثلاث دقائق وأربع ثوانٍ. وضع الاسطوانة في جهاز الستريو الخاص بالقسم، ثم أخرج كتاب (استدعاء الشياطين) من جيب معطفه وفتحه على فقرةٍ كان قد وضع عندها علامة، وقرأ شيئًا ثم هزَّ رأسه، قبل أن يطفئ الأنوار ويغادر المكتب حاملًا الستريو.

***

الغرفة 33...

ركّب جيم الستريو مباعدًا بين السمّاعات قدر الإمكان، ثم شغّل مقطوعة (قطار الخوف)، فجاء الصوت من بعيدٍ في البدء، قبل أن يملأ الغرفة كلها بهدير محرّكات الديزل والفولاذ الذي يجري على الفولاذ. إذا أغلق عينيه كان بإمكانه أن يتخيَّل نفسه وقد قيَّده الأوغاد عند جسر السكك الحديديَّة،بينما تمضي القصة الدراميَّة القاسية إلى نهايتها المعروفة.

فتح جيم عينيه وشغَّل المقطوعة من جديد، ثم جلس إلى مكتبه وفتح كتاب (استدعاء الشياطين) على فصلٍ عنوانه (الأرواح وكيف تستدعيها). كانت شفتاه تتحرّكان مع السطور التي يقرأها، ثم يصمت على فتراتٍ وهو يُخرج أشياء من جيبه ويرصُّها على المكتب.

أولًا كانت هناك صورة قديمة مجعَّدة الأطراف مع أخيه وهما واقفان في الحديقة الصغيرة أمام البناية التي كانا يسكنانها في شارع برود ستريت. في الصورة كان كلاهما ذا قَصة شعرٍ قصيرة ويبتسمان للكاميرا في خجل. وثانيًا كانت هناك زجاجة صغيرة من الدم الذي حصل عليه من قطة ضالّة قطع عنقها بسكّين الجيب الذي يحمله معه. وثالثًا سكّين الجيب نفسه. وأخيرًا عصابة لامتصاص العرق مزّقها من قبّعة بيزبول قديمة، قبّعة واين. كان جيم يحتفظ بها سرًّا على أمل أن يُنجب وسالي ابنًا ذات يومٍ فيرتديها.

نهض إلى النافذة وتطلّع إلى الخارج، لكن المرأب كان خاويًا.

بدأ يدفع المكاتب والكراسي نحو الجدران صانعًا دائرةً في منتصف الغرفة، ثم إنه التقط إصبع طبشور من دُرج مكتبه واتّبع الرسم البياني الموجود في الكتاب بالضبط ليرسم نجمة خماسيّة على الأرض.

كانت أنفاسه قد أضحت أكثر ثقلًا الآن. أطفأ الأنوار وجمع الأشياء التي جلبها معه في يدٍ واحدة وبدأ يتلو.

– «أبانا أبا الظلام، اسمعني من أجل روحي. بالتضحية أتعهّد، وعطية سوداء أطلب، وانتقام اليد اليُسرى أنشُد، والدم قد جلبت معي كوعدٍ بالتضحية.»

وفتح الزجاجة – التي كانت تحوي زبدة الفول السوداني في مطبخه من قبل– وصبَّ محتوياتها داخل النجمة الخماسيَّة.

ثم إن شيئًا ما حدث في الغرفة المظلمة. من غير الممكن أن تقول ماذا بالضبط،لكن الهواء أصبح أكثر ثقلًا وصار له سُمك يملأ كيانك. ازداد الصمت عُمقًا وقد احتلّه شيء غير مرئي.

والآن أصبح في الهواء إحساس ذكّر چيم بالمرَّة التي زار فيها محطّة طاقة عملاقة في رحلةٍ مدرسيَّة، إحساس بأن الهواء مفعم بالكهرباء والذبذبة.

ثم إن صوتًا كريهًا خفيضًا بدأ يُكلِّمه..

- «ماذا تطلب؟»

لم يعرف إن كان يسمع الصوت فعلًا أم أنه يتخيَّله فقط، لكنه نطق عبارتين.

- «عطية صغيرة هي. ماذا تهب؟»

فنطق چيم كلمتين، فهمس الصوت:

- «كلاهما. الأيمن والأيسر. تقبل؟»

- «أجل.»

- «فلتُعطني ما هو لي إذن.»

فتح چيم سكِّين الجيب وعمد إلى مكتبه، ثم فرد يده اليُمنى على سطح المكتب وبلا تردُّد بتر إصبع السبَّابة بأربع ضرباتٍ قوية، فتدفَّق الدم غزيرًا على الورق النشَّاف الذي كان قد فرده على سطح المكتب. لم يشعر بالألم على الإطلاق. ثم إنه أزاح الإصبع جانبًا والتقط السكِّين بيده اليُمنى، لكن قطْع السبَّابة اليُسرى كان أصعب بسبب الإصبع المفقود من يده والدم الذي جعل السكِّين يتزلق عدة مرَّات. في النهاية أطلق صيحة تنم عن نفاد الصبر، فألقى السكِّين بعيدًا وضغط على عظمة الإصبع حتى حطَّمها ليُحرِّره من جسده إلى الأبد. هكذا التقط چيم إصبعيه المبتورين وألقى بهما داخل النجمة الخماسيَّة، فسطع ضوء مبهر للحظةٍ كما لو أن مصوِّرًا فوتوجرافيًّا قديمًا يلتقط صورة في المكان. لم يكن هناك دخان ولا رائحة كبريت.

- «ما الأشياء التي جلبتها معك؟»

- «صورة وقطعة من القماش كانت قد تشرَّبت بعَرَقه.»

قال الصوت بنبرةٍ حملت الكثير من الشراهة وأثارت في جيم القشعريرة:

- «العَرَق نفيس. أعطني إياهما.»

فألقى الصورة والعصابة داخل النجمة الخماسيَّة وسطع الضوء مرَّة أخرى.

- «هل سيأتون؟»

لكن إجابةً لم تأتِ. لقد اختفى الصوت كأنه لم يكن موجودًا قَط. مال جيم على النجمة الخماسيَّة ليرى الصورة التي تفحَّمت بينما اختفت العصابة.

وفي الشارع كانت هناك أصوات؛ خافتة في البداية ثم بدأت تعلو وتقترب. نظرَ جيم من النافذة ليرى الفورد تدنو، فجلس في مكانه منتظرًا إن كانت ستدخل المرأب أم تمر به وتمضي.

ولم تمض لحظات حتى توقَّفت السيَّارة في المرأب.

***

خطوات أقدامٍ على السلالم، وصدى.

ضحكة روبرت لوسون المرتفعة، ثم أحدهم يقول «ششش!» ثم ضحكة لوسون من جديد. اقتربت الخطوات أكثر وفقدت صداها، ثم فُتح الباب الزجاجي عند قمة السلالم في عُنف.

– «يووهووو! نورمييي!»

هذا صوت ديڤيد جارسيا.

– «نورمي، هل أنت هنا؟»

هذا صوت روبرت لوسون، أما ڤينسنت كوري فلم يتكلّم.

مع اقترابهم من الغرفة استطاع چيم رؤية ظلالهم. كان ڤيني أطولهم، وكان يحمل شيئًا طويلًا في يده. وأخيرًا بلغوا باب الغرفة ووقفوا هناك ليرى ثلاثتهم يحملون السكاكين، وقال ڤيني في هدوءٍ مقيت:

– «ها قد جئنا من أجلك يا رجل. إن مؤخّرتك ملكنا الليلة.»

شغَّل چيم الأسطوانة، فوثب جارسيا في مكانه هاتفًا:

– «ما هذا؟»

كان قطار الخوف يقترب في سرعة ويرج الجدران. لم يعد الصوت قادمًا من السمّاعات فقط بل من كلِّ مكان، من الجدران ذاتها، هدير قطارٍ ينطلق على قضبانٍ في زمنٍ بعيد ومكانٍ آخر.

قال لوسون:

– «هذا لا يروق لي.»

وتقدَّم ڤيني ملوِّحًا بسكِّينه وقال:

– «أعطنا نقودك يا والدي.»

لنرحل من هنا.

لكن ڤيني لم يتردَّد، بل أشار للآخرين بأن يُطوِّقا چيم الذي رأى في عينيه تعبيرًا اعتقد بشدَّة أنه أقرب إلى الراحة.

سأله جارسيا فجأةً:

– «هلُم أيها الطفل. كم معك من نقود؟»

– «أربعة سنتات بالضبط.»

وكان هذا صحيحًا.

– «كذّاب!»

دعوه وشأنه.

نظر لوسون من وراء كتفه واتَّسعت عيناه. كانت الجدران قد اكتسبت بضباب كثيف، وأخذ عواء القطار يتردَّد بلا نهاية، أما الأضواء القادمة من مرأب السيَّارات فقد استحالت إلى لونٍ أحمرٍ قانٍ، تمامًا كاللافتة النيون التي كانت تعلو شركة المقاولات.

وشيء ما يخرج من قلب النجمة الخماسيَّة، شيء ذو وجه ينتمي لغلامٍ في الثانية عشرة من عمره، غلامٍ ذي قَصة شعرٍ قصيرة.

اندفع جارسيا إلى الأمام ولكم چيم في فمه، لكنه لم يشعر بأيِّ ألم.

كلُّ شيءٍ كان يمضي ببطءٍ قَدَري، وشعر چيم بثقلٍ مباغت بين فخذيه إذ أفرغت مثانته نفسها. نظر إلى أسفل ورأى بُقعة داكنة تنتشر في سرواله.

– «انظر يا ڤيني، لقد بلّل سرواله!»

الكلمات ذات رنينٍ ساخر، لكن التعبير على وجه جارسيا كان تعبير هلعٍ خالص، تعبير دُمية دبَّت فيها الحياة لتجد نفسها معلّقةً بخيوط لا فكاك منها.

دعوه وشأنه.

لم يكن هذا صوت واين، بل صوت الشيء الشرِه الذي استحضره چيم.

چيمي، اركض! اهرب من هنا!

يتزلق إلى أسفل متملّصًا من اليدين اللتين تمسكانه، ويثب بين الساقين كأنه ضفدعة. تلطمه يد على ظهره محاولةً الإمساك به لكنها تفشل.

ينظر إلى وجه ڤيني فيجده نموذجًا للكراهية المجسَّدة، وهو يطعن الشيء الذي ليس واين في صدره... ثم يصرخ ويتداعى وجهه، يسودُّ، يتفحَّم، يصبح شيئًا قبيحًا بشعًا.

ثم يتلاشى...

تمر لحظة يحاول فيها الآخران طعن الكيان الفتَّاك، لكن مصيرهما لا يختلف.

وتمدَّد چيم على الأرض يلتقط أنفاسه المتلاحقة.

كان أخوه ينظر إليه.

– «واين؟»

فيتبدَّل الوجه ويبدو كأنه يذوب، وتصفر العينان، ويمنحه الشيء أخبث ابتسامة رآها في حياته على الإطلاق.

سوف أعود.

قالها، ثم تلاشى بدوره.

نهض چيم وأغلق جهاز الستريو بيده المشوَّهة، قبل أن يمس بها شفتيه ليجدهما مبلّلتين بالدماء إثر لكمة جارسيا. أشعل الأضواء ليجد الغرفة خاليةً تمامًا من سواه، ثم نظر عبر النافذة إلى المرأب ليرى سيَّارته وحدها هناك. كان الهواء في الغرفة 33 مفعمًا برائحة كريهة كأنها رائحة القبور. مسح النجمة الخماسيَّة المرسومة على الأرض

وأعاد المكاتب والكراسي إلى أماكنها، وقد بدأ مكان البتر في يديه يوجعه في قسوة. يجب أن يرى طبيبًا بسرعة.

أغلق باب الغرفة وراءه ونزل السلالم في بطءٍ واضعًا يديه على صدره، وفي منتصف المسافة توقَّف، والتفت إلى الخلف ليرى شيئًا – ظلًّا ربما أو مجرَّد خيال– يتوارى في الظلام.

وتذكَّر چيم التحذير المكتوب في (استدعاء الشياطين) والخطر الذي ينطوي عليه ما فعله.

صحيحٌ أنه يمكنك أن تستدعيهم، ويمكنك أن تُكلِّفهم بعملٍ ما، بل ويمكنك حتى أن تصرفهم.

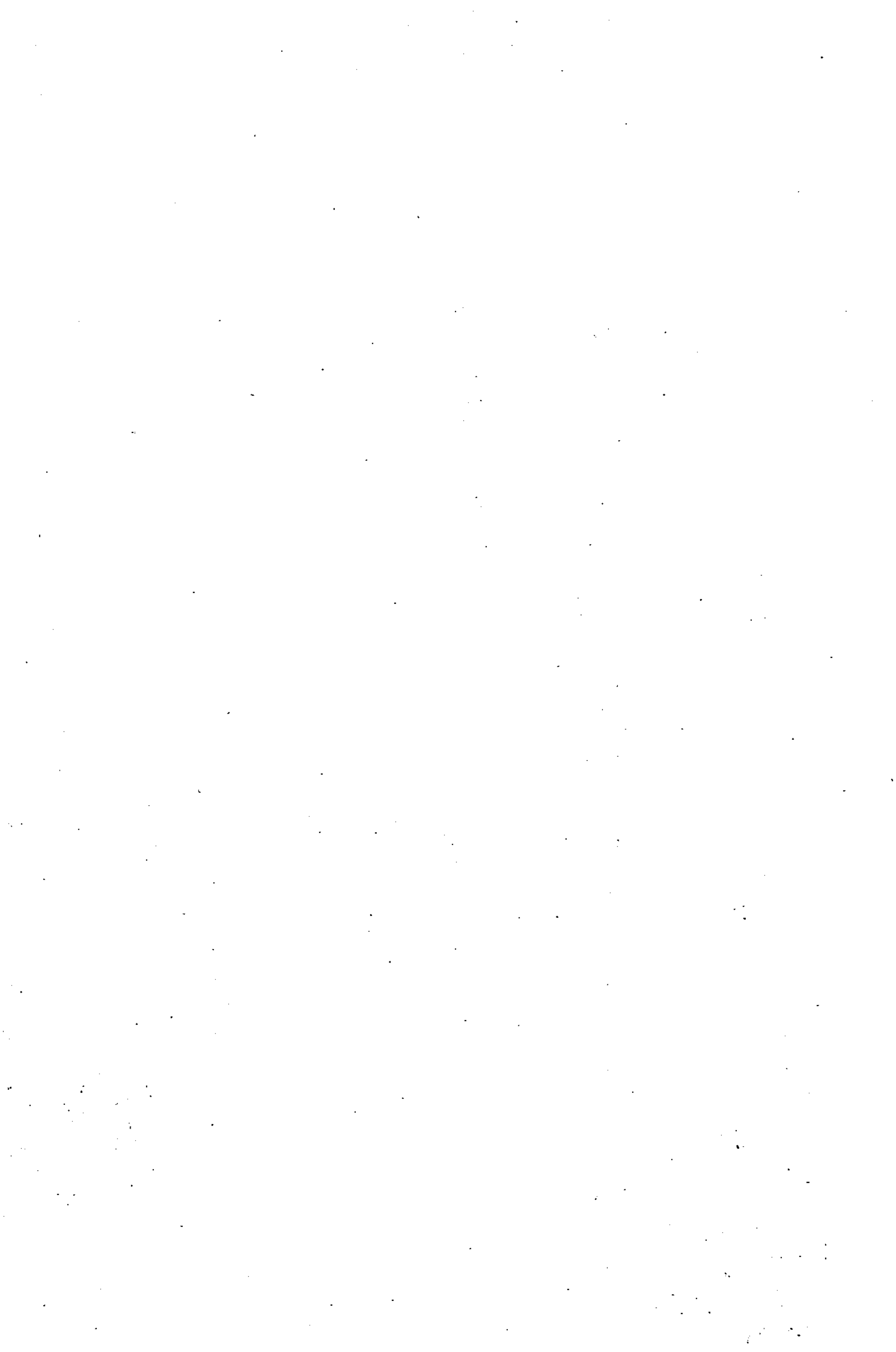
لكنهم يعودون أحيانًا...

عاد يواصل هبوط السلالم، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يتساءَل إن كان الكابوس قد انتهى حقًّا.

***



1408



مقدِّمة

بالإضافة إلى قصص من يُدفنون أحياء الشهيرة دائمًا، على كلِّ كاتب رعبٍ أو إثارة أن يكتب واحدةً على الأقل من قصص غُرف الفنادق المسكونة، وهذا هو تنويعي الشخصي على هذا النوع من القصص. الشيء الوحيد غير المعتاد في هذه القصة أني لم أكن أنوي أن أنهيها، حيث كنت قد كتبت الصفحات الثلاث أو الأربع الأولى فقط لإضافتها إلى ملحَق كتابي (عن الكتابة)، باغيًا أن أعرض على القارئ كيف تتطوَّر القصة من مُسوَّدتها الأولى إلى الثانية، والأهم أنني كنت أريد أن أقدِّم مثالًا على المبادئ التي ظللت أثرثر عنها طوال الكتاب. لكن شيئًا جيدًا حدث، إذ أغرتني فكرة القصة وانتهى بي الأمر وقد فرغت منها كلها. أعتقد أن الأشياء التي من شأنها أن تخيفنا تتباين كثيرًا من شخصٍ إلى آخر. لكن هذه القصة أخافتني شخصيًّا وأنا أكتبها. لقد ظهرت في البداية كجزءٍ من تسجيلٍ صوتي لعددٍ من قصصي اسمه (الدم والدخَّان)، وعندما سمعتها أخافتني أكثر، أخافتني حتى النُّخاع. لكن غُرف الفنادق أماكن مخيفة بطبيعتها حقًّا، ألا ترى ذلك؟ أعني، كم شخصًا سبقك إلى النوم في هذا الفراش؟ كم منهم كان مريضًا؟ كم منهم

كان يشعر بأنه يفقد عقله؟ كم منهم كان يُفكِّر ربما في قراءة بضع آياتٍ أخيرة من الكتاب المقدَّس الموضوع في دُرج الكومود المجاور للفراش قبل أن يشنق نفسه في الخزانة القريبة من التليفزيون؟

بررررر! على كلِّ حال دعونا ندخل. ها هو مفتاحك... ولربما كنت ترغب في استغراق بعض الوقت لتلاحظ مجموع تلك الأرقام الأربعة البريئة.

إن الغرفة 1408 تنتظرنا في نهاية الرواق.

***

1

كان مايك إنسلين لا يزال عند الباب الدوَّار في مدخل فندق دولفين عندما رأى المدير أولين جالسًا على أحد مقاعد اللوبي الوثيرة، فسقط قلبه بين قدميه وقال لنفسه:

– «ربما كان يجدر بي إحضار المحامي معي مرَّة أخرى رغم كلّ شيء.»

حسن، كان الأوان قد فات الآن، وحتى لو كان أولين قد قرَّر إلقاء المزيد من العقبات في الطريق بين مايك والغرفة **1408**، فلن يكون الموقف شديد السوء، فما زال لديه المزيد من البدائل.

كان أولين يعبر اللوبي مادًّا يده المكتنزة عندما تجاوَز مايك الباب الدوَّار. كان فندق دولفين يقع في الشارع **61** بالقُرب من فيفث آفنيو، وكان مكانًا صغيرًا لكن أنيق. مرَّ رجل وامرأة يرتديان ملابس السهرة إلى جوار مايك وهو يلتقط حقيبته بيُسراه ليمد يُمناه لمصافحة

أولين. كانت المرأة ترتدي اللون الأسود بالطبع، وبدت رائحة العطر الخفيف المنبعثة منها وكأنها تُلخِّص نيويورك على أكمل وجه. في المستوى العلوي كان أحدهم يعزف أغنية (الليل والنهار) في البار، كأنما ليؤكِّد هذا الانطباع.

- «مساء الخير يا مستر إنسلين.»

- «مستر أولين. هل توجد مشكلة؟»

بدا أولين متزعجًا، وللحظة نظر إلى اللوبي الصغير الأنيق حوله كأنما ينشد المساعدة. عند منصة البوَّاب كان هناك رجل يتكلَّم مع زوجته عن تذاكر المسرح، بينما لبث البوَّاب نفسه يراقب الزوجة بابتسامة صغيرة متأنية. عند المكتب الأمامي كان هناك رجل بمظهرٍ مبعثر (لا يُمكن أن يكتسبه المرء إلا بعد ساعات طوال من دراسة التجارة) يناقش حجزه مع امرأة ترتدي بذلة سوداء أنيقة. كان العمل يسير كما هو معتاد في فندق دولفين، والمساعدة في متناول الجميع، باستثناء أولين المسكين الذي وقع بين براثن بطلنا الكاتب.

كرَّر مايك:

- «مستر أولين؟»

- «مستر إنسلين... هل يمكنني التحدُّث إليك قليلًا في مكتبي؟»

حسن، ولِمَ لا؟ سيساعده هذا في كتابة ذلك الفصل عن الغرفة 1408، بالإضافة إلى وضع تلك اللمسة المشؤومة التي يبدو أن قرَّاءه

يُحبُّونها، ولم يكن هذا كل شيء. لم يكن مايك إنسلين واثقًا حتى الآن بالرغم من كلِّ الكر والفر الذي حدث من قبل، لكنه الآن أصبح متأكِّدًا تمامًا من أن أولين خائف حقًّا من الغرفة 1408 وما قد يحدث لمايك فيها الليلة.

– «بالطبع يا مستر أولين.»

مد أولين–المُضيف المهذَّب– يده لحقيبة مايك قائلًا:

– «اسمح لي.»

قال مايك:

– «لا تُزعج نفسك.لا شيء بها سوى بعض ملابس النوم وفرشاة أسنان.»

– «هل أنت واثق؟»

أجاب مايك مبتسمًا:

– «أجل، كما أنني أرتدي قميصي الجالب للحظ الذي ابتعته من هاواي. إنه ذلك القميص الذي يطرد الأشباح.»

لم يبتسم أولين، بل تنهَّد بدلًا من ذلك. كان رجلًا ضئيل الحجم مكتنزًا يرتدي معطفًا داكنًا طويلًا وربطة عنق شبه معقودة.

– «ليكن يا مستر إنسلين، اتبعني.»

كان فندق دولفين قد افتُتِح في عام 1910. هكذا كان مايك يستطيع الدعاية للكتاب دون مساعدة من صُحُف المدينة الكبيرة، لكنه أجرى بحثه رغم كل شيء. بدا مدير الفندق متردِّدًا شبه مرهَق وهو في اللوبي، أما في مكتبه المزيَّن بألواح البلوط مع صور للفندق معلَّقة على الجدران فقد بدا وقد استعاد ثقته بنفسه. كان هناك بساط فارسي على الأرض ومصباحان واقفان يشعان بالضوء الأصفر، وكان هناك مصباح على المكتب يُلقي بظلٍّ أخضر على شكل معيَّن إلى جوار صندوق للسيجار، وجوار صندوق السيجار كانت كُتُب مايك إنسلين الثلاثة الأخيرة. كانت من النسخ ذات الغلاف الورقي الخفيف بالطبع، إذ لم تُطبع له كُتُب بأغلفةٍ صلبة.

– «مضيفي أيضًا كان يُجري بعض البحث.» قالها مايك لنفسه.

جلس مايك أمام المكتب. كان يتوقَّع أن يجلس أولين خلف المكتب، لكن هذا الأخير فاجأه وجلس في المقعد المواجه له وعقد ساقيه، ثم مال إلى الأمام ببطنه الممتلئة ليفتح صندوق السيجار.

– «سيجار يا مستر إنسلين؟»

– «لا، شكرًا لك. لا أدخِّن.»

اتجهت عينا أولين إلى السيجارة القابعة خلف أذن مايك اليمنى، تمامًا كما كان صحافيو الماضي يدسُّون سجائرهم إلى جوار بطاقاتهم الصحافية في قبعاتهم. كانت السيجارة قد أصبحت جزءًا منه، حتى

انه للحظة تساءل عما يحدّق فيه أولين. ثم إذ ضحك، والتقطها ونظر إليها ثم إلى أولين وقال:

– «لم أدخّن واحدةً منذ تسع سنوات. كان لديَّ أخ مات بسرطان الرئة وأقلعت عن التدخين بعد موته. تلك السيجارة خلف أذني...»

وهزَّ كتفيه ثم أكمل:

– «... هي نوع من الادعاء والخوف من المجهول على ما أظن، مثلما هي الحال مع هذا القميص الذي اشتريته من هاواي أو مع السجائر التي تراها أحيانًا على مكاتب أو جدران البعض معلَّقة في صندوق صغير بلافتة تقول: اكسر الزجاج في حالة الطوارئ. هل التدخين مسموح به في الغرفة **1408** يا مستر أولين؟ أتساءل فقط في حالة اندلاع الحرب النوويَّة.»

– «مسموح به في الواقع.»

قال مايك في حرارة:

– «حسن، يمكننا حذف سبب القلق هذا من على قائمة الليلة إذن.»

تنهَّد أولين مرَّة أخرى، لكن ليس بالطريقة المثيرة للشفقة ذاتها كما حدث في اللوبي. قدَّر مايك أن المكتب هو السبب: مكتب أولين، مكانه الخاص. حتى عندما جاء مايك يصحبه محاميه روبرتسون هذه الظهيرة بدا أولين أقل ارتباكًا بمجرَّد دخولهم المكتب. ولِمَ لا؟

أين يمكنك أن تشعر بأنك المتحكِّم في سير الأمور إن لم يكن في مكانك الخاص؟

كان مكتب أولين عبارة عن غرفة ذات صُورٍ أنيقة على الجدران وبساطٍ أنيق على الأرض وسجائرٍ أنيقة في صندوق السيجار. لا شكَّ أن الكثير من المدراء قد مارسوا الكثير من العمل هنا منذ عام 1910، وبشكلٍ ما كان الأمر كله يحمل طابعًا نيويوركيًّا لا تُخطئه العين، كأنه تلك الشقراء التي ينحسر فستانها الأسود ليكشف كتفيها وتنبعث منها رائحة العطر الفاغم إذ تعدك وعدًا غامضًا بلا كلماتٍ بإثارة نيويورك الرقيقة في ساعات الصباح الأولى.

– «ما زلت لا تظن أن بوسعي إقناعك بالعدول عن فكرتك تلك، أليس كذلك؟»

قال مايك وهو يعيد السيجارة إلى مكانها خلف أذنه:

– «بل أعرف أنك لا تستطيع ذلك.»

لم يكن يصقل شعره بأيِّ نوعٍ من الدهانات أو الزيوت أو يعتمر قبعة تُشبه التي كان يعتمرها صحافيو الماضي، لكنه كان يُغيِّر تلك السيجارة خلف أذنه كلَّ يومٍ مثلما يُغيِّر ثيابه الداخلية. ثمَّة عَرَق يخرج منك في تلك المنطقة خلف أذنك، ولو فحص مايك السيجارة عند نهاية كل يوم قبل أن يُلقي بها كما هي في المرحاض لتمكَّن من رؤية بقايا العَرَق الأصفر على ورقتها البيضاء الرقيقة، ولم يكن هذا

ليزيد من رغبته في أن يشعلها بطبيعة الحال. طوال عشرين عامًا كان يُدخّن ثلاثين وأحيانًا أربعين سيجارة في اليوم، لكن تلك الأيام ولّت.

أما السؤال الأجدر بالاهتمام فهو لماذا فعل ذلك.

التقط أولين مجموعة الكُتُب قائلًا:

- «آمل حقًّا أنك مخطئ.»

فتح مايك جيب حقيبته وأخرج منه جهاز تسجيل صغيرًا قائلًا:

- «هل تمانع إذا سجّلت محادثتنا يا مستر أولين؟»

لوّح أولين بيده بلا اكتراث، فضغط مايك زر التسجيل واشتعل الضوء الأحمر الصغير وبدأت البكرات في الدوران. أثناء هذا كان أولين يقلّب بين الكتب ببطء ويقرأ عناوينها.

كالعادة، عندما يرى كُتُبه في يد شخصٍ آخر، كان مايك إنسلين يشعر بأغرب خليط من الانفعالات طرًّا: الفخر مع القلق مع التلهُّف مع التحدّي مع الخجل. لم يكن هناك من سببٍ يُشعره بالخجل من كُتُبه، فقد أبقته في وضعٍ ماليٍّ معقول طوال السنوات الخمس الماضية، ولم يضطر لتقاسُم أرباحه مع المعلنين أو (عاهرات الكُتُب) كما كان ناشره يُطلق عليهم بنوعٍ من الحسد، لأنه هو نفسه ابتكر هذا المفهوم. على الرغم من أن مبيعات الكتاب الأول كانت جيدة، كان يمكن لشخصٍ أحمق فقط ألا يُدرك أصول اللعبة: ماذا يمكن أن تُقدِّم بعد (فرانكنشتاين) أفضل من (عروس فرانكنشتاين)؟

ومع ذلك فقد ذهب إلى أيوا ودرس مع چين سمايلي، وكان ستانلي إلكين زميلًا له ذات مرّة في لجنة تحكيم، كما أنه كان طامحًا في أن يشترك في مسابقة ييل يانجر للشعراء الناشئين، الأمر الذي لم يملك أيٌّ من معارفه أدنى فكرة عنه. هكذا، عندما بدأ مدير الفندق يقرأ عناوين الكُتُب بصوتٍ عالٍ، وجد مايك نفسه يتمنّى لو أنه لم يتحدَّ أولين بجهاز التسجيل، ودون أن يدري تحسَّس السيجارة التي خلف أذنه. سوف يستمع فيما بعد إلى نبرات أولين المتوازنة ويتخيَّل أنه سمع فيها بعض الاحتقار.

قرأ أولين العناوين:

- «(عشر ليالٍ في عشرة منازل مسكونة)، (عشر ليالٍ في عشر مقابر مسكونة)، (عشر ليالٍ في عشر قلاعٍ مسكونة).»

ورفع ناظريه إلى مايك بابتسامةٍ خفيفة عند ركني فمه قائلًا:

- «لقد ذهبتَ إلى إسكتلندا من أجل هذا الكتاب الأخير، بالإضافة إلى غابة ڤيينا. كل هذا يقتطع من الضرائب التي تدفعها، أليس كذلك؟ لكن الأماكن المسكونة هي مهنتك رغم كل شيء.»

- «هل تقصد شيئًا بعينه؟»

- «أنت حسَّاس لهذه الأمور، أليس كذلك؟»

- «حسَّاس نعم، أما مُعرَّض للانتقاد فلا. إذا كنت تأمل في إقناعي بالخروج من فندقك بانتقاد كتبي فــ...»

- «البتة. كنت أشعر بالفضول، هذا كل شيء. لقد أرسلت مارسيل البوّاب النهاري ليشتريها منذ يومين عندما ظهرت للمرّة الأولى بـــ... برجائك.»

- «إنه طلب وليس رجاءً، زلم يزل قائمًا. كما قال لك السيد روبرتسون: قوانين ولاية نيويورك–ناهيك عن قوانين الحقوق المدنية الفدرالية– تمنعك من أن ترفض إعطائي غرفة بعينها إذا طلبت النزول فيها وهي شاغرة. والغرفة **1408** شاغرة. الغرفة **1408** دائمًا شاغرة هذه الأيام.»

لكن المستر أولين لم يكن لينسى أمر كُتُب مايك الثلاثة الأخيرة بعد (وجميعها حقّق أعلى المبيعات حسب النيويورك تايمز بالمناسبة)، بل إنه قلّبها ببساطة بين يديه للمرة الثالثة وقد انعكس ضوء المصباح الساطع على أغلفتها اللامعة. كان هناك الكثير من اللون الأرجواني على الأغلفة، فاللون الأرجواني يبيع الكتب المخيفة أفضل من أيّ لونٍ آخر كما قيل لمايك.

قال أولين:

- «لم تسنح لي الفرصة بأن أتصفّح هذه الكتب حتى هذا المساء، فقد كنت مشغولًا للغاية. أنا عادةً مشغول للغاية. فندق دولفين يُعتبر صغيرًا بمعايير نيويورك، لكن تسعين بالمائة من غُرفنا دائمًا مشغول، وعادةً ما تدخل مشكلة من الباب الأمامي مع كل نزيل.»

- «مثلي.»

ابتسم أولين ابتسامة صغيرة وقال:

- «أنت مشكلة فريدة من نوعها يا مستر إنسلين، أنت والسيد روبرتسون هذا وتهديداتكما.»

شعر مايك بالغيظ مرَّة أخرى. هو لم يقم بأية تهديدات من أيٍّ نوع، ما لم يكن روبرتسون ذاته تهديدًا. لكنه كان مضطرًّا للاستعانة بالمحامي مثلما يضطر أحدهم للاستعانة بعتلة لفتح صندوق صدئ لم يعد يمكن فتحه بمفتاحه الأصلي.

- «لكن الصندوق ليس ملكك.» هكذا قال له صوتٌ بداخله، لكن قوانين الولاية والدولة قالت شيئًا مختلفًا: إن الغرفة رقم **1408** في فندق دولفين له إذا أرادها وطالما لم يسبقه أحدهم ويشغلها.

انتبه إلى أن أولين كان يتفحَّصه بتلك الابتسامة الخفيفة كما لو أنه كان يُصغي إلى محادثة مايك الداخلية كلمة بكلمة. كان شعورًا غير محبَّب، ووجد مايك هذا اللقاء كله غير محبَّب على نحوٍ لم يتوقَّعه. شعر بأنه كان في جانب الدفاع منذ أخرج جهاز التسجيل الصغير وأداره، رغم أن هذا كان يُرهِب من أمامه في المعتاد.

- «إذا كنت تقصد شيئًا من وراء كل هذا يا مستر أولين، فأخشى أنني لم أعد أفهمك، ولقد كان يومي طويلًا. إذا كان جدالنا حول الغرفة **1408** قد انتهى، فأود أن أصعد و...»

- «لقد قرأت أحد هذه... بماذا تسميها، مقالاتٍ أم قصصًا؟»

كان مايك يسميها (دافعات الفواتير)، لكنه لم ينتوِ أن يقول ذلك بينما يدور الشريط، حتى إذا كان الشريط شريطه هو.

قرَّر أولين أنها:

- «قصص. لقد قرأت قصة واحدة من كلِّ كتاب. تلك القصة عن منزل آل ريلسبي في كانساس من كتابك عن المنازل المسكونة.»

- «آه، جرائم القتل بالفأس. الشخص الذي قطع رؤوس جميع أفراد عائلة يوچين ريلسبي ولم يتم الإيقاع به قط.»

- «بالضبط. وقصة الليلة التي قضيتها مخيِّمًا في مقبرة الحبيبين اللذين انتحرا في ألاسكا، والتي لا ينفك الناس يزعمون أنهم يرونهما في منطقة سيتكا، وقصة ليلتك في قلعة جارتسبي. كان هذا مسليًا للغاية ولقد شعرت بالدهشة.»

أرهف مايك سمعه جيدًا ليلمح نبرة الاستهزاء المستترة في كلمات أولين، حتى في أكثر التعليقات إطراءً على كُتُبه المذكورة، ولم يكن لديه شك في أنه لحظ استهزاءً لم يكن موجودًا. كان مايك قد اكتشف أن مخلوقات قليلة على وجه الأرض تعانيٍ من البارانويا، بقدر ما يعاني منها كاتب يؤمن في أعماق قلبه بأنه قد يقبل بمقاييس أدنى من التي اعتاد عليها، لكنه لم يعتقد أن هناك أيَّ استهزاء في كلمات المدير.

– «شكرًا لك... على ما أظن.»

نظر إلى جهاز التسجيل الصغير. عادةً ما كانت تبدو عينه الحمراء الصغيرة وكأنها تراقب الشخص الآخر الذي يُحدِّثه. وتتحداه أن يقول الشيء الخطأ، لكنها بدت هذه الليلة وكأنها تنظر إلى مايك ذاته.

– «كنت أعنيها كمجاملة.» قالها أولين وهو ينقر على أغلفة الكُتُب بأصابعه، ثم أردف:

– «أعتقد أنني سأنهي قراءتها، ولكن من أجل الكتابة نفسها. الكتابة هي التي تُعجبني. أدهشني أن وجدت نفسي أضحك على مغامراتك الخالية من أي خوارق في قلعة جارتسبي، وأدهشني أن وجدتك شخصًا طيبًا ومهذبًا كما أراك. لقد توقَّعت المزيد من الشد والجذب.»

أعدَّ مايك نفسه لما كان شبه محتوم أن يأتي بعد هذا القول؛ تنويع أولين على مبدأ ماذا–تفعل–فتاة–لطيفة– مثلك–في–مكانٍ–كهذا؟

أولين... مدير الفندق المهذَّب، مضيف الشقراوات اللاتي يرتدين الفساتين السوداء في الليل، مستأجِر الرجال المتقاعدين الذين يرتدون حلل السهرة ويعزفون الأغاني القديمة في بار الفندق. أولين الذي على الأرجح يقرأ كُتُب براوست في ليالي العطلات.

- «لكن تلك الكُتُب مثيرة للتوجُّس رغم ذلك، ولو لم أتصفحها فلا أظنني كنت لأُقلق نفسي بانتظارك هذا المساء. بمجرَّد أن رأيت محاميك بحقيبته عرفت أنك تنتوي النزول في تلك الغرفة اللعينة وأنه ليس لديَّ ما أقوله ليُثنيك عن هذا، لكن الكُتُب...»

أغلق مايك جهاز التسجيل بحركةٍ عصبيَّة. تلك العين الحمراء المحدِّقة بدأت تثير أعصابه.

- «هل تريد أن تعرف لماذا أنتهز الفرصة؟ هل هذا ما تريده؟»

قال أولين في برود:

- «أفترض أنك تفعل هذا من أجل المال. كما أنك تنتهز الفرصة الخطأ بالكامل في تقديري على الأقل، رغم أن وثوبك إلى نتيجةٍ كهذه جدير بالاهتمام.»

شعر مايك بالدماء تحتشد في وجهه. لا، لم يكن الأمر يسير بالطريقة التي توقَّعها على الإطلاق. هو لم يُغلق جهاز التسجيل في منتصف محادثة من قبل قط، لكن جوهر أولين لم يكن كمظهره كما اتَّضح.

- «لقد ضلَّلني شكل يديه.» قالها مايك لنفسه. «يدي مدير الفندق هاتين بأظافرهما البيضاء المقلَّمة بعناية.»

- «ما أقلقني - بل ما أثار ذعري- أنني وجدت نفسي أقرأ أعمال رجل ذكي موهوب لا يؤمن بكلمةٍ واحدةٍ مما كتب.»

لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا في ظن مايك. لقد كتب أكثر من عشرين قصة آمن بها ونشر بعضها، كما أنه كتب عددًا من قصائد الشعر التي آمن بها خلال أشهره الأولى في نيويورك عندما كان يعاني شظف العيش وهو يعمل في جريدة (ڤيلدج ڤويس) المجانية.

لكن هل كان يؤمن بأن شبح يوچين ريلسبي مقطوع الرأس يجتاز بيته الريفي في كانساس في ضوء القمر؟ كلا. لقد قضى الليل في ذلك البيت الريفي ورابَط على أرضيَّة المطبخ القذرة المغطَّاة بالمشمَّع ولم يرَ شيئًا مخيفًا أكثر من فأرين يجريان أمامه. وليلة صيف حارة أخرى قضاها في أطلال تلك القلعة في ترانسلڤانيا حيث لم يزل -من المفترَض- أن ڤلاد المخوزِق يبسط سلطانه، لكن النوع الوحيد من مصَّاصي الدماء الذي شهده كان سربًا من البعوض الأوروبي. وخلال الليلة التي قضاها مخيِّمًا عند قبر القاتل المتسلسل چيفري دامر، رأى طيفًا أبيض ملطَّخًا بالدم آتيًا صوبه من قلب الظلمة الدامسة ملوِّحًا بسكين، لكن ضحكات أصدقاء الشبح المكتومة فضحت الأمر. لم يؤثِّر هذا فيه كثيرًا على كلِّ حال، فقد كان يعرف كيف يبدو شبح مراهق يلوح بسكِّين مطَّاطي عندما يرى واحدًا. لكنه لم ينو إخبار أولين بأي من هذا، فلم يكن ليحتمل أن...

إلا أنه وجد في نفسه إعجابًا بأولين بطريقة غريبة، وعندما تُعجب برجل فأنت تخبره بالحقيقة. هكذا قال:

- «لا، لست أعتقد في وجود الغيلان والأشباح والوحوش. أظن أنه شيء جيد أن هذه الأشياء ليس لها وجود، لأنني لا أعتقد أن هناك ما يمكن أن يحمينا منها إن وُجِدَت. هذا ما أؤمن به، لكنني حافظت على عقلي متفتحًا من البداية. قد لا أفوز أبدًا بجائزة بوليتزر على تحقيقي عن الشبح النابح في مقبرة ماونتن هوب، لكني كنت لأكتب ما يكفي عنه لو ظهر.»

نطق أولين كلمة واحدة بصوتٍ خفيض للغاية، حتى أن مايك لم يستبينها.

- «معذرة؟»

- «قلت: لا.» قالها أولين وهو ينظر إليه بطريقة شبه معتذرة.

تنهَّد مايك بينما خطر لأولين أنه يكذب. عندما تصل إلى تلك النقطة، فليس أمامك من الخيارات سوى أن تستعد للاشتباك في مشادَّة كلامية أو تنسحب من النقاش بالكامل.

- «لِمَ لا نُرجئ هذا النقاش ليومٍ آخر يا مستر أولين؟ سأصعد إلى الغرفة وأغسل أسناني، ولربما أرى شبح كيڤين أومالي يتجسَّد خلفي في مرآة الحمام.»

قالها مايك وهمَّ بالنهوض، فمدَّ أولين إحدى يديه السمينتين ليوقفه قائلًا:

- «لست أتهمك بالكذب يا مستر إنسلين، لكنك لا تؤمن بها. الأشباح نادرًا ما تظهر لهؤلاء الذين لا يؤمنون بها؛ وعندما تفعل، فنادرًا ما يراها أحد. لعل يوچين ريلسبي ألقى برأسه المقطوع في قلب ردهة منزله دون أن تسمع أنت شيئًا!»

نهض مايك ثم مال ليلتقط حقيبته معلّقًا:

- «إذا كان الأمر هكذا، فلن يوجد ما يُقلقني في الغرفة **1408**، أليس كذلك؟»

- «لكن هناك ما يُقلق... هناك ما يُقلق، لأنه لا توجد أشباح في الغرفة **1408** ولم يكن هناك قط. ثمّة شيء ما هناك ولقد شعرت به بنفسي، لكنه ليس حضورًا روحيًا. قد يحميك عدم إيمانك بالخوارق في بيت مهجور أو قلعة عتيقة، لكن في الغرفة **1408** سيجعلك أكثر عُرضة للأذى ليس إلا. لا تفعلها يا مستر إنسلين. لهذا انتظرتك الليلة، لأطلب منك-بل لأتوسل إليك- ألا تفعلها. من بين كل البشر على وجه الأرض الذين لا تصلح لهم هذه الغرفة، يتصدَّر القائمة الرجل الذي كتب كلّ تلك الكُتُب الاستثمارية البهيجة!»

سمع مايك هذا ولم يسمعه في الوقت ذاته. «وأنت أغلقت جهاز التسجيل!» قالها لنفسه في سخط.«يُحرجني حتى أغلق جهاز التسجيل، ثم يتحوَّل إلى مذيع للبرامج المخيفة! فليذهب كل شيء إلى الجحيم. سأستشهد بكلامه في جميع الأحوال، وإن لم يعجبه هذا فيمكنه مقاضاتي.»

ثم إذا به يتحرَّك شوقًا للصعود إلى أعلى، ليس فقط لينتهي من ليلته في الغرفة، بل أيضًا لأنه أراد أن يُدوِّن ما قاله أولين وهو لا يزال طازجًا في عقله.

– «تناول شرابًا يا مستر إنسلين.»

– «لا، أنا...»

مدَّ أولين يده في جيب معطفه وأخرج مفتاحًا يتدلَّى من ميدالية نحاسية طويلة بدت قديمة ومخدوشة وخابية البريق، وكان الرقم 1408 محفورًا عليها بشكلٍ زخرفي.

قال أولين:

– «جارِني من فضلك. امنحني عشر دقائق أخرى لتناول الشراب ثم سأعطيك هذا المفتاح. أريد أن أفعل أيَّ شيءٍ لأتمكَّن من تغيير رأيك، لكنني أحب أن أعتقد أنني أستطيع إدراك المحتوم عندما أراه.»

قال مايك:

– «أما زلتم تستخدمون المفاتيح العادية هنا؟ تلك لمسة لطيفة تحمل عبق الماضي.»

– «الفندق يستخدم البطاقات الممغنطة منذ عام 1979 يا مستر إنسلين، وهو العام الذي تسلَّمت فيه وظيفتي كمدير له. 1408 هي الغرفة الوحيدة في الفندق التي لا تزال تُفتَح بمفتاحٍ عادي. لا داعي لوضع قفل ممغنط على بابها، لأنه لا يوجد بداخلها أحد أبدًا. آخر شخص نزل في الغرفة كان عام 1978.»

– «أنت تمزح!» قالها مايك وهو يجلس مرة أخرى ويلتقط جهاز التسجيل ويُشغِّله من جديد قائلًا فيه:

– «مدير الفندق أولين يزعُم أن الغرفة 1408 لم تؤجَّر لأي نزيل منذ أكثر من عشرين عامًا.»

قال أولين:

– «فقط لأن الغرفة 1408 لم تحتج قط إلى قفل ممغنط على بابها، لأنني واثق تمامًا بأنه لن يعمل. ساعات اليد الرقميَّة لا تعمل في الغرفة 1408، وأحيانًا تتحرَّك الأرقام عكس اتجاه الزمن وأحيانًا لا تتحرَّك على الإطلاق، لكنك لا تستطيع معرفة الوقت منها في جميع الحالات. الشيء نفسه يسري على الآلات الحاسبة والهواتف المحمولة. إذا كان معك جهاز استدعاء يا مستر إنسلين، فأنصحك بأن تطفئه، لأنه بمجرَّد دخولك الغرفة 1408 سيبدأ في الصفير من تلقاء ذاته.»

وصمت لحظة ثم استطرد:

– «وإطفاؤه ليس مضمونًا كذلك، فقد يُشغِّل نفسه بنفسه. الحل المضمون الوحيد هو نزع بطارياته.»

وضغط زر الإيقاف في جهاز التسجيل دون أن ينظر إليه، فافترض مايك أنه يستخدم جهازًا مشابهًا ليسجِّل ملاحظاته. ثم إنه تابع:

– «الحقيقة يا مستر إنسلين أن الحل المضمون الوحيد هو أن تبقى خارج تلك الغرفة.»

قال مايك وهو يستعيد جهاز التسجيل:

– «لا يمكنني أن أفعل ذلك، لكني أستطيع البقاء بعض الوقت لتناول الشراب.»

***

بينما يصب أولين الشراب في البار الصغير أسفل لوحة زيتية تُمثّل فيفث آڤنيو في مطلع القرن، سأله مايك كيف عرف–وقد كانت الغرفة خالية باستمرار منذ عام **1987**– أن المعدات التكنولوچية لا تعمل بداخلها.

أجابه أولين:

– «لم أقصد أن أعطيك انطباعًا بأن لا أحد يدخل الغرفة منذ عام **1978**، وذلك لسبب واحد: ثمّة عاملات يدخلن الغرفة مرَّة في الشهر لتنقيتها، وهذا يعني...»

قال مايك الذي كان يعمل على كتاب (عشر ليالٍ في عشر غُرفٍ مسكونة) منذ أربعة أشهر:

– «أفهم ما يعنيه.»

تنقية غرفة شاغرة تتضمَّن فتح النوافذ لتجديد الهواء ونفض الغبار وتغيير المناشف، ولكن ليس ملاءات السرير على الأرجح. تساءل إن كان حريًّا به به أن يُحضر كيس النوم الخاص به.

بدا أولين وكأنه يقرأ أفكار مايك على وجهه وهو يعبر البساط الفارسي ممسكًا بكأسي الشراب، حيث قال:

- «لقد غيَّرنا الملاءات هذه الظهيرة يا مستر إنسلين.»

- «أفضِّل أن تناديني بمايك دون رسميات.»

قال أولين وهو يناول مايك كأسه:

- «لا أظن ذلك سيريحني. نخبك.»

- «ونخبك.» قالها مايك وهو يرفع كأسه قاصدًا أن يقرعها بكأس أولين، لكن هذا الأخير سحبها إلى الخلف قائلًا:

- «بل أصر أنه نخبك أنت يا مستر إنسلين. الليلة يجب أن يشرب كلانا نخبك أنت، فسوف تحتاج إليه.»

تنهَّد مايك ومسَّ حافة كأس أولين بكأسه وقال باستسلام:

- «هو نخبي إذن. كنت لتلعب دورًا مثاليًّا في فيلم رعب يا مستر أولين: كبير الخدم العجوز الكئيب الذي يُحذِّر الزوجين الشابَّين من المكوث في قلعة الموت.»

جلس أولين وقال:

- «هذا دور لم أضطر للعبه كثيرًا ولله الحمد. الغرفة **1408** ليست مُدرَجة في أيِّ موقع على الإنترنت يهتم بالأماكن المسكونة الخارقة للطبيعة...»

- «لن يدوم ذلك بعد نشر كتابي.» قالها مايك لنفسه وهو يرشف شرابه.

- «... ولا توجد جولات للمهتمين بالأشباح تتوقَّف عند فندق دولفين، رغم أنها تتوقَّف عند فنادق شيري نذرلاند والپلازا وپارك لين. لقد أبقينا أمر الغرفة **1408** طي الكتمان قدر المستطاع... رغم أن التاريخ بالطبع كان دائمًا متاحًا لأيِّ باحثٍ محظوظ وعنيد.»

رسم مايك بسمة صغيرة على شفتيه بينما تابع أولين:

- «لقد غيَّرت ڤيرونيكا الملاءات في الغرفة ولقد رافقتها. حري بك أن تشعر بالإطراء يا مستر إنسلين، فالأمر يُشبه أن يُبدِّل ملاءات فراشك أحد أفراد العائلة المالكة. ڤيرونيكا وأختها جاءتا إلى الفندق كخادمتي غُرف في عام **71** أو **72**، وڤي-كما نُسمِّيها- هي أطول موظفة عملت في الفندق مدةً، وتسبقني في الأقدميَّة بستة أعوام، ولقد ترقَّت منذ وقتها إلى مدبرة منزل، ولا أظنها غيرت ملاءة واحدة منذ أكثر من ستة أعوام كاملة، لكنها هي وأختها كانتا تقومان بجميع أعمال تنقية الغرفة **1408** حتى عام **1992**. ڤيرونيكا وسيلست

كانتا توأمين، وبدا أن ذلك الرابط الخاص بينهما جعلهما... كيف أقولها؟ جعلهما غير منيعتين للغرفة **1408**، لكن الغرفة كنت بحاجة إلى تنقية من وقتٍ إلى آخر رغم كل شيء.»

– «لن تقول لي إن أخت ڤيرونيكا هذه ماتت في الغرفة، أليس كذلك؟»

– «البتة. لقد تركت الخدمة هنا عام **1988** بسبب مرضها، إلا أنني لا أستبعد احتمال أن الغرفة **1408** قد لعبت دورًا في تدهور حالتها الصحية والعقلية.»

– «يبدو لي أن شيئًا من الألفة قد حدث بيننا يا مستر أولين، وآمل ألا أفسدها بأن أقول إنني أجد هذا سخيفًا.»

ضحك أولين قائلًا:

– «أنت عنيد للغاية بالنسبة لدارسٍ لعالَم خيالي.»

أجاب مايك في كياسة:

– «إنني مدين بهذا لقرائي.»

قال أولين متأمِّلًا:

– «أعتقد أنني كنت ببساطة أستطيع ترك الغرفة **1408** كما هي خلال معظم أيامها ولياليها: الباب مغلَق والأنوار مطفأة والستائر مسدلة لئلا تبهت البُسُط بفعل ضوء الشمس، والملاءات مطوية وقائمة الطعام على الفراش... لكنني لا أتحمَّل فكرة أن يستحيل

الهواء فاسدًا كما في علية مغلقة، ولا أتحمَّل فكرة أن يتراكم الغبار حتى يصبح أكوامًا. هل يجعلني هذا شخصًا شديد الحرص أم شديد الهوس؟»

– «يجعلك مديرًا لفندق.»

– «أحسب هذا. على أيٍّ حال، في وسي قامتا بأعمال تنقية الغرفة–وكان هذا يتم بسرعة في المعتاد– حتى تقاعدت سي وحصلت في على ترقيتها الكبيرة الأولى. بعد ذلك جعلتُ خادمات أخريات يقمن بتلك المهمة في أزواج، ودائمًا كنت أختار كل اثنتين تتآلفان معًا.»

– «على أمل أن يُبعِدَ هذا الرابط بينهما الأشباح؟»

– «على أمل هذا، أجل. ولك أن تسخر من أشباح الغرفة **1408** كما تشاء يا مستر إنسلين، لكنك ستشعر بها في الحال وأنا واثق من ذلك. أيًّا كان ما يسكن تلك الغرفة، فهو لا يتسم بالخجل. في عدة مناسبات وكلما استطعت دخلت الغرفة مع الخادمات لأشرف عليهن...»

صمت للحظة ثم استطرد على مضض:

– «... أو لأخرجهن إذا بدأ شيء سيء في الحدوث، لكن شيئًا لم يحدث قط. كثيرات منهن أصبن بنوبات من البكاء وواحدة أصابتها نوبة من الضحك. لا أدري لماذا يبدو من يضحك دون سببٍ واضح بهذا الشكل مخيفًا أكثر ممن ينوح، لكن الأمر كذلك؛ وهناك أيضًا من

فقدن وعيهن. لم يحدث أمر بشع على كل حال. سنح لي الوقت عبر سنوات عملي أن أجري بعض التجارب الأولية على أجهزة الاستدعاء والهواتف المحمولة وما إلى ذلك، لكن شيئًا بشعًا لم يحدث والحمد لله.»

وصمت مرّة أخرى ثم أضاف بنبرةٍ غريبة:

– «لكن واحدة منهن فقدت بصرها.»

– «ماذا؟!»

– «فقدت بصرها. كان اسمها رومي ڤان جلدر، وكانت تُنظّف أعلى التليفزيون، وعلى حين غرة انفجرت في الصراخ. سألتها عما هناك فألقت بالخرقة التي بين يديها ووضعتهما على عينيها صارخة بأنها لا ترى سوى ألوان شنيعة. بمجرد أن أخرجتها من الغرفة تقريبًا كفّت عن رؤيتها، وحينما أوصلتها إلى المصعد كان بصرها قد بدأ يعود.»

– «أنت تخبرني بكل هذا لتخيفني فحسب يا مستر أولين.»

– «بالطبع لا. أنت مُلِم بتاريخ الغرفة بدايةً بانتحار شاغلها الأول.»

كان مايك يعرف بالفعل. كيڤين أومالي بائع ماكينات الخياطة الذي وثب من النافذة في الثالث عشر من أكتوبر عام 1910 تاركًا خلفه زوجة وسبعة أبناء.

- «خمسة رجال ونساء قفزوا من نافذة الغرفة الوحيدة يا مستر إنسلين، وثلاث نساء ورجلان ماتوا بجرعة حبوبٍ زائدة في تلك الغرفة؛ عُثر على اثنين منهم في الفراش وعلى اثنين في الحمام، واحد منهم في المغطس والآخر جالس على قاعدة المرحاض، والأخير شنق نفسه في خزانة الملابس عام 1970...»

قاطعه مايك مكملًا:

- «هنري ستوركين. موت هذا الرجل كان عرضيًّا على الأرجح... اختناق شهواني ربما.»

- «ربما. هناك أيضًا راندولف هايد الذي شقَّ معصميه ثم قطع عضوه التناسلي بينما كان يترف حتى الموت. ذلك الحادث لم يكن اختناقًا شهوانيًّا. ما أقصده يا مستر إنسلين هو أنه لو لم تُثنك اثنتا عشرة حادثة انتحار خلال ستة وثمانين عامًا عن نواياك، فأشك أن لهاث وشهقات بضع خادمات سيوقفك.»

- «لهاث وشهقات، هذا لطيف.» قالها مايك في سره وتساءل إن كان يستطيع اقتباس التعبير في كتابه.

قال أولين قبل أن يُنهي شرابه على جرعة واحدة:

- «خادمات قليلات أردن العودة إلى 1408 مرَّة أخرى.»

- «ما عدا التوأمين الفرنسيتين.»

- «في وسي، هذا صحيح.»

لم يهتم مايك كثيرًا بالخادمات وبـــ...(ماذا قال أولين؟ لهاثهن وشهقاقمن؟) لكن طريقة سرد أولين لحوادث الانتحار كان لها وقع جلي عليه، ليس بسبب حقيقتها من عدمها، بل بسبب ما تعنيه. عدا أنه-بالنسبة إليه- لم يكن هناك من معنى ما. كلا إبراهام لينكلن وجون كينيدي كان لديه نائب اسمه جونسون، الاسمان لينكن وكينيدي يتكوّنان من سبعة حروف بالإنجليزية، وكلا الرئيسين انتُخب في عام ينتهي بـــ60. ما الذي تُثبته كل هذه المصادفات؟ ولا أي شيء.

قال مايك:

- «حوادث الانتحار ستُشكّل فقرة ممتازة في كتابي، لكن بما أن جهاز التسجيل مغلق، فيمكنني أن أقول لك إنها تبلغ ما يصفه مصدر إحصائي تابع لي بالتأثير الجمعي.»

قال أولين:

- «تشارلز ديكنز وصفه بتأثير البطاطس!»

- «معذرة؟»

- «عندما يتحدَّث شبح جيكوب مارلي إلى سكروج للمرة الأولى، يقول له سكروج إنه لا يمكن أن يكون سوى لطخة من الخردل أو ثمرة بطاطس غير ناضجة.»

قال مايك في شيءٍ من البرود:

- «هل يُفتَرَض أن يكون ذلك مضحكًا؟»

- «لا شيء من هذا يبدو لي مضحكًا يا مستر إنسلين، لا شيء على الإطلاق. اسمعني جيدًا أرجوك. سيلست أخت ڤيرونيكا ماتت بنوبة قلبيَّة في وقتٍ كانت تعاني فيه من الألزهايمر الذي أصابها في وقتٍ مبكر للغاية من حياتها.»

- «ومع ذلك فأختها في خير حال كما قلت بنفسك من قبل. إنها قصة نجاح أمريكية في الحقيقة، مثلما أنت بالضبط يا مستر أولين كما يُدرك الناظر إليك. ومع ذلك فقد دخلت إلى الغرفة **1408** وخرجت منها كم مرة؟ مائة؟ مائتين؟»

- «لفترات قصيرة للغاية من الوقت. الأمر يُشبه أن تدخل غرفة مليئة بالغاز السام. إذا كتمت أنفاسك فربما لا يمسك الأذى. أعرف أن تلك المقارنة لا تروق لك، وبلا شك تجدها مبالغًا فيها وربما تصفها بالسخف، إلا أنني أجدها مقارنة مثالية.»

وأسند أولين أصابعه إلى ذقنه وتابَع:

- «ومن الممكن أيضًا أن يكون رد فعل البعض أكثر سرعة وعنفًا لما يسكن تلك الغرفة أيًّا كان، تمامًا مثلما نجد بعض من يمارسون الغطس عرضة للشد العضلي أكثر من غيرهم. خلال عمر

الفندق الذي يقارب القرن أدرك طاقم الفندق أن **1408** غرفة مسمومة. لقد أصبحت **1408** جزءًا من تاريخ المكان يا مستر إنسلين. لا أحد يتحدَّث عنها، تمامًا مثلما لا يُلمِّح أحد إلى حقيقة أن هنا-كما في معظم الفنادق- الطابق الرابع عشر هو في الحقيقة الطابق الثالث عشر... لكنهم يعرفونها. إذا كانت كل الحقائق والتسجيلات المتعلّقة بتلك الغرفة متاحة لكانوا حكوا عنها قصة مذهلة... قصة مثيرة للتوجُّس أكثر مما قد يحتمل قراؤك. تخميني أن كل فندق في نيويورك قد نال نصيبه من حوادث الانتحار، لكنني أراهن بحياتي أن دولفين وحده شهد اثنتي عشرة حادثة انتحار في غرفة واحدة. وبغض النظر عن سيلست روماندو، فماذا عن حالات الموت الطبيعي في **1408**، حوادث الموت الطبيعي المزعومة تلك؟»

لم تخطر لمايك فكرة حالات الموت الطبيعي تلك على بال، فكان السؤال المنطقي:

– «كم منها؟»

– «ثلاثون. ثلاثون على الأقل. ثلاثون على حد علمي.»

خرجت الكلمات من فم مايك قبل أن يستطيع منعها:

– «أنت كاذب!»

– «لا يا مستر إنسلين، أؤكّد لك أنني لا أكذب. هل ظننت حقًا أننا نُبقي الغرفة خالية بسبب بعض خرافات العجائز أو بسبب تقليد

نيويوركي سخيف هو فكرة أن كل فندق قديم لا بد وأن يحتوي على روحٍ هائمة واحدة على الأقل تجول فيه؟»

أدرك مايك إنسلين أن تلك الفكرة–وإن كانت بغير ذات الوضوح– قد تصلح جدًّا لكتابه الجديد، وسماعها من فم أولين بتلك الطريقة المتهكِّمة لم يُخفِّف من كآبة أسلوبه.

– «إن لدينا خرافاتنا وتقاليدنا في أعمال الفندقة يا مستر إنسلين، ولكننا لا نسمح لها باعتراض طريق العمل. ثمّة مثل شعبي في الغرب حيث بدأت عملي يقول: لا توجد غُرف شاغرة أثناء وجود رعاة الماشية في البلدة. إذا كانت لدينا غُرف شاغرة، فإننا نشغلها. الاستثناء الوحيد لتلك القاعدة–كما أن حديثنا هذا في حد ذاته استثنائي– كان لـ**1408**، الغرفة التي تقع في الطابق الثالث عشر وحاصل جمع أرقامها يساوي **13**.»

ونظر أولين بثبات إلى مايك إنسلين وأضاف:

– «حوادث الغرفة لا تتوقَّف عند الانتحار فحسب، بل تمتد إلى السكتات الدماغية والأزمات القلبية ونوبات الصرع. أحد النزلاء في عام **1973** غرق في إناء من الحساء! لك دون ريب أن تصف هذا بالسخف، لكنني تحدَّثت إلى مدير أمن الفندق في ذلك الوقت والذي رأى شهادة الوفاة. قوة ذلك الشيء الذي يسكن الغرفة أيًّا كان تبدو أقل في فترة منتصف النهار، الفترة التي تتم فيها تنقية الغرفة دائمًا،

ومع ذلك أعرف خادمات كثيرات ممن نقين الغرفة عانين من مشاكل في القلب وانتفاخ الرئة والبول السكّري بعد دخولها. كانت هناك مشكلة في التدفئة في ذلك الطابق منذ ثلاثة أعوام، واضطر مستر نيل كبير مهندسي الصيانة وقتها لدخول عدة غُرف لتفقُّد وحدات التدفئة، وكانت **1408** منها. لقد بدا بخير داخل الغرفة وبعد خروجه منها، لكنه مات في اليوم التالي بنزيفٍ مخي عنيف.»

قال مايك:

– «إنها مصادَفة.»

لكنه لم يستطع أن ينكر أن أولين كان بارعًا. لو كان ذلك الرجل قائدًا لمخيم، كان لينجح في إعادة الأطفال إلى منازلهم بعد ليلةٍ واحدة من سماع قصصه عن الأشباح.

كرَّر مايك بهدوء ودون امتعاض وهو يمسك بالمفتاح القديم في ميداليته القديمة:

– «إنها مصادفة.»

– «كيف حالة قلبك يا مستر إنسلين؟ بغض النظر عن ضغط دمك وحالتك النفسية.»

شعر مايك بأنه ليرفع يده فعليه أن يبذل مجهودًا شاقًّا، لكنه بمجرَّد أن استطاع تحريكها وجد أنها بخير، ممسكة بالمفتاح دون أدنى ارتجاف في أصغر عقلة من أصابعه.

قال وهو يقبض على الميدالية النحاسية:

– «إنها بخير. كما أنني أرتدي قميصي الجالب للحظ الذي ابتعته من هاواي.»

***

أصرَّ أولين على اصطحاب مايك إلى الطابق الرابع عشر، وهو ما لم يعترض عليه مايك. أثار اهتمامه أن يرى بمجرَّد مغادرتهما لمكتب المدير وسيرهما في الردهة التي تقود إلى المصاعد أن الرجل قد عاد إلى طبيعته البسيطة؛ المستر أولين المسكين الذي سقط بين براثن الكاتب.

اعترض طريقهما رجل ببذلة سهرة افترض مايك أنه مدير المطعم، وناول أولين حزمة من الأوراق وهو يغمغم بشيءٍ ما بالفرنسية، فردَّ عليه أولين وأمهر الأوراق بتوقيعه سريعًا. كان ذلكِ الرجل في البار يعزف الآن أغنية (الخريف في نيويورك) بصوتٍ جاء من بعيد كالصدى كما الموسيقا التي تسمعها في حُلم.

شكر الرجل ذو بذلة السهرة المدير وانصرف إلى سبيله، بينما اتجه مايك وأولين إلى طريقهما. عرض عليه أولين مرَّة أخرى أن يحمل حقيبته، ومرَّة أخرى رفض مايك. وجد مايك عينيه في المصعد تنزلقان على لوحة الأزرار الثلاثية. كان كلُّ رقمٍ في مكانه بلا نقصان، لكنك إذا دققت البصر ستجد أن الرقم **12** يتبعه الرقم **14** مباشرة.

- «كما لو أنهم يستطيعون محو الرقم بحذفه من لوحة تحكم المصعد.» قالها مايك لنفسه.

حماقة... ورغم ذلك كان أولين محقًّا، فالأمر نفسه يحدث في جميع أنحاء العالم.

إذ ارتفع المصعد قال مايك:

- «لديَّ سؤال. لِمَ لم تخلق ببساطة نزيلًا خياليًّا للغرفة **1408** طالما هي تخيفكم إلى هذه الدرجة؟ بل لِمَ لا تعلن أنها محل إقامتك؟»

- «خشيت أن أُتَّهَم بالاحتيال، لو لم يكن من قِبل المسؤولين عن تنفيذ قوانين الولاية وقوانين الحقوق المدنية—ومن يعملون في الفندقة يخشون قوانين الحقوق المدنية كما يخشى قراؤك السلاسل التي تُصدر صليلًا في الليل- فمن قِبل رؤسائي إذا بلغهم الخبر. إذا لم أستطع إقناعك بالبقاء خارج الغرفة **1408**، فأشك أن الحظ سيحالفني في إقناع مجلس إدارة الشركة المالكة للفندق بأنني اتخذت غرفة ممتازة كمقر للسكنى لأن الأشباح تسبَّبت في قفز بائع لماكينات الخياطة من النافذة وتناثُر أشلائه على أرض الشارع.»

وجد مايك هذا أكثر شيء مزعج قاله أولين حتى هذه اللحظة.

- «... لأنه لم يعد يحاول إقناعي.» هكذا قال لنفسه. «أيًّا كانت درجة تمكُّنه من فن النقاش داخل مكتبه—ولربما هو شيء يكتسبه من فخامة المكتب ذاته- فهو يفقدها خارجه. ربما يتسم بالكفاءة، لا أنكر

هذا، فقد رأيته وهو يوقِّع أوراق مدير المطعم، لكنه لا يتحلَّى بالبراعة في فن النقاش، ولا يملك كاريزما شخصية، ليس هنا. لكنه يُصدِّق القصة، يُصدِّقها كلها.»

انطفأ مصباح الرقم **12** فوق الباب وأضاء مصباح الرقم **14** وتوقَّف المصعد. انزلق الباب مفتوحًا ليكشف عن رواق عادي كما في أي فندق، يفترش أرضه بساط تتألَّف ألوانه من الأحمر والذهبي (وليس فارسيًّا بكل تأكيد)، ومصابيح كهربية بدت كمصابيح الغاز في القرن التاسع عشر.

قال أولين:

– «ها نحن أولاء. هذا طابقك. اعذرني لأنني سأتركك هنا. **1408** إلى يسارك عند نهاية الرواق. إنني لا أقترب منها أكثر من ذلك ما لم تضطرني الحاجة الشديدة.»

خرج مايك إنسلين من المصعد على ساقين أحسَّ بهما أثقل من المفترَض، واستدار إلى أولين ورأى العرق يتفصَّد من وجهه الشاحب كالحليب.

قال أولين:

– «هناك هاتف في الغرفة بالطبع. يمكنك أن تُجرِّب استخدامه إذا وجدت نفسك في مشكلة... لكنني أشك أنه سيعمل أصلًا، ليس إذا أرادت الغرفة ألا يعمل.»

فكّر مايك في ردٍّ خفيف؛ شيء ما على شاكلة أن هذا سيوفّر عليه أجرة خدمة الغُرف على الأقل، لكن لسانه بدا ثقيلًا كساقيه وظلّ منعقدًا داخل فمه.

مدَّ أولين يده قائلًا وقد لحظ مايك أنها كانت ترتجف:

– «مستر إنسلين... مايك، لا تفعل هذا. بالله عليك لا...»

بتر عبارته انغلاق باب المصعد، ووقف مايك في مكانه للحظات في صمت الفندق النيويوركي حيث لا يريد أحد أن يقر بأن الطابق الثالث عشر هو الطابق الثالث عشر. لوهلة خطر له أن يطلب المصعد مرّة أخرى، غير أنه لو فعل ذلك لفاز أولين، ولأصبحت هناك ثغرة كبيرة حيث يُفترض أن يكتب أفضل فصلٍ في كتابه الجديد. قد لا يعرف القراء ذلك، وقد لا يعرفه الناشر ووكيل الأعمال، وقد لا يعرفه روبرتسون... لكنه هو سيعرف.

بدلًا من الضغط على زر استدعاء المصعد، مدَّ مايك يده ومسَّ السيجارة القابعة خلف أذنه–تلك الحركة التي لم يعد يعي أنه يقوم بها– وفكَّ الزر العلوي لقميصه الجالب للنحظ، ثم توجه حاملًا حقيبته إلى الغرفة رقم **1408** في نهاية الرواق.

***

2

أهم شيء تبقّى من إقامة مايكل إنسلين القصيرة في الغرفة **1408**، والتي استمرَّت سبعين دقيقة تقريبًا، هو الدقائق الإحدى عشرة المسجَّلة على جهازه الصغير الذي احترق إلى حدٍّ ما لكنه لم يزل صالحًا للاستخدام؛ والشيء الجدير بالاهتمام حقًّا فيما سجَّله هو أنه لم يُسجِّل إلا القليل، وإن اتسم هذا القليل بالغرابة الشديدة.

كان جهاز التسجيل هدية من زوجته السابقة التي حافظ على علاقة ودية معها طوالِ السنواتِ الخمس الماضية. كان قد أخذه معه كمجرَّد وسيلة مساعدة إضافية في رحلته الأولى إلى مزرعة ريلسبي في كانساس، بالإضافة إلى خمس حزم من الورق الأصفر وحقيبة جلدية ملأى بأقلام الرصاص المبرية. والآن وقد وصل إلى باب الغرفة **1408** في فندق دولفين بعد ثلاثة كُتُب، نجده قد أتى بقلمٍ واحد ومفكِّرةٍ واحدة، ومعهما خمسة شرائط فارغة مدة الواحد منها تسعون دقيقة، بالإضافة إلى الشريط الذي وضعه في جهاز التسجيل قبل أن يغادر شقته.

كان قد اكتشف أن التسجيل بصوته يخدمه أكثر من تدوين الملاحظات على الورق، فقد مكّنه هذا من تسجيل الحكايات وهي تحدث بالفعل، كالوطاويط التي انقضّت عليه في برج قلعة جارتسبي على سبيل المثال. لحظتها صرخ كفتاةٍ في رحلتها الأولى إلى بيت الأشباح في الملاهي، الأمر الذي جعل أصدقاءه ينفجرون في الضحك حين استمعوا إلى الشريط.

جهاز التسجيل الصغير كان عمليًّا أكثر من الملاحظات المكتوبة أيضًا، بالذات عندما تكون في مقبرة نيو برونسويك الباردة وقد اقتلعت الريح خيمتك بينما ينهال عليك وابل من الأمطار في الثالثة صباحًا. لا يمكنك أن تُدوِّن أي ملاحظاتٍ ناجحة في مثل هذه الظروف، لكنك تستطيع أن تتكلّم. وهذا ما فعله مايك: أخذ يتكلّم وهو يقاوم البلل ويحاول أن يفرد خيمته دون أن يغض بصره عن عين جهاز التسجيل الحمراء المواسية. وهكذا أصبح جهاز التسجيل صديقه مع مرور الوقت.

الشريط الرفيع الذي يدور بين بكرات جهاز التسجيل لم يُسجِّل أي حوادث خارقة للطبيعة قَط، وهذا يتضمَّن التعليقات المبتورة التي سجَّلها أثناء وجوده في 1408، لكن تعلُّقه بتلك الآلة لم يكن مثيرًا للدهشة رغم ذلك، مثله مثل السائقين الذين يتعلّقون بالشاحنات التي يقودونها لأعوامٍ طوال، أو الكُتَّاب الذين يحتفظون بقلمٍ بعينه أو بآلةٍ

كاتبة أصابها الصدأ، أو حتى عاملات النظافة اللاتي يرفضن التخلي عن نوعٍ معيَّن من المنظِّفات. مايك لم يواجه قط تجربة أشباح أو تحريك عن بُعد بجهاز التسجيل الذي يعتبره نسخته العصرية من الصليب والثوم، لكنه كان معه خلال ليالٍ باردة مخيفة عدة. كان عنيدًا، لكن ذلك لم يجعله متحجِّر المشاعر.

مشكلته مع **1408** بدأت من قبل حتى أن يخطو داخل الغرفة...

كان الباب مائلًا...

ليس كثيرًا، لكنه كان دون شك يميل قليلًا إلى اليسار. جعله هذا يُفكِّر في أفلام الرعب عندما يحاول المخرج أن يشير إلى الإجهاد العصبي الذي تعاني منه إحدى الشخصيات بأن يجعل الكاميرا تميل قليلًا في لقطة مصوَّرة من وجهة نظر شخصية أخرى. تبع هذا الخاطر خاطر آخر: الطريقة التي تبدو بها الأبواب على قارب بينما الجو عاصف... تتحرَّك الأبواب من الأمام إلى الخلف... من اليمين إلى اليسار... تشعر بها تدُق كعقارب الساعة، حتى تشعر برأسك يدور وبأنك تريد إفراغ معدتك. ليس الأمر أنه هو نفسه شعر بذلك مطلقًا، لكنه...

(بل أشعر به قليلًا)

مال على حقيبته ليُخرج جهاز التسجيل الصغير منها، وهو يعي أن ذلك التوتُّر الذي داهم رأسه ومعدته قد تلاشى بمجرَّد أن أبعد

ناظريه عن هذا الباب المنحرف. ضغط على زر التسجيل وهو يعتدل ورأى العين الحمراء تضيء، وفتح فمه ليقول:

– «باب الغرفة **1408** يُلقي التحية بطريقته الخاصة. يبدو أنه مائل قليلًا إلى اليسار.»

قال (باب)، وكان هذا كل شيء. إذا استمعت إلى الشريط ستسمع كلمة (الباب) واضحة جلية وبعدها صوت انضغاط زر الإيقاف... لأن الباب لم يكن مائلًا، بل كان مستقيمًا تمامًا. استدار مايك ونظر إلى باب الغرفة **1409** ثم مرَّة أخرى إلى باب **1408**. كان كلا البابين متماثلًا: كانا مطليين باللون الأبيض مع لوحة ذهبية منقوش عليها الرقم ومقبض ذهبي، وكلاهما مستقيم تمامًا.

مال مايك ليلتقط حقيبته باليد التي تحمل جهاز التسجيل ومدَّ يده الأخرى التي تمسك بالمفتاح إلى القفل، ثم توقَّف مرَّة أخرى.

كان الباب مائلًا من جديد...

وهذه المرَّة كان مائلًا إلى اليمين...

غمغم مايك:

– «هذا سخف.»

لكن ذلك الشعور بالغثيان عاد إلى معدته من جديد. لم يكن شبيهًا بدوار البحر، بل إنه كان دوار البحر ذاته. كان قد استقلَّ السفينة كوين إليزابيث 2 إلى إنجلترا منذ عامين وعانى من ليلةٍ ليلاء. ما

يذكره مايك بوضوح هو تمدُّده على الفراش في قمرته وهو على وشك التقيؤ، لكنه لم يستطع أن يقيء. ولكم كان الشعور بالغثيان المصحوب بالدوار يزداد إذا نظرت إلى الباب... أو المنضدة... أو الكرسي... وكيف كانت تلك الأشياء تتحرَّك من الأمام إلى الخلف... من اليمين إلى اليسار... تدق كعقارب الساعة...

– «هذا خطأ أولين.» قالها لنفسه.«هذا ما يريده بالضبط. لقد ملأ رأسك بالخرافات يا صاح. سوف يضحك كثيرًا لو كان يراك. سوف...»

توقَّفت أفكاره عند هذه النقطة، إذ أدرك أن أولين ربما يستطيع رؤيته بالفعل. نظر مايك إلى نهاية الرواق من ناحية المصعد دون أن يلاحظ أن الشعور بالغثيان فارق معدته مرَّة أخرى بمجرَّد أن نظر بعيدًا عن الباب. فوق المصعد إلى اليسار رأى ما توقَّعه: كاميرا من كاميرات الدوائر المغلقة. لا بد أن أحد الأوغاد يراقبه الآن. وكان مايك مستعدًّا لأن يراهن على أن أولين يجلس معه وكلاهما يبتسم كالقرود.

– «علِّمه كيف يأتي إلى هنا ويتبجَّح بمحاميه.» يقولها أولين، فيقول رجل الأمن وابتسامته تتسع:

– «انظر إليه! لونه شاحب كالأشباح وهو لم يمس الباب بعد. لقد نلت منه يا زعيم! نلت منه بالكامل!»

دارت تلك المحادثة المثيرة للغيظ في عقل مايك الذي قال لنفسه:

- «هيهات! لقد مكثتُ في منزل آل ريلسبي ونمت في الغرفة التي قُتل فيها اثنان منهم على الأقل، ولقد نمت بعمقٍ سواءً صدَّقت هذا أم لا. لقد قضيت ليلة إلى جوار قبر چيفري دامر على بعد مقبرتين من قبر لافكرافت ذاته. لقد غسلت أسناني عند الحوض الذي أُشيع أن السير ديڤيد سميث أغرق كلتا زوجتيه فيه. لقد كففت عن تصديق قصص المخيَّمات منذ زمنٍ بعيد، ولتحل بي اللعنة لو كنت قد نلت مني يا أولين!»

وعاد ينظر إلى الباب فوجده مستقيمًا...

لهث في شدة وهو يدس المفتاح في ثقب الباب ثم يديره...

ثم انفتح الباب، ودخل مايك إلى الغرفة **1408**...

لم ينغلق الباب خلفه في بطء وهو يتحسَّس بيده موضع مفتاح الإنارة ليتركه في عتمة تامة، فضلًا عن أن الضوء القادم من البناية المواجهة كان يُلقي ببعضه في الغرفة. عندما عثر على المفتاح وضغطه غمر الضوء القادم من الثريَّا المعلَّقة الغرفة، واستطاع مايك أن يُميِّز مكتبًا في الجانب البعيد.

كان المكتب يقع تحت النافذة تمامًا، بحيث يتيح للجالس عليه أن يتوقَّف عن عمله قليلًا ويطل على منظر الشارع **61**... أو يثب إلى الشارع **61** لو شعر بحاجة مُلحَّة لذلك! لولا أن...

وضع مايك حقيبته عند الباب وأغلقه، ثم ضغط زر تشغيل جهاز التسجيل الصغير، فاشتعلت العين الحمراء الصغيرة:

– «حسب كلام أولين. فإن ستة أشخاص قفزوا من النافذة التي أنظر إليها، لكنني لا أنوي أن أثب من الطابق الرابع عـــ... معذرةً، من الطابق الثالث عشر في فندق دولفين الزيلة. هناك شبكة من القضبان على إطار النافذة الخارجي. طبعًا، فأن تحتاط لأمرٍ خيرٌ من أن تأسف على حدوثه. 1408 عبارة عن جناحٍ صغير. الغرفة التي أقف فيها بها مقعدان وأريكة ومكتب وخزانة تحتوي على جهاز التليفزيون على الأرجح، وربما بار صغير. السجَّادة التي على الأرض عادية، ليست كالتي في مكتب أولين، لك أنت تراهن على ذلك. ورق الحائط شرحه. إنه...»

عند تلك النقطة يسمع المستمع إلى الشريط صوت ضغطة أخرى حيث يضغط مايك زر الإغلاق من جديد. كل الكلام المسجَّل على هذا الشريط يتسم بذلك الأسلوب المبتور، على النقيض تمامًا من المائة وخمسين شريطًا الأخرى التي في حيازة وكيل مايك الأدبي. بالإضافة إلى هذا، فإنك تجد صوته يزداد ارتباكًا باستمرار. هو ليس صوت رجل يقوم بعمله، بل صوت شخص مشوَّش بدأ يتحدَّث إلى نفسه دون أن يعي هذا. طبيعة الشرائط المقتضبة تنضم إلى ذلك الارتباك اللفظي المتزايد لتُعطي معظم المستمعين شعورًا بالتوجُّس لا شك فيه.

هكذا يطلب الكثيرون إيقاف الشريط قبل الوصول إلى نهايته، فبضع كلماتٍ على ورقة لا يمكن أن تنقل على نحوٍ دقيق اقتناع المستمع بأنه يسمع صوت رجلٍ يفقد عقله أو تمييزه للواقع كما هو على أقل تقدير. لكن حتى الكلمات المسطَّحة الخالية من المشاعر توحي بأن شيئًا ما كان يحدث.

ما لاحظه مايك عند تلك النقطة هو اللوحات المعلّقة على الجدران. كان هناك ثلاث منها: سيدة ترتدي ثوب سهرة من العشرينات واقفة على دَرَج، وسفينة مُبحرة مرسومة على نمط مطبوعات كارير وآيفز، وصورة من طراز الطبيعة الصامتة لفاكهة. كانت تلك الأخيرة تُمثّل تفاحًا وبرتقالًا وموزًا مرسومًا بلونٍ برتقالي مصفر منفّر. اللوحات الثلاث كانت محاطة بإطاراتٍ زجاجية، واللوحات الثلاث كانت مائلة. كان مايك على وشك أن يذكر هذا الميل على الشريط، لكن خطر له أنه لا قيمة لذكر شيءٍ عن لوحاتٍ مائلة. لقد خدعته عيناه للحظات وهذا كلُّ شيء.

السيدة الواقفة على الدَّرَج كانت مائلة إلى اليسار، وكذلك السفينة المبحرة التي بدا عليها بعض البحَّارة البريطانيين الذين يرتدون السراويل الواسعة ويميلون على حاجز السفينة كي يُشاهدوا قطيعًا من الأسماك الطائرة. أما لوحة الفاكهة البرتقالية المصفرة —والتي بدت لمايك كأنها وعاء فاكهة مرسوم تحت الشمس الاستوائية الخانقة—

كانت مائلة إلى اليمين. رغم أن مايك لم يكن رجلًا قصير الفتيل بطبعه، إلا أنه دار في الغرفة ليضبط أوضاع اللوحات، فنظره إليها وهي مائلة هكذا كان يجعله يشعر بالغثيان مرّة أخرى.

كان الغبار يُغطي الزجاج المحيط باللوحات. مر بإصبعيه على لوحة الطبيعة الصامتة فترك خطين متوازيين. كان للغبار ملمس زيتي زلِق، تمامًا كالحرير قبل أن يتعفّن مباشرة كما خطر له، لكنه لم يُسجِّل ذلك أيضًا على الشريط. أنى له أن يعرف ملمس الحرير قبل أن يتعفّن؟ كانت مجرد فكرة سخيفة!

عندما ضبط أوضاع اللوحات عاد إلى الخلف بظهره وتطلّع إليها واحدة بعد الأخرى. كانت السيدة التي ترتدي ثوب السهرة عند الباب الذي يقود إلى غرفة النوم، والسفينة التي تمخر عباب أحد البحار السبعة، إلى يسار المكتب، وأخيرًا لوحة الفاكهة المقزِّزة – رديئة الرسم– كانت تجاور خزانة التليفزيون. توقّع جزء منه أن يجدها مائلة مرة أخرى، أو تميل من تلقاء ذاتها وهو ينظر إليها. كانت تلك هي الطريقة التي تجري بها الأمور في الأفلام من عينة (منزل التل المسكون) وحلقات (منطقة الشّفق) القديمة، لكن اللوحات لبثت مستقيمة كما تركها. قال لنفسه إنه لم يكن ليجد أي شيء خارقًا للطبيعة نظرًا لحالة اللوحات المائلة السابقة، فمن خلال خبرته يعرف أن عودة الأشياء إلى الأصل هي طبيعة الأمور: هؤلاء الذين أقلعوا

عن التدخين—ومسّ السيجارة التي خلف أذنه دون أن يعي— يريدون العودة إليه، واللوحات المائلة منذ كان نيكسون رئيسًا تريد أن تعود مائلة.

خطر لمايك أن اللوحات معلّقة منذ وقت طويل بلا شك، وأنه إذا رفعها عن الحائط لوجد لون ورق الحائط خلفها فاتحًا عن بقيته، ولربما وجد جيوشًا من الحشرات التي تجدها إذا رفعت صخرة من على الأرض. بدت له تلك الفكرة منفّرة وصادمة، خصوصًا إذ صحبتها صورة خيالية واضحة لحشرات بيضاء تئز من ورق الحائط الشاحب كالقيح الحي.

رفع مايك جهاز التسجيل وضغط زر التسجيل وقال:

– «من المؤكّد أن أولين قد أطلق قطارًا من الأفكار في رأسي، أم هي سلسلة من الأفكار؟ لقد عزم على إصابتي بأقصى درجات التوتُّر، ولقد نجح بجدارة. لست أقصد أن...»

عند تلك النقطة على الشريط، وبوضوحٍ تام، تسمع مايك إنسلين يقول:

– «يجب أن أستجمع شتات أعصابي... حالًا.»

ثم يتبع هذا صوت ضغطة أخرى إذ أغلق جهاز التسجيل من جديد.

أغلق عينيه والتقط بضعة أنفاس عميقة متتابعة. لم يحدث له شيء مماثل من قبل قط؛ لا في المنازل المسكونة المزعومة، ولا في المقابر المسكونة المزعومة، ولا في القلاع المسكونة المزعومة. لم يبد له الموقف كأنه في مكان مسكون،أو كما تخيَّل أن تكون طبيعة المكان المسكون، بل كان الموقف يبدو له كأنه مسطول بأردأ أنواع المخدِّرات.

أولين فعل هذا. أولين خدعك بالإيحاء، لكنك ستتجاوز هذا الموقف. سوف تقضي الليلة اللعينة في هذه الغرفة، ليس فقط لأنها أفضل موقع زرته على الإطلاق–ودعك من أولين وستجد نفسك وقد اقتربت جدًّا من أفضل قصة أشباح لهذا العقد– بل لأن أولين لا يجب أن يفوز. لن يفوز بالهواء الذي يقوله عن الثلاثين شخصًا الذين ماتوا هنا. أنا الوحيد المسؤول عن الهواء هنا. تنفَّس إذن... شهيق... زفير... شهيق... زفير...

استمرَّ على هذا المنوال تسعين ثانية تقريبًا، وعندما فتح عينيه من جديد شعر بأنه على ما يرام.

اللوحات التي على الحائط؟ ما زالت مستقيمة. الفاكهة التي في الوعاء؟ ما زالت برتقالية مصفرة كأقبح ما يكون. إنها فاكهة صحراوية بالتأكيد. التهم واحدة منها وستقيء حتى تؤلمك معدتك.

ضغط زر التشغيل مرَّة أخرى، وقال وهو يعبر الغرفة إلى حيث المكتب والنافذة ذات القضبان:

- «أُصبت بالدوار لدقيقة أو دقيقتين. ربما لتأثير رواية أولين دور في هذا، لكنني أستطيع الجزم بأنني أشعر بحضور شيءٍ ما هنا.»

لم يكن يشعر بأيٍّ مِن ذلك بالطبع، ولكن بمجرَّد تسجيله له على الشريط كان بإمكانه أن يكتب كل ما يروق له تقريبًا. هكذا تابع:

- «الهواء غريب الرائحة. ليست الرائحة عفنة أو كريهة، فأولين قال إن المكان تتم تهويته كلما تمت تنقيته، لكن أعمال التنظيف تستغرق وقتًا قصيرًا و.. أجل.. الرائحة غريبة. مهلًا، انظر إلى هذا.»

كانت هناك منفضة سجائر على المكتب مصنوعة من الزجاج السميك كالمنافض التي تراها عادةً في كل مكان في الفنادق، وفيها كانت علبة ثقاب تظهر على وجهها صورة فندق دولفين ويقف أمامه بوّاب مبتسم يرتدي زيًّا عتيق الطراز للغاية، بينما تمر سيارات من حقبة أخرى جيئةً من وذهابًا إلى فيفث آڤنيو.

- «علبة الثقاب التي في منفضة السجائر تبدو كأنها من العام 1955 تقريبًا.»

قالها مايك ودسَّ علبة الثقاب في جيبه مواصلًا:

- «سأحتفظ بها كتذكار. والآن حان الوقت لبعض الهواء النقي.»

هنا نسمع صوت نقرة وهو يضع جهاز التسجيل–على المكتب غالبًا– ثم يسود صمت تتبعه أصوات مبهمة ولهاث. بعد ذلك يسود الصمت مرَّة أخرى، ثم تخترقه صيحة بصوت مايك من بعيد ولكن بشكلٍ مسموع للمستمع المدقِّق:

– «نجحت!»

وكرَّرها مرَّة أخرى قبل أن يرفع المسجِّل ثانيةً ويقول في حماس:

– «الجزء السفلي من النافذة لم يتزحزح. يبدو أنه مثبَّت بالمسامير. لكن الجزء العلوي تحرَّك بسهولة. يمكنني الآن سماع صوت حركة المرور في فيفث آفنيو، وصوت أبواق السيارات له وقع مريح. أحدهم يعزف على الساكسوفون ربما أمام فندق پلازا الواقع على بعد شارعين من هنا. يُذكِّرني هذا بأخي الذي...»

بتر مايك عبارته بشكلٍ مفاجئ ونظر إلى العين الحمراء الصغيرة التي بدت وكأنها ترمقه بنظرة اتهام. أخوه؟ أخوه كان ميتًا؛ جندي آخر سقط صريعًا في حرب التبغ. ثم استرخى مايك. ماذا يهم؟ إنه في حربٍ من نوعٍ آخر–حرب الأشباح– حيث يخرج مايك إنسلين دائمًا منتصرًا. أما بالنسبة لدونالد إنسلين...

– «أخي التهمته الذئاب ذات شتاء على طريق كونتيكت الرئيس.» قالها ثم ضحك وأغلق جهاز التسجيل. هناك المزيد من الكلام–القليل منه– على الشريط، لكن تلك هي الفقرة الأخيرة التي تحمل أي ترابُط منطقي أو يمكن استخلاص شيء مفهوم منها.

دار مايك على عقبيه ونظر إلى اللوحات. وجدها لا تزال معلّقة بشكلٍ مستقيم كما كانت. لوحات صغيرة طيبة هي، عدا لوحة الطبيعة الصامتة اللعينة تلك! ما أقبحها!

ضغط زر التسجيل ونطق بكلمتي (برتقال دخاني)، ثم أغلقه مرّة أخرى وعبر الغرفة متجهًا إلى الباب الذي يقود إلى غرفة النوم. توقّف عند السيدة ذات ثوب السهرة ومدَّ يده داخل الظلمة باحثًا عن مفتاح النور. نال لحظة واحدة فقط ليلاحظ...

(ملمسه كالجلد الميت)

... أن هناك شيئًا ما ليس على ما يرام في ورق الحائط تحت راحة يده قبل أن تعثر أصابعه على المفتاح. غمر غرفة النوم ضوء أصفر قادم من كشافات مثبّتة في الجدران، ورأى أن الفراش مختفٍ تحت ملاءة برتقالية مصفرَّة.

سأل مايك جهاز التسجيل:

- «لماذا أقول إنه مختفٍ؟»

ثم إنه أغلقه وخطا داخل الغرفة مأخوذًا بلون الملاءة وبانتفاخات الوسائد تحتها التي بدت له كالأورام. هل ينام في هذا السرير؟ لا يمكن يا سيدي! سيكون هذا كالنوم داخل لوحة الطبيعة الصامتة اللعينة... كالنوم في غرفة مرضى عقليين إنجليز انتقلت إليهم عدوى

الزهري إثر ممارستهم سِفاح القُربى كما قد تشاهد في فيلم من بطولة إما لورانس هارفي أو جيريمي أيرونز، هذين الممثلين اللذين تربطهما بشكل تلقائي بالأفعال الشاذة.

اقترب مايك من الفراش. كانت الملاءة تشع بالضوء البرتقالي المصفر الذي أصاب لون ورق الحائط الأبيض بالعدوى. كان هناك كومودان صغيران على جانبي الفراش، على أحدهما كان الهاتف: أسود اللون ضخمًا مزوَّدًا بقرص أرقام بدت فيه ثقوب الأصابع كأعينٍ بيضاء مندهشة، وعلى الكومود الآخر كان هناك طبق خالٍ تمامًا إلا من ثمرة برقوق. ضغط مايك زر التسجيل وقال:

– «هذه ليست برقوقة حقيقية، إنها مصنوعة من البلاستيك.»

على الفراش وجد قائمة طعام. مشى مايك بمحاذاة جانب الفراش محاذرًا أن يلمسه أو يلمس الحائط، والتقط القائمة. حاول كذلك ألا يلمس الملاءة، لكن أطراف أنامله لمستها، ما جعله يئن. كان ملمسها ناعمًا بطريقة مفزعة منفِّرة، لكنه التقط القائمة على كلِّ حال ووجدها مطبوعة بالفرنسية؛ وعلى الرغم من أنه لم يدرس تلك اللغة منذ سنواتٍ طويلة، فقد بدت له مكونات إحدى وجبات الإفطار كطيور ميتة مشوية في الفضلات البشرية!

قال لنفسه في خبث:

– «على الأقل يبدو ذلك كشيءٍ يمكن أن يأكله الفرنسيون!»

ثم أطلق ضحكة عصبية طويلة وأغلق عينيه ثم فتحهما...

كانت القائمة بالروسية...

أغلق عينيه وفتحهما...

كانت القائمة بالإيطالية...

أغلق عينيه وفتحهما...

لم تكن هناك قائمة!

كانت هناك صورة لولدٍ صغير يصرخ وينظر من خلف كتفه إلى ذئب ابتلع ساقه اليسرى حتى الركبة.

همس مايك لنفسه:

- «أنا لا أرى ذلك حقًا.»

وبالطبع لم يكن يراه. دون أن يغلق عينيه رأى سطورًا منمقة بالإنجليزية يعرض كل منها وجبة إفطار مغرية: البيض، الكعك المحلى، التوت الطازج... لا توجد طيور ميتة مشوية في الفضلات البشرية، ومع ذلك...

استدار وتحرَّك ببطءٍ شديد خارجًا من تلك المساحة الضيقة بين الفراش والحائط، والتي شعر بها الآن كأنها أضيق من قبر. كان قلبه يخفق بعنف، حتى أنه شعر بضرباته في عنقه ومعصميه، وكانت عيناه

تدوران في مجريهما. **1408** كانت على غير ما يرام... أجل... **1408** لم تكن على ما يرام على الإطلاق.

أولين قال شيئًا ما عن الغاز السام، وكان هذا ما يشعر به مايك: كشخصٍ تعرَّض لغازٍ أو كشخص أُجبر على تدخين الحشيش الملوَّث بالمبيدات الحشرية. أولين بالتأكيد فعل هذا بالتواطؤ مع حرس الأمن، بالتأكيد ضخَّ غاز السام الخاص من الثقوب في الجدران، وعدم رؤيته–مايك– لتلك الثقوب لا يعني عدم وجود أيها بالغرفة.

نظر مايك إلى غرفة النوم بعينين متسعتين من الخوف. لم تكن هناك برقوقة على الكومود الآخر بجوار الفراش، ولا حتى طبق، بل كان سطح الكومود خاليًا من كل شيء. استدار مايك واتجه إلى الباب الذي يقود إلى غرفة الجلوس، ثم توقَّف. كانت هناك لوحة على الحائط. لم يكن واثقًا تمامًا (وفي حالته الراهنة لم يمكنه حتى الوثوق تمامًا باسمه ذاته)، لكنه كان واثقًا إلى حدٍّ ما من أنه لم تكن هناك أية لوحات معلَّقة عندما دخل غرفة النوم. كانت لوحة أخرى من لوحات الطبيعة الصامتة تُمثِّل برقوقة واحدة موضوعة في طبق من القصدير موضوع على طاولة خشبية قديمة. الضوء الساقط على البرقوقة والطبق كان برتقاليًّا مصفرًّا متوهجًا.

إضاءة رقصة التانجو. الإضاءة التي تجعل الموتى يخرجون من قبورهم ليرقصوا التانجو. الإضاءة التي...

- «يجب أن أخرج من هنا.» همس بها وهُرع إلى غرفة الجلوس. أدرك أن حذاءيه يُصدران صوت قرقعة كأن الأرضية تحتهما تزداد نعومة.

اللوحات في غرفة الجلوس كانت مائلة مرَّة أخرى، وكانت هناك تغييرات أخرى كذلك. كانت السيدة الواقفة على الدَّرَج قد جذبت قدة ثوبها إلى أسفل لتكشف عن صدرها الذي أخذ يترف دمًا وكانت تتطلّع إلى عيني مايك مباشرةً بابتسامة شريرة، بينما بدت أسنانها حادة كأسنان أكلة لحوم البشر. ملاحو السفينة المبحرة اختفوا وظهر مكانهم عدد من الرجال والنساء الشاحبين. ذلك الرجل الواقف في أقصى اليسار عند مقدِّمة السفينة كان يرتدي بذلة بنيَّة من الصوف ويحمل قبعته في يده بدلاً من أن يُغطِّي بها شعره المنسدل على حاجبيه والمفروق من المنتصف. إذ نظر مايك إلى وجهه المصدوم الخالي من التعبير عرف اسمه في الحال: كيڤين أومالي، أول نزيل في الغرفة، بائع ماكينات الخياطة الذي وثب من النافذة في أكتوبر من عام 1910. إلى يسار أومالي وقف بقية الذين ماتوا في الغرفة؛ كلهم بذات الملامح المصدومة الخالية من التعبير على وجوههم. جعلهم هذا يبدون متشابهين بشكلٍ ما، كأنهم من عائلة واحدة مصابة كلها بالعته. أما الفاكهة الكريهة فلم تعد في صورة الطبيعة الصامتة، وحلَّ محلها رأس بشري مقطوع يغمر الضوء البرتقالي المصفر وجنتيه الغائرتين، يغمر شفتيه المرتخيتين، يغمر عينيه المقلوبتين... يغمر السيجارة القابعة خلف أذنه اليمنى.

اندفع مايك بخطى متعثِّرة إلى الباب سامعًا قدميه تُصدران صوت القرقعة إياه، بل وشاعرًا بهما تلتصقان قليلًا بالأرض مع كل خطوة. طبعًا لم ينفتح الباب. كانت السلسلة متدلية والمزلاج مفتوحًا ومستقيمًا كعقرب الساعة حين يشير إلى السادسة تمامًا، لكن الباب لم ينفتح رغم ذلك. بأنفاسٍ متلاحقة استدار مايك وخاض الطريق (هكذا شعر) عبر الغرفة إلى المكتب. استطاع رؤية الستائر إلى جوار النافذة التي فتح نصفها العلوي تتحرَّك، لكنه لم يشعر بنسمة هواءٍ واحدةٍ على وجهه كأن الغرفة تبتلع الهواء. لم يزل باستطاعته سماع أبواق السيَّارات في شوارع فيفث آڤنيو، لكنها أصبحت بعيدة للغاية الآن. هل لم يزل يستطيع سماع صوت الساكسوفون؟ لو كان لا يزال يستطيع سماعه، فالغرفة بالتأكيد استلبت عذوبته وتناغمه وتركت مكانهما لحنًا رتيبًا باردًا بلا أحاسيس، كأنه صوت الرياح تهب داخل ثقبٍ في عنق رجل ميت أو زجاجة مليئة بالأصابع المبتورة أو...

حاول أن ينطق بشيءٍ ما، لكنه لم يعد يستطيع التحدُّث. كان قلبه يدق بعنفٍ شديد، ولو تسارعت دقاته أكثر من ذلك فسوف ينفجر. جهاز التسجيل الصغير -رفيق دربه المُخلص- لم يعد في متناول يده. لقد تركه في مكانٍ ما... في غرفة النوم؟ لو كان في غرفة النوم فقد اختفى الآن على الأرجح؛ ابتلعته الغرفة لتهضمه قبل أن تُفرزه في إحدى اللوحات.

وضع مايك يده على صدره وهو يلهث محاولًا التقاط أنفاسه كعدَّاءٍ يقترب من نهاية سباقٍ طويل كأنما يحاول أن يُبطئ من وقع ضربات قلبه. ما شعر به إذ وضع يده على الجانب الأيسر من صدرِ قميصه المبهرج هو الشكل المربَّع الصغير لجهاز التسجيل، ومجرَّد شعوره به—وهو الشيء الوحيد المألوف له الآن— ثبَّته قليلًا، أعاده إلى وعيه قليلًا. أدرك أنه كان يهمهم بكلماتٍ غير مفهومة، وأن الغرفة بدورها بدت وكأنها ترد عليه بالهمهمة، كأن عشرات الآلاف من الأفواه لا أقل كانت متوارية تحت ورق الحائط البغيض. أدرك أيضًا أنه يشعر بالعصارة تحتشد في معدته كأنها أصبحت حُرَّة التصرُّف. شعر بالهواء يحتشد على أذنيه ككتلٍ ناعمة متخثِّرة. لكنه—رغم كل هذا— ثاب إلى نفسه قليلًا بما يكفي ليكون متأكدًا من شيء واحد: أنه يجب أن يطلب النجدة قبل أن يفوت الأوان. فكرة أن يفتعل أولين الابتسام بطريقة مدراء فنادق نيويورك المشفقة وهو يقول إنه حذَّره لم تُزعجه هذه المرَّة، وفكرة أن أولين لعب بطريقةٍ ما دورًا في الأهوال التي حدثت بطريقة كيميائية ما غادرت عقله تمامًا. إنها الغرفة... إنها الغرفة اللعينة!

أراد أن يمد يده لينتزع سماعة الهاتف عتيق الطراز—توأم الذي في غرفة النوم— ولكن بدلًا من ذلك شاهد ذراعه وهي تمتد بحركة بطيئة كحركة يد الغواصين تحت الماء، حتى أنه توقَّع أن يرى الفقاقيع تتصاعد منها.

أطبق بأصابعه على السماعة ورفعها، وتحرَّكت يده الأخرى بنفس البطء لتطلب الرقم صفر. إذ وضع السماعة على أذنه، سمع مجموعة من الطقطقات وقد دار قرص الأرقام عائدًا إلى وضعه الأصلي، وبدا له الصوت كصوت العجلة في برنامج (عجلة الحظ). هل تريد تدوير العجلة أم تريد حل اللغز؟ تذكّر أنك إذا حاولت حل اللغز وفشلت فسنلقي بك في الثلوج على قارعة طريق كونتيكت الرئيس لتلتهمك الذئاب!

لم يسمع رنينًا. بدلًا من الرنين، سمع صوتًا خشنًا جافًّا يتكلَّم:

– «أصبحوا تسعة! تسعة! أصبحوا تسعة! تسعة! أصبحوا عشرة! عشرة! لقد قتلنا أصدقاءك! كل صديق منهم ميت الآن! أصبحوا ستة! ستة!»

أصغى مايك برعبٍ متزايد، ليس بفعل ما قاله الصوت، بل بالطريقة التي قاله بها. لم يكن صوتًا آليًّا مسجَّلًا، ولم يكن صوتًا بشريًّا كذلك... لقد كان صوت الغرفة. الكيان الذي ينصبُّ من الأرض والجدران، الكيان الذي يتحدَّث إليه في الهاتف لم تكن له أدنى علاقة بأيِّ حادثٍ خارقٍ للطبيعة قرأ عنه من قبل قط. شيء آخر موجود هنا.

كلا، ليس بعد... لكنه قادم... إنه جائع... وأنت العشاء...

سقط الهاتف من أصابعه المتراخية واستدار هو. تأرجحت السمَّاعة عند نهاية سلكها كمعدته التي أخذت تتأرجح جيئةً وذهابًا بداخله، وما زال يسمع الصوت قادمًا من السمَّاعة السوداء:

- «ثمانية عشر! أصبحوا الآن ثمانية عشر! توارى عندما تسمع صوت صفارة الإنذار! أصبحوا أربعة! أربعة!»

لم يعِ أنه التقط السيجارة من خلف أذنه ووضعها بين شفتيه، أو أنه أخرج علبة الثقاب من جيب قميصه. لم يع أنه-وبعد تسع سنواتٍ كاملة من الإقلاع- قرَّر أن يُدخِّن سيجارة.

وأمام عينيه، بدأت الغرفة في الذوبان...

كانت الجدران ترتخي من زواياها اليمنى وخطوطها المستقيمة، ليس على شكل منحنيات، ولكن على شكل أقواسٍ آذت عينيه. الثريَّا الزجاجية المعلَّقة في منتصف السقف بدأت تنخفض في بطءٍ كقطرة كثيفة من البصاق. اللوحات بدأت تلتوي وتتحوَّل إلى ما يشبه حاجب الرياح في السيَّارات القديمة. من خلف الإطار الزجاجي للوحة المعلقة عند باب غرفة النوم، دارت المرأة ذات الصدر النازف والابتسامة الشريرة والأسنان الحادة على عقبيها وهرعت إلى أعلى الدَّرَج، وبدت كأنها تسري عليه كمصَّاصة دماءٍ في فيلمٍ صامت. صوت الصرير الشنيع القادم من سماعة الهاتف استمر يُلقي بكلماته المجنونة:

- «خمسة! أصبحوا خمسة! تجاهل صفارة الإنذار! حتى لو غادرت هذه الغرفة فلا يمكنك أبدًا أن تغادر هذه الغرفة! ثمانية! أصبحوا ثمانية!»

بدأ باب غرفة النوم وباب الرواق في التداعي إلى أسفل والاتساع من المنتصف ليصبحا مدخلين للكائنات الممسوسة بكل ما هو ملعون. بدأ الضوء يصبح ساطعًا ساخنًا ليملأ الغرفة بذلك الوهج البرتقالي المصفر. الآن أصبح يستطيع رؤية الشقوق في ورق الحائط؛ مسام سوداء سرعان ما استحالت إلى أفواه. غاصت الأرضيَّة داخل قوسٍ مقعَّر واستطاع الآن سماع صوته إذ جاء..ساكن الغرفة التي وراء الغرفة... الشيء الذي يقطن داخل الجدران...صاحب الصوت الذي راح يصرخ عبر الهاتف:

- «ستة! أصبحوا ستة! أصبحوا ستة ملاعين!»

نظر إلى علبة الثقاب التي في يده، ودون أن يُفكِّر-وهو لم يعد يستطيع التفكير أصلًا- انتزع مايك إنسلين عود ثقابٍ واحدًا وهو يُسقط السيجارة من بين شفتيه في الوقت نفسه. أشعل عود الثقاب وقرَّب جذوة النار من الأعواد الأخرى التي سرت فيها النار في الحال.مع تصاعُد رائحة الكبريت المحترق، ودون أن يُفكِّر مرَّة أخرى، قرَّب مايك باقة النيران المتوهجة من قميصه.كان مجرَّد قميص رخيص مصنوع في كوريا أو كمبوديا، فأمسكت به النيران على الفور.

قبل أن تتصاعد ألسنة اللهب أمام عينيه لتحجب عنه الرؤية بالكامل رآه مايك بوضوح، كرجلٍ استيقظ من كابوس، فقط ليجد الكابوس يحيط به من كل اتجاه. باب غرفة النوم أصبح بابًا لغرفة مليئة بالتوابيت الحجريَّة، وحائط لوحة الطبيعة الصامتة كان ينتفخ إلى الخارج باتجاهه، ثم يتمزَّق كأفواهٍ تنفتح عن آخرها على عالمٍ آخر يقترب منه الشيء قادمًا. استطاع مايك إنسلين سماع صوت أنفاسه الشرهة، واستطاع أن يشم رائحته التي بدت كرائحة بيت الأسد في...

سفعت ألسنة اللهب ذقنه لتوقف أفكاره، والحرارة المتصاعدة من قميصه المشتعل أعادت إليه شيئًا من الوعي؛ وإذ بدأ يشم رائحة شعر صدره المحترق، اندفع مايك إلى الباب وهو يسمع ما يشبه صوت حشرات يخرج من الجدران، بينما الضوء البرتقالي المصفر يتزايد بانتظام. لكنه عندما وصل إلى الباب هذه المرَّة وأدار المقبض، انفتح الباب.

كأن ذلك الشيء القادم عبر الجدار المتهاوي ليست به حاجة إلى رجلٍ مشتعل، أو أنه ربما لا يستسيغ طَعم اللحم المحروق.

***

3

تقول أغنية شهيرة من الخمسينات إن الحب يجعل العالم يدور، لكن الصُّدف قد تلعب دورًا أفضل في هذا الإطار. نزيل الغرفة **1414** الواقعة بالقرب من المصعد في تلك الليلة كان روفوس دربورن، بائع ماكينات خياطة جاء من بلدة صغيرة في تكساس سعيًا لمنصب إداري في شركته. هكذا كان من تصاريف القدر، وبعد تسعين عامًا منذ وثب أول نزلاء الغرفة **1408** من النافذة، أن يُنقذ بائع ماكينات خياطة آخر حياة الرجل الذي جاء ليكتب عن الغرفة المسكونة. أو ربما تحمل هذه العبارة شيئًا من المبالغة، فلربما نجا مايك إنسلين من الموت حتى لو لم يكن أحد-بالذات رجل في طريق العودة إلى غرفته بعد أن كان يُحضر بعض الثلج- يعبر الرواق في تلك اللحظة ليُنقذه.

اشتعال النار في قميصك ليس بدعابة، ولربما أمست حروق مايك أكثر خطورة وانتشارًا لولا مستر دربورن الذي فكّر بسرعةٍ وتحرَّك أسرع.

ليس الأمر أن مستر دربورن يذكر ما حدث بالضبط. لقد بنا قصة مترابطة منطقيًا للصحافة وكاميرات التليفزيون—وطبعًا أحب كثيرًا فكرة أن يكون بطلًا، وبالطبع أفاد هذا طموحاته الإدارية—وتذكّر بوضوح أنه رأى الرجل المشتعل نارًا يندفع إلى الرواق، لكن بعد ذلك كل شيء مشوَّش. كان التفكير في الأمر يُشبه أن تحاول أن تتذكّر ما فعلته وأنت ثمل لأقصى درجة بأردأ أنواع الخمور.

كان واثقًا من شيءٍ واحدٍ فقط، لكنه لم يُصرِّح به لوسائل الإعلام لأنه لم يحمل أي منطق: صرخة الرجل المحترق بدت وكأنها تتصاعد باضطراد، كأنك ترفع مستوى الصوت في جهاز الستريو. كان هناك أمام دربورن، ودرجة الصرخة لم تتغيَّر قط، لكن مستوى الصوت تغيَّر بكل تأكيد. هرع دربورن عبر الرواق بالدلو المليء بالثلج في يده و...

– «كان قميصه فقط هو المشتعل. رأيت هذا في الحال.»

... وكان هذا إذ رأى الرجل يصطدم بباب الغرفة المواجه للغرفة التي خرج منها، ثم يرتد ويترنَّح، ثم يسقط على ركبتيه. عندما وصل دربورن إليه، وضع قدمه على الكتف المحترقة لقميص الرجل الصارخ

ودفعه إلى البساط الذي يفترش أرضية الرواق، ثم أفرغ ما في الدلو من ثلجٍ عليه.

كل هذه التفاصيل كانت مشوَّشة في ذاكرته، لكن بلوغها ممكن. كان يُدرك أن القميص المحترق يشع بضوءٍ شديد، ضوءٍ برتقالي مصفر وهَّاج جعله يفكِّر في الرحلة التي قام بها مع أخيه إلى أستراليا قبل عامين. كانا قد استأجرا سيَّارة وانطلقا إلى الصحراء الأسترالية الكبرى. كانت رحلة رائعة لكن مخيفة، بالذات مع تلك الصخرة الكبيرة في المنتصف، صخرة آيرس. كانا قد وصلا إليها مع حلول المغرب، وكان الضوء الساقط عليها يشبه هذا... ساخنًا وغريبًا... ليس كما يبدو الضوء الطبيعي على كوكب الأرض على الإطلاق.

جثا دربورن على ركبته إلى جوار الرجل المحترق الذي أصبح الآن الرجل الذي خمد حريقه، أو الرجل المغطَّى بمكعبات الثلج، وقلَبه على وجهه ليُطفئ شرارات اللهب الذي يلتهم ظهر قميصه. عندما فعل هذا رأى أن الجلد على الجانب الأيسر من عنق الرجل قد احترق تمامًا، وأن شحمة أذنه اليسرى قد ذابت قليلًا، لكن عدا ذلك... عدا ذلك...

رفع دربورن ناظريه ورأى -رغم جنون الفكرة- أن مدخل الغرفة التي جاء منها الرجل كان مغمورًا بضوء الغروب الأسترالي المحترق، كأنه ضوء الأماكن الخالية التي تعيش فيها كائنات لم يرها بشر قط.

كان الضوء–بالذات مع صوت الأزيز الذي صحبه– مرعبًا، لكنه في الآن ذاته كان ساحرًا. لقد أراد أن يدخل داخله، أراد أن يرى ما يوجد خلفه. من الوارد أيضًا أن مايك قد أنقذ حياة دربورن بدوره. كان واعيًا تمامًا لنهوض دربورن وللضوء الوهاج النابض الذي غمر وجهه قادمًا من 1408. تذكّر مايك هذا أفضل مما تذكّره دربورن نفسه لاحقًا، لكن روفوس دربورن بالطبع لم يكن مجبرًا على إشعال النار في نفسه لينجو.

أطبقت يد مايك على ثنية سروال دربورن وقال بصوتٍ مبحوح:

– «لا تدخل. لن تخرج أبدًا لو فعلت.»

توقّف دربورن ونظر إلى وجه الرجل المحمر المتقرّح الذي همس:

– «إنها مسكونة.»

وكأنما نطق مايك بكلمات تعويذة، صفق باب الغرفة 1408 نفسه في عنفٍ شديد، ليقطع الضوء وصوت الأزيز الرهيب الذي يكاد يكون كلماتٍ منطوقة.

***

4

ثمّة صورة مثيرة للاهتمام لمايك إنسلين في العدد السادس عشر من نشرة (كيف تعالج ضحايا الحرائق الطبية) الذي صدر بعد ستة عشر شهرًا تقريبًا من إقامة مايك القصيرة في الغرفة **1408** بفندق دولفين. الصورة تُظهر جذعه فقط، لكنه مايك بكل تأكيد. يمكنك أن تعرف هذا عن طريق ذلك المربّع الأبيض على جانب صدره الأيسر، حيث لون اللحم حوله أحمر محترق، بينما تتناثر بعض الحروق من الدرجة الثانية في بعض الأماكن. المربّع الأبيض يحتل مكان الجانب الأيسر للقميص الذي كان يرتديه تلك الليلة، القميص الجالب للحظ الذي وضع جهاز التسجيل الصغير في جيبه.

جهاز التسجيل نفسه ذاب من الجوانب، لكنه لا يزال يعمل، كما أن الشريط الذي بداخله في حالةٍ جيدة... الأشياء المسجَّلة عليه هي التي ليست جيدة.

بعد أن استمع إليه ثلاث أو أربع مرَّات، قرر سام فارل و نيل مايك أن يُلقي به في خزانة الحائط، رافضًا أن يعترف بالقشعريرة التي سرت في ذراعيه الهزيلتين. ظلّ الشريط داخل خزانة الحائط تلك منذ ذلك الحين، ولم يُغامر فارل بأن يُخرجه ويُشغِّله مرَّة أخرى، لا لنفسه ولا لأصدقائه الفضوليين، الذين منهم من على استعدادٍ لأن يَمُتَّل ليسمعه، فمجتمع الناشرين في نيويورك صغير والأخبار تنتقل بسرعة.

لا يروق له صوت مايك على الشريط، ولا تروق له الأشياء التي يقولها ذلك الصوت، مثل...

«أخي التهمته الذئاب ذات شتاء على طريق كونتيكت الرئيس.»

... فما معنى ذلك بحق السماء؟

والأكثر إثارة للتوجُّس هو الأصوات التي في خلفية الشريط؛ الأصوات التي تبدو أحيانًا كصوت سائلٍ يغلي، وأحيانًا كصوت ملابس تدور في غسَّالة قديمة... وأحيانًا كصوتٍ آدمي.

عندما كان مايك في المستشفى، جاء رجل اسمه أولين–مدير الفندق اللعين– وطلب من سام فارل أن يستمع إلى الشريط، لكن فارل رفض وقال لأولين إن كل ما يمكنه فعله أن يخرج من مكتبه حالًا ويعود إلى الخرابة التي يديرها، شاكرًا الله أن مايك إنسلين قرَّر ألا يُقاضي الفندق أو يُقاضيه بتهمة الإهمال.

- «حاولت أن أقنعه بعدم الدخول.» قالها أولين بهدوء الرجل الذي قضى معظم أيام عمله يستمع إلى شكاوى المسافرين المنهَكين والضيوف الفظين من كل شيء، بداية بغُرفهم وحتى المجلات التي توضع على المناضد. هكذا لم تُزعجه سلاطة لسان فارل.

- «لقد بذلت كلّ ما بوسعي. لو كان هناك شخص مهمل تلك الليلة، فهو عميلك يا سيد فارل. إنه لم يؤمن على الإطلاق بوجود شيءٍ في الغرفة، وهذا السلوك ليس حكيمًا ولا آمنًا. رأيي أن اعتقاده قد تغيَّر نوعًا بعد تلك الليلة.»

رغم نفور فارل من الشريط، إلا أنه يريد من مايك أن يستمع إليه ويستفيد منه، ولربما يستخدمه كمسوَّدة لكتابٍ جديد. ما حدث لمايك يستحق كتابًا-ليس فصلًا من أربعين صفحة، بل كتابًا كاملًا... كتابًا تفوق مبيعاته كُتُب الليالي العشر الثلاثة مجتمعة، فهو بالطبع لا يُصدِّق إصرار مايك على أن قصته مع حكايات الأشباح-بل مع الكتابة بمجملها- قد انتهت. كل الكُتَّاب يقولون ذلك من حينٍ إلى آخر وهذا كل شيء.

بالنسبة لمايك إنسلين نفسه، فهو محظوظ لنجاته بوضع كل ما حدث في الاعتبار، وهو يعرف هذا. كان يمكن أن تكون حروقه أسوأ بكثير مما هي، فلولا مستر دربورن ودلو الثلج لكان اضطر للخضوع لأكثر مَن عشرين وربما ثلاثين عملية ترقيع للجلد بدلًا من العمليات

الأربع التي خضع لها. ثمّة ندوب على الجانب الأيسر من عنقه رغم عمليات الترقيع، لكن الأطباء في معهد بوسطن للحروق قالوا له إن الندوب ستختفي مع مرور الوقت. كان يعرف أيضًا أنه لولا الحريق الذي أشعله لمات في الغرفة **1408** ولكانت نهايته لا توصَف. قد يبدو سبب الوفاة للطبيب الشرعي الذي كان سيفحصه صدمة عصبية أو أزمة قلبية، في حين أن السبب الحقيقي أخطر...

أخطر بكثير...

لحسن حظه أيضًا أنه نشر ثلاثة كُتُب شهيرة عن الأشباح والأماكن المسكونة قبل أن يقع في حبائل مكانٍ مسكون فعلًا! هو يعرف هذه الحقيقة أيضًا. قد لا يُصدِّق سام فارل أن حياة مايك ككاتب قد انتهت، لكنه ليس بحاجة لأن يُصدِّق، ويكفي أن مايك يدرك هذه الحقيقة بالنيابة عنه.

إنه الآن لا يستطيع الكتابة على بطاقة بريدية دون أن يشعر بالبرد يسري في أوصاله وبالعصارة تحتشد في معدته. أحيانًا مجرَّد النظر إلى قلم أو جهاز تسجيل يجعله يقول لنفسه:

- «اللوحات كانت مائلة... لقد حاولت تقويمها.»

هو لا يعرف معنى هذا. هو لا يذكر اللوحات ولا أي شيء آخر من الغرفة **1408**، وهو سعيد لهذا. تلك رحمة.

ضغط دمه ليس على ما يرام هذه الأيام... قال له طبيبه إن ضحايا الحرائق كثيرًا ما يعانون من مشاكل في ضغط الدم ووصف له بعض الأدوية... عيناه تؤلمانه... وصف له طبيب العيون دواءً لهما... يعاني من ألمٍ مستمر في ظهره.. حجم البروستاتا تضخَّم كثيرًا... لكنه يمكنه التعامل مع تلك الأشياء. هو يعرف أنه ليس أول شخص يفر من 1408 دون أن يفر. أولين حاول أن يُخبره، لكن لا بأس. على الأقل هو لا يذكر.

أحيانًا تراوده الكوابيس... كثيرًا في الحقيقة. في الواقع هي تراوده كل ليلةٍ تقريبًا! لكنه نادرًا ما يذكرها عندما يستيقظ.

هو يعيش في لونج أيلاند هذه الأيام، وعندما يصفو الجو يتجوَّل طويلًا على الشاطئ. أكثر مرَّة ربط فيها تفصيلة بما يذكره من الدقائق السبعين الرهيبة التي قضاها في 1408، كانت أثناء إحدى تلك الجولات على الشاطئ. عندئذٍ قال للأمواج المتصارعة في صوتٍ مصدوم:

– «لم يكن آدميًا قط. الأشباح... على الأقل الأشباح كانت بشرًا من قبل... أما ذلك الشيء في الحائط... ذلك الشيء...»

قد تتحسَّن حالته مع مرور الزمن. قد تتلاشى تلك الذكريات من عقله كما ستتلاشى الندوب التي على عنقه. إلا أنه في الوقت الحالي ينام والأنوار مضاءة في غرفة نومه حتى يعرف على الفور أين هو

عندما يستيقظ من كابوس. لقد تخلّص من جميع الهواتف التي في المنزل، ففي مكانٍ ما من عقله الباطن، كان يخشى أن يرفع السماعة ذات مرة ليسمع الصوت غير البشري يبصق في أذنه الكلمات الكريهة:

– «أصبحوا تسعة! تسعة! أصبحوا تسعة! تسعة! أصبحوا عشرة! عشرة! لقد قتلنا أصدقاءك! كل صديق منهم ميت الآن!»

عندما تغرب الشمس يُغلق كلّ ستارةٍ في المنزل ليحجب كلّ النوافذ، ويجلس في الغرفة المظلمة حتى تُخبره ساعته أن آخر شعاعٍ من الضوء لا بد وأنه قد ذاب في الأفق.

هو لا يطيق الضوء الذي يأتي مع الغروب...

ذلك الضوء الأصفر الغارق في اللون البرتقالي كما في الصحراء الأسترالية.

الفهرس



1408

غرف الفنادق أماكن مخيفة بطبيعتها حقًا،ألا ترى ذلك؟ أعني، كم شخصًا سبقك إلى النوم في هذا الفراش؟ كم منهم كان مريضًا؟ كم منهم كان يشعر بأنه يفقد عقله؟ كم منهم كان يُفكّر ربما في قراءة بضع آيات أخيرة من الكتاب المقدّس الموضوع في دُرج الكومود المجاور للفراش قبل أن يشنق نفسه في الخزانة القريبة من التليفزيون؟

بررررا على كلّ حال دعونا ندخل. ها هو مفتاحك... ولربما كنت ترغب في استغراق بعض الوقت لتلاحظ مجموع تلك الأرقام الأربعة البريئة.

إن الغرفة 1408 تنتظرنا في نهاية الرواق.

Cover by #ahz_art



دار اكتب للنشر والتوزيع

12 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور المرج الغربية - القاهرة - مصر

01144552557

E-mail : daroktob1@yahoo.com



9789774882654